

الرحلات الصينية

العودة إلى الصين

مشاهدات وأحاديث في أحوال المسلمين

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

© محمد بن ناصر العبودي ، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي ، محمد بن ناصر

العودة إلى الصين - الرياض .

٣٢٠ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ٥ - ٧٩٤ - ٣٥ - ٩٩٦٠

أ- العنوان

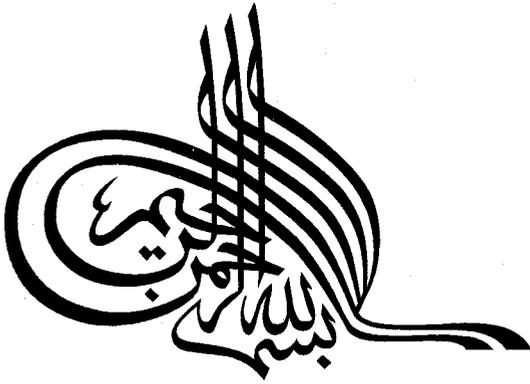
١- الصين - وصف ورحلات

٢٠/٠٣٣٠

ديوي ٩١٥,١٠٤

رقم الايداع ٢٠/٠٣٣٠

ردمك : ٥ - ٧٩٤ - ٣٥ - ٩٩٦٠



مؤلفاته المطبوعة في الرحلات

- (١) في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين - بيروت دار الثقافة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- (٢) رحلة إلى جزر مالديف إحدى عجائب الدنيا - الرياض دار العلوم ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- (٣) مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين - الرياض النادي الأدبي ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- (٤) جولة في جزائر البحر الزنجي أوحديث عن الإسلام والمسلمين وجزر المحيط الهندي - الرياض - المطابع الأهلية للأوفست ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- (٥) رحلة إلى سيلان، نشرته جمعية الثقافة والفنون ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م
- (٦) صلة الحديث عن إفريقية مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين، نشرته دار العلوم ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- (٧) مشاهدات في بلاد العنصريين، رحلة إلى جنوب إفريقية وحديث في شؤون المسلمين - بريدة - نادي القصيم الأدبي ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- (٨) إطلالة على نهاية العالم الجنوبي - مكة المكرمة - نادي مكة الثقافي ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- (٩) زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية - الرياض - ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.
- (١٠) شهر في غرب إفريقية مشاهدات وأحاديث عن المسلمين - الرياض ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

- (١١) في نيبال بلاد الجبال، رحلة وحديث في شؤون المسلمين - الرياض - مطابع الفرزدق ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- (١٢) رحلات في أمريكا الوسطى - الرياض - المطابع الأهلية للأوفست ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- (١٣) إلى أقصى الجنوب الأمريكي، رحلة في الأرجنتين وتشيلي - الرياض المؤلف ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- (١٤) على ضفاف الأمازون، رحلة في المنطقة الاستوائية من البرازيل - نشره النادي الأدبي في أبها ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- (١٥) على قمم جبال الأنديز - الرياض مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- (١٦) في غرب البرازيل - الرياض - مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- (١٧) في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر - طبع في مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- (١٨) بقية الحديث عن إفريقية - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٢هـ.
- (١٩) جولة في جزائر البحر الكاريبي - مطابع الرياض الأهلية للأوفست عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- (٢٠) جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ - مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- (٢١) داخل أسوار الصين (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية - الرياض

عام ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

(٢٢) بلاد الداغستان - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٣هـ.

(٢٣) الرحلة الروسية - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ.

(٢٤) مع المسلمين البولنديين - مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٣هـ.

(٢٥) جمهورية أذربيجان - طبع مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

(٢٦) في أعماق الصين الشعبية - نشرته مجلة المنهل.

(٢٧) بين الأرغواي والبارغواي - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

(٢٨) بورما الخبر والعيان - طبع بيروت عام ١٤١٢هـ.

(٢٩) مقال عن بلاد البنغال - طبع بالرياض عام ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

(٣٠) ذكريات من يوغسلافيا - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

(٣١) كنت في بلغاريا - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

(٣٢) في جنوب الصين - طبع رابطة العالم الإسلامي بمطبعاتها في مكة المكرمة عام ١٤١٤هـ.

(٣٣) كنت في ألبانيا - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٤هـ.

(٣٤) ذكرياتي في إفريقية - محاضرة طبعها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

(٣٥) أيام في النيجر - طبع بيروت عام ١٤١٤هـ.

(٣٦) على أرض القهوة البرازيلية - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض
عام ١٤١٥هـ.

(٣٧) نظرة في شرق أوروبا وحالة المسلمين بعد الشيوعية - طبع بيروت عام
١٤١٤هـ.

(٣٨) بين غينيا بيساو وغينيا كوناكري - مطابع الفرزدق التجارية عام
١٤١٤هـ.

(٣٩) من أنقولا إلى الرأس الأخضر - مطابع الفرزدق بالرياض عام
١٤١٤هـ.

(٤٠) سياحة في كشمير - مطابع الفرزدق عام ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٤١) يوميات آسيا الوسطى - مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ.

(٤٢) نظرة في وسط إفريقية - مطابع الفرزدق عام ١٤١١هـ/١٩٩١م.

(٤٣) بلاد القرم - نشرته دار القبلة في جدة.

(٤٤) قصة سفر في نيجيريا (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية في
الرياض.

(٤٥) حديث قازاقستان - نشرته دار القبلة في جدة (تحت الطبع).

(٤٦) المسلمون في لاوس وكمبوديا: رحلة ومشاهدات ميدانية - نشرته
رابطة العالم الإسلامي في سلسلة دعوة الحق، وطبعته في مطبعتها
عام ١٤١٦هـ.

(٤٧) في جنوب الهند من سلسلة الرحلات الهندية - طبع في مطابع

الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٤٨) رحلات في أمريكا الجنوبية: غيانا وسورينام، مطابع التقنية بالرياض عام ١٤١٩هـ.

(٤٩) إطلالة على أستراليا - طبع في مطابع التقنية للأوفست - الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٥٠) أيام في فيتنام - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥١) في غرب الهند - من سلسلة الرحلات الهندية - نشرته رابطة العالم الإسلامي عام ١٤١٧هـ.

(٥٢) إطلالة على موريتانيا - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥٣) حديث قيرغيزستان، دراسة في ماضيها ومشاهدات ميدانية -

نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

(٥٤) زيارة رسمية لتايوان، نشر دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

(٥٥) سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

(٥٦) راجستان: بلاد الملوك - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

(٥٧) العودة إلى الصين، وهو هذا الكتاب.

(٥٨) هندوراس ونيكاراقوا وكوستاريكا (من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز).

(٥٩) شرق الهند (من سلسلة الرحلات الهندية)، طبع في مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات

(٦٠) معجم بلاد القصيم (في ستة مجلدات) - نشرته دار اليمامة بالمطابع الأهلية للأفست بالرياض عام ١٣٩٩هـ، ثم طبع مرة أخرى في عام ١٤١٠هـ.

(٦١) أخبار أبي العيناء اليمامي - طبع في الرياض وبيروت عام ١٣٩٨هـ.

(٦٢) الأمثال العامية في نجد (خمسة مجلدات) ساعدت دار الملك عبد العزيز في الرياض على طبعه، ونشرته دار اليمامة للطبع والنشر عام ١٣٩٨هـ.

(٦٣) كتاب الثقلاء - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(٦٤) نفحات من السكينة القرآنية - طبع أكثر من مرة آخرها طبعة لوزارة المعارف لتوزيعها على مكاتب المدارس - نشرته دار العلوم في الرياض عام ١٤٠٣هـ.

(٦٥) مآثورات شعبية - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(٦٦) سوانح أدبية - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(٦٧) صور ثقيلة - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(٦٨) العالم الإسلامي والرابطة - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبع في مطبعتها عام ١٤١٤هـ.

(٦٩) نظرة إلى العلاقات العربية مع أهالي جنوب الصحراء - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

(٧٠) المقامات الصحراوية - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

بلاد الصين واسعة النواحي، شاسعة الأركان، وهي أيضاً مختلفة الأجناس والسكان، وإن كان بعض سكانها يدور الاختلاف بينها داخل الحلقة أو الدائرة الصينية العجيبة التي يجزم من يرى الذين يدخلون فيها أنهم من الصينيين من دون الحاجة إلى بحث أو كبير تفكير.

هذا إلى جانب أناس يعيشون في الصين، وإن كانوا من قومية أخرى، مثل أهل تركستان الشرقية الذين يسمون بالإيغور، ويسمون بلادهم شنجاك، وهي التي عرفت بسنكيانغ، ومعنى (شنجاك) الأرض الجديدة المكتسبة، وقد أوضحت شيئاً من أمرهم في كتاب مستقل عنوانه ((في مهد الترك)).

ويمكن القول نفسه - إلى حد ما - بالنسبة إلى المغول الذين يسكنون داخل مقاطعة منغوليا الداخلية ذات الحكم الذاتي المحلي، وبلادهم قريبة من عاصمة الصين (بكين)، ورغم بعض الملامح التي توهم من لا معرفة لديهم بأنهم داخلون في الدائرة الصينية، فإنهم المغول الذين عرفناهم في تاريخنا العربي بالجفاء والبداءة؛ بل الهمجية في تدمير الحضارة، والبعد عن العلوم، وعرفهم العالم بمثل ذلك، عندما خرجوا من بلادهم، وقبل أن يسلموا ويحسن إسلام أكثرهم.

أما بقية مقاطعات الصين، فإن سكان أكثرها يتميزون بالملامح الصينية، بل بالتقاسيم الصينية التي لا تخفى على أحد، ولو تباعدت أقسام بلادهم، فمثلاً المسافة ما بين بكين إلى كون منغ عاصمة مقاطعة يونان تقرب من أربعة آلاف كيلو متر، ومع ذلك يرى الزائر

الغريب لتلك البلاد أنه لا يزال في الصين، وأن الملامح والتقسيم هي الصينية المميزة رغم الفروق الدقيقة التي لا بد من وجودها في سكان البلاد الواسعة.

والمهم عندي بالنسبة لزيارة الصين هو بالدرجة الأولى الاطلاع على أحوال المسلمين في مقاطعات الصين المختلفة، ومعرفة ما تتميز به كل جماعة منهم عن الجماعات الأخرى.

ولذلك قضيت في الرحلة الأولى إلى الصين ٣٠ يوماً، ومع ذلك لم أشعر بأنني شفيت نفسي من الاطلاع على أحوال المسلمين بخاصة، ولا على أحوال الصين عامة، وما زلت أتطلع إلى المزيد من ذلك.

وعندما أتاحت هذه الفرصة لزيارة الصين زيارة رسمية أخرى أبرقنا للجمعية الإسلامية الصينية بأني أرغب في زيارة مقاطعات جديدة لم أزرها من قبل، وهي منشوريا، ومنغوليا الداخلية، وشينقهاي - وهي بكسر الشين، وجيم مصرية - إحدى المقاطعات؛ خلاف شِنغهاي - بفتح الشين، وغين عربية صحيحة - فهذه كبرى مدن الصين، وقد زرتها في المرة الأولى، وكذلك مقاطعة التبت التي هي سقف العالم، ومقاطعة يونان.

وقد أبطأ الرد من الجمعية الإسلامية، ولا شك في أن السبب هو مراجعة الحكومة الصينية التي لا يمكن أن تدعو الجمعية الإسلامية الصينية أي ضيف إلا بعد موافقتها، ثم جاءت الموافقة على زيارة ثلاث مقاطعات هي: منغوليا الداخلية، وشينقهاي، ويونان، وأغفلوا - بمعنى اعتذروا اعتذاراً مهذباً عن زيارة منشوريا والتبت، مع أن التبت مهمة عندي، فهي تدعى: سقف العالم لارتفاعها الشديد، والبلاد أكثرها باقٍ

على ما كان عليه من طابع قديم لم تدخله المدنية، وفيها مسلمون لم نتصل بهم، ولا نعرف عن أحوالهم شيئاً، والوقت لزيارة التبت مناسب جداً في هذا الفصل من السنة، وهو أول فصل الصيف، لأن التبت باردة جداً لوقوعها في جبال الهماليا.

وأما منشوريا، فإن الأمر فيها عندي أخف من غيرها، فهي وإن كان فيها مسلمون، فإن لدينا بعض المعلومات عنهم، ومنهم كان المترجم والمرافق في الرحلة السابقة الأستاذ لقمان ما شان لي.

هذا إلى جانب منطقة العاصمة (بكين) وما قرب منها، وفيها ما لم أزره في المرة الماضية، غير أنني عندما وصلت إلى مدينة بكين، وبدأت المحادثات مع المسؤولين في الجمعية الإسلامية الصينية تبين أن الوقت الذي خصصته لزيارة الصين وهو اثنا عشر يوماً لا يكفي في السفر مثلاً إلى مقاطعة شنقهاي، وهي مقاطعة مهمة إذ فيها نسبة عديدة طيبة من المسلمين النشطين، ويحتاج إلى مدة أطول مما قدرته، لأن الطائرة لا تنزل فيها، وعلينا كما قالوا لنا أن نساfer بالطائرة إلى مدينة (لانجو) عاصمة كانسو التي كنت زرتها في المرة السابقة، ومن هناك نركب السيارات إلى مدينة شي نغ عاصمة شنقهاي، وذكروا أن ذلك يستغرق سبع ساعات في الذهاب، ومثلها في الإياب، والشيء الذي لم يذكره في هذه المقالة، وذكره في مناسبات أخرى أن طرقهم ليست كطرقنا حديثة واسعة سريعة، بل هي قديمة وعامرة، أو دامرة بالحفر والنقر، فضلاً عن عدم استقامتها، وكونها مفتوحة لسير الدواب وغيرها. فهي ليست مغلقة كالطرق السريعة الحديثة في بلادنا.

هذا إلى جانب كون مواعيد الطائرات عندهم متباعدة، والرحلات

قليلة فمثلاً يمكن أن تكون مدينة يبلغ عدد سكانها مليونين من البشر ليست لها رحلة مباشرة إلى العاصمة بكين إلا مرتين في الأسبوع، على حين أن مدينة بريده التي هي مسقط رأسي، وهي عاصمة منطقة القصيم، لها ثلاث رحلات يومية إلى العاصمة الرياض، وسكانها لا يزيدون على مائتين وخمسين ألفاً على أكثر تقدير.

ناهيك بالرحلات الكثيرة بين الرياض وجدة، وهما تعدان من المدن الصغيرة إذا قيستا بمقياس كبر المدن وصغرهما في الصين.

لذلك حذفنا السفر إلى مقاطعة شينهاي من برنامج الزيارة، وجعلنا عوضاً عنها زيارة مدينة تيانجين، وهي مدينة مهمة واقعة على البحر في الجنوب الشرقي من بكين.

وقد قيدت خلال هذه الرحلة كما فعلت في الرحلة السابقة، مذكرات يومية عن زيارتي على عاداتي التي اتبعتها في رحلاتي، وهي عادة لاقت قبولاً عند بعض قراء العربية الكرام الذين كانوا يقرأون بعض كتبي في الرحلات التي كتبت بهذه الطريقة، ويطلبون مني ومن غيري الاطلاع على المزيد مما صدر منها.

وفيما يتعلق بالصين بخاصة، فإنني لا أحصي من طلب مني أن أكتب عنها، ومن يسألني ويلحف في السؤال عن كتابي الذي كتبتة عن الصين بعد الزيارة الأولى، لذلك ربما يلاحظ القارئ الكريم أن الكتاب يشتمل على ذكر أشياء يعتبرها تافهة، أو لا تستحق الذكر عنده، والسبب في ذلك أن هذه البلاد الصينية الواسعة تكاد تكون مجهولة لكثير من قراء العربية الكرام، وحتى الذين قرأوا عنها ربما قرؤوا أشياء مما يهتم به أكثر الناس من صحفيين وسياسيين ومعلقين

على الأمور الإدارية، وأما بعض العادات، والأمور الاجتماعية، فإنه لا أحد يذكرها، لأنها لا تثير اهتمام الكتبة في السياسة، ولا المعلقين على الأمور الاقتصادية العامة.

إضافة إلى أن ذكر هذه الأمور ناشئ عن طبيعة ربما توصف بأنها فضولية في الكاتب، وقدرها بعض القراء، ولم توافق هوى بعضهم، فأستمخ من لم تناسبهم العذر، وأرجو أن يكون في الأمور العامة التي يهتمون بها ما يبرر مضيهم في قراءة هذا الكتاب، و(الكل امرئ من دهره ما تعود) كما قال أبو الطيب المتبني.

سبب الرحلة

والسبب المباشر لهذه الرحلة إضافة إلى ما سبق من الرغبة في الاطلاع على أحوال المسلمين في مقاطعات الصين، هو البحث مع الجمعية الإسلامية الصينية في بكين في إقامة دورة لتدريب أئمة المساجد والعاملين في الشؤون الإسلامية في الصين، ويكادون ينحصرون بأئمة المساجد، والمدرسين في المعاهد الإسلامية التي أنشئت حديثاً، بعد أن سمحت حكومة الصين الشعبية بذلك انطلاقاً من سياستها في الانفتاح الخارجي الذي لا بد لكي يكون صادقاً، ولو من الناحية الدعائية، من أن يصحبه انفتاح داخلي يطلع عليه من يزورون الصين، ويرون ما يدور في داخلها، وهو انفتاح حقيقي بلا شك، وليس لمجرد الدعاية، غير أنه محدود جداً بالنسبة إلى ما يعرفه الناس عن العلاقات بين الأمم، وبين الجمعيات، والجماعات في البلدان المختلفة.

وقد أصاب إخواننا المسلمين نصيب من ذلك الانفتاح، وإن كان أقل كثيراً مما يجب، ولكنه على أية حال أعطاهم قدراً من الحرية في

الاتصال بإخوانهم المسلمين في الخارج، وفي مقدمتهم رابطة العالم الإسلامي.

وقد شاهدنا ذلك واضحاً في الفرق بين الحال التي كانت عليها المساجد عندما شاهدناها في الرحلة الأولى، وبين ما عليه الحال الآن.

فلقد أعيدت معظم المساجد التي كانت الحكومة والسلطات الشيوعية قد صادرتها واستولت عليها إبان ما كان يسمى بالثورة الثقافية، وما أصبحوا يطلقون عليه الآن في الصين عهد عصاة الأربعة، ولم يبق خارجاً عن أيدي المسلمين من المساجد إلا قليل جداً، وفي بعض البلدان ذات العدد الجيد من المسلمين، وإن لم يبلغ الأغلبية، أعيدت جميع المساجد، وإن كانت أكثر المساجد التي أعيدت تحتاج إلى الترميم والإصلاح، وبعضها يحتاج إلى إعادة البناء لكون الشيوعيين قد خربوه قصداً، أو بسبب طبيعة الاستعمال، لأن بعض المساجد كانت قد حولت إلى مصانع، وهذا ما خربها، وبعضها حولت إلى مساكن للجنود والشبيبة الشيوعية، فدمر ذلك قسماً منها.

ولا شك في أن إعادة تعمير هذه المساجد، أو ترميم بعضها، هو مسئولية جميع المسلمين في العالم، وليست مقتصرة على المسلمين الصينيين.

لأن المصيبة الشيوعية التي حلت بالصين، ومست الصينيين كلهم، ومنهم المسلمون، هي بمثابة الكارثة، أو الحادثة الكونية التي يتسابق أهل الخير على تقديم المساعدات للمصابين بها.

وأهل الخير الذين يطلب منهم الإسهام في إعمار المساجد هم المسلمون الذين ينبغي أن يسارعوا إلى إغاثة المنكوبين، ولو كانوا من

غير المسلمين، إذا كانت تلك المساعدة لا تستعمل في إلحاق الضرر بالمسلمين، وإنما تقتصر على إسعاف المنكوبين المحتاجين.

لا سيما إذا تذكرنا أن الإخوة المسلمين في الصين هم كسائر الصينيين ذوو دخول محدودة، أو رواتب لا تكاد تفي بالحاجات اليومية الضرورية لهم، لأن هذه هي طبيعة الأنظمة الشيوعية، وإن كانت تختلف في بلد شيوعي عنها في بلد شيوعي آخر.

فالدخول والرواتب الشهرية في الاتحاد السوفيتي أكثر منها في الصين، وليس ذلك بسبب كونها ذات مستوى عالٍ بالمقاييس العالمية، وإنما لكون النظام الشيوعي قد حدد حتى أوجه الإنفاق في كثير من المجالات.

فعلى سبيل المثال لا يستطيع المرء في الاتحاد السوفيتي أن يستأجر بيتاً أكبر من بيته الذي يسكنه، فينفق على ذلك قدراً زائداً من المال، لأن النظام قد حدد الأمتار المربعة التي يستطيع الشخص أن يحصل عليها بالإيجار من الحكومة التي هي الجهة الوحيدة التي تؤجر المنازل للناس، ففي مدينة (لينين قراد) التي كانت عاصمة القياصرة الروس قبل الثورة الشيوعية، يحددون نصيب الفرد من المنزل بما يتراوح بين ستة أمتار مربعة واثنى عشر متراً مربعاً، وهذا هو الحد الأعلى الذي لا يجوز أن يتجاوزه الفرد بحال.

وأغلب الناس يسكنون في المعدل الوسطي الذي هو تسعة أمتار مربعة، أي في غرفة صغيرة واحدة طولها ثلاثة أمتار في عرض أمتار ثلاثة أيضاً، كما ذكرت لنا دليلاً سياحية مثقفة صحبتنا في زيارتنا عند الاطلاع على قصور القياصرة في لينين قراد، وهي مثقفة، ودخلها لا

بأس به؛ لأنها دليّة سياحية قد تأخذ إكراميات من السياح زيادة على أجرها، ولكنها لم تستطع الحصول على السكن في مسكن أوسع من هذه الأمتار التسعة المربعة.

وقد ذكرت قصتها في كتابي: «زيارة للمسلمين في الاتحاد (السوفيتي)» الذي كنت كتبه في تلك الرحلة.

هذا وكنت عرضت على الجمعية الإسلامية الصينية في الزيارة الأولى التي مضت عليها الآن ثلاث سنوات أن تقيم رابطة العالم الإسلامي، بنفقتها، وبالتعاون مع الجمعية الإسلامية الصينية دورة لتدريب أئمة المساجد في الصين، لتساعد على رفع مستواهم، وتعوضهم في الحصول على المعرفة الدينية التي فاتتهم في السنوات الماضية إبان الطغيان الشيوعي الذي حرّمهم من المعرفة الإسلامية، بل حرّمهم حتى من ممارسة الشعائر الدينية لعدة سنوات، وأذى من آذى منهم، وأحرق ما أحرق من كتبهم.

فاعتذر المسؤولون في الجمعية الإسلامية الصينية في بكين عن قبول هذا العرض الذي يعتبر سخياً؛ لأننا كنا نعتزم كما تفعل رابطة العالم الإسلامي في كثير من البلدان التي تقيم فيها دورات لتدريب الأئمة أن ندفع مخصصات شهرية مدة الدورة للمتدربين إضافة إلى توفير السكن والمعيشة مدة التدريب أيضاً، ودفع قيمة التذاكر في الانتقال من أماكن عملهم إلى مقر إقامة الدورة بالطائرة أو القطار، وتوزيع الكتب الإسلامية النادرة في الصين على أولئك الأئمة، وكانت حجتهم في الاعتذار هي أنهم لا يريدون أن يتلقى الصينيون دروساً في التربية على أيدي أناس غير صينيين.

وكنا عذرنا إخواننا المسلمين في الصين على ذلك الاعتذار لما نعرفه من طبيعة الحكم الشيوعي الذي لا يترك لهم من الحرية في مثل هذه الأمور إلا ما رضي به، وأوحى إليهم أن يقبلوه، وهو لم يقبل أن تقام مثل هذه الدورة.

إلا أنه عند وصول بعثة الحج الصينية الشعبية إلى مكة المكرمة في الموسم الماضي ١٤٠٦هـ ذكر رئيس البعثة، وهو الأستاذ (نعمان ما شي آن) نائب رئيس الجمعية الإسلامية الصينية، والأمين العام لها، أن الجمعية تقبل إقامة مؤتمر، أو ندوة إسلامية عالمية في الصين تتفق عليها رابطة العالم الإسلامي، وتتعاون معها الجمعية الإسلامية الصينية، كما قبل في الوقت نفسه أن تقيم الرابطة دورة لتدريب الأئمة في الصين تتفق عليها الرابطة أيضاً، ووقع بهذا الأمر محضراً مع المسؤولين في الرابطة.

وقد اعتبرنا هذا تطوراً حميداً في موقف الصين من الإخوة المسلمين، وظننا أن الجمعية الإسلامية لم تقبل - على لسان أحد مسؤوليها - إقامة مثل هذه الدورة إلا لكونها قد حصلت على الموافقة من الحكومة الصينية على ذلك.

ولذلك خصصت الرابطة المبالغ المالية اللازمة لإقامة تلك الدورة في هذا العام المالي الحالي، وأبرقنا لرئيس الجمعية الإسلامية الصينية بأنني سوف أتوجه إليهم لبحث الاتفاق على إنفاذ هذه الدورة من جميع الوجوه المالية والإدارية، فأجابت الجمعية بأنها ترحب بقدمي لهذا الغرض.

وقد اخترت أن يكون الأخ (رحمة الله بن عناية الله) أحد موظفي الرابطة مرافقاً لي لكونه رافقني في الرحلة الأولى، كاتباً للدفتري، أو (سكرتيراً) له كما يعبر به الآن بعض عوام الكتاب.

وذلك أيضاً لخبرته بشئون الصين، بل بأحوال المسلمين في العالم الشيوعي على وجه العموم.

وسوف أعرض عليك - أيها القارئ الكريم - ما جرى في هذه الرحلة راجياً أيضاً بل مكرراً رجائي أن تعذرني عما قد تجده - إن وجدته - في كلامي من فضول القول، أو من الثرثرة التي لا تريدها.

كما أرجو المعذرة عما يلاحظ القارئ من كثرة الصور التي يظهر فيها المؤلف، وأبسط عذري له من ناحية كثرة الصور في الكتاب بأن هذه البلاد المهمة: الصين تكاد الحياة فيها تكون مجهولة لكثير من قراء العربية، ورب صورة واحدة أوضحت للقارئ ما لم تستطع صفحة بل صفحات أن توضحه.

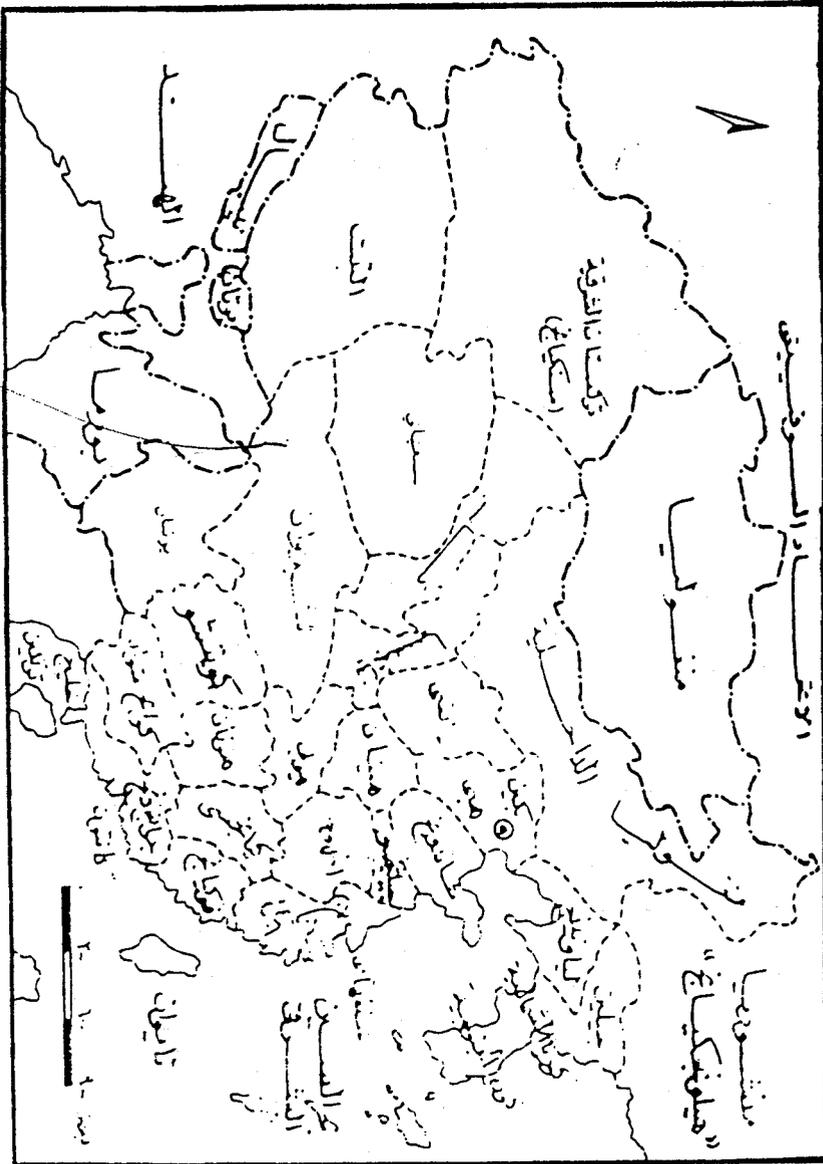
أما ما يتعلق بظهور المؤلف في معظم هذه الصور، فإن هناك أمراً غير طبيعية الحال في التأليف، وهو أن يؤكد المؤلف وهو يتكلم على أماكن ومدن وقرى من الصين أنه كان فيها بالفعل، ورأى ما رآه فيها بالمشاهدة لا بالسمع، فلا يظن ظان أنه قد نقل تلك المعلومات عنها من غيره، وأثبتها لنفسه على أنها مشاهدات.

وعلى أية حال فإن هذا افتراض أرجو المعذرة عنه إذا لم يكن في محله، والله المستعان، وعليه التكلان.

المؤلف

الرياض:

محمد بن ناصر العبودي



خريطة الصين

يوم الإثنين: ١٢ شوال ١٤٠٧ هـ ٨ يونيو ١٩٨٧ م.

وقفه ومشكلة في كراتشي

وصلنا في الثامنة صباح اليوم من جدة إلى كراتشي، وذلك للحصول على سمات الدخول إلى الصين الشعبية من قنصلتها في كراتشي حسب برقية تلقيناها من الجمعية الإسلامية الصينية.

وكنا حجزنا منتصف الليلة مع الخطوط السويسرية من كراتشي إلى بكين، ولن تقيم في كراتشي إلا بياض هذا اليوم نحصل فيه على سمة الدخول إلى الصين.

ولكن مشكلة واجهتنا لم نحسب لها حساباً، وهي أننا لم نحصل على سمات الدخول إلى باكستان من سفارتها في المملكة اعتماداً على كوني ومنذ أكثر من عشرين سنة أدخل إلى باكستان دون الحصول على سمة دخول إليها، بل كنت أحصل عليها من المطار، وذلك بأنني أحمل جواز سفر (دبلوماسياً)، والعلاقات بين باكستان والمملكة العربية السعودية هي أقوى من أن يحتاج حامل مثل هذا الجواز إلى سمة دخول، كما أنني في هذه المرة لن أقيم إلا أقل من يوم، والعادة المتبعة في المطارات العالمية أن المسافر إذا كان سيقوم في بلد أقل من ٢٤ ساعة، ولديه حجز مؤكد للمغادرة، فإنه يحصل من سلطات المطار على سمة تخوله الدخول للبلد لمدة ٢٤ ساعة، وذلك فيما إذا كان يحمل جواز سفر معتاداً، أي ليس مميزاً، أما إذا كان مثلي يحمل جواز سفر (دبلوماسياً) فإن سلطات المطار لديها التفويض بأن تمنحه من قبلها سمة دخول لمدة ثلاثة أيام، وقد حصل هذا لي في مطارات فرنسا وبريطانيا وغيرها مع أن هذه الدول تشدد في الحصول على السمات المسبقة

للمسافرين.

لذلك لم أجدني بحاجة إلى مراجعة السفارة الباكستانية حول سمة الدخول مع العلاقات الجيدة المتجددة ما بين رابطة العالم الإسلامي التي أعمل فيها وبين السفارة الباكستانية، حتى إننا كنا نكتب للسفارة أن تمنح سمات الدخول لغيرنا من باب الشفاعة الحسنة فتستجيب لذلك.

غير أننا عندما وصلنا مطار كراتشي قادمين من جدة سألنا ضابط الجوازات عما إذا كنا قد حصلنا على سمات دخول لباكستان؟ فأخبرناه بما ذكرته، فقال: إن الأمر قد اختلف، وأنه قد صدر أمر جديد بأن على كل قادم من بلد تطلب حكومتها من رعايا باكستان الحصول على سمة دخول مسبقة أن يحصل على سمة مسبقة، وإلا أعيديا من المطار.

فذكرت له أننا لا نحتاج إلا إلى أقل من يوم واحد في باكستان، فقال: إذا سنعطيك إذنًا بالدخول على ورقة منفصلة، ونحتفظ بالجوازين عندنا، وعندما تريدان المغادرة تأخذانها من المطار.

ثم أعطانا ورقة فيها إقامة لمدة ثلاثة أيام، واحتفظ بالجوازين: جوازي، وجواز المرافق لي الأخ (رحمة الله بن عناية الله)، وهو جواز معتاد، فذكرنا له أن جوازي (دبلوماسي)، وأننا نحتاج إليه عند ضباط المكس (الجمرك) من أجل عدم التفتيش، كما نحتاج إليه في الفندق من أجل التخفيض في أجرة الغرفة، فامتنع من ذلك، وكلم رئيسه الذي حضر وذكر أنه لا يستطيع أكثر من أن يعطينا هذه الورقة في الإذن بالدخول، ولا يستطيع أن يعيد إلينا الجوازين.

وقد اتصلنا بممثل الخطوط السعودية، فبحث الأمر مع الضابط، ولكن الضابط امتنع أيضاً، ثم ذكر الضابط أنه اتصل برئيسه العام في المدينة فأخبره أن ذلك لا يمكن إلا إذا أحضرنا كتاباً رسمياً من القنصلية السعودية في كراتشي مع أحد موظفيها ترفو فيه من سلطات الجوازات في المطار أن تعيد لنا الجوازين من أجل الحصول على السمة من السفارة الصينية على مسئوليتها.

ولم يشفع لنا عنده ما ذكرناه وكررناه من أننا ذاهبون إلى الصين في مهمة رسمية إسلامية سيتأثر برنامجها إذا لم نحصل على السمة من القنصلية الصينية هذا اليوم، لأن إخواننا في الصين قد رتبوا برنامج الزيارة على هذا الأساس، ولا قولنا له إننا نخشى أن يضيق الوقت عن ذلك.

في القنصلية السعودية

ركبنا سيارة أجرة ذكر صاحبها أنه يعرف القنصلية السعودية في كراتشي، وأعطيناه مقابل ذلك أجراً على أن ينقلنا بعد ذلك من القنصلية إلى فندق (هولدى إن) في كراتشي، لأننا كنا حجزنا فيه غرفتين من مكة المكرمة، ولم نكن قد نمنا البارحة؛ إذ غادرنا جدة في الساعة الثانية عشرة من البارحة، ومرت الطائرة بمطار الرياض، فلبثت فيه حوالي الساعتين؛ لأنها أعلنت أن أحد محركاتها يحتاج إلى فحص، ثم واصلت الطائرة طيرانها إلى كراتشي، فوصلنا في الثامنة بتوقيت كراتشي من هذا الصباح.

ولكن سائق سيارة الأجرة لم يذهب بنا إلى القنصلية السعودية، بل ذهب إلى مكان آخر، وأوقف سيارته عنده، ثم أخذ يتمشى قائلاً:

إنني أظن أن القنصلية السعودية هنا، وكنا في عجلة من أمرنا، فسألنا قوماً هناك كانوا واقفين أمام مكتب للبريد، فوصفوا مكان القنصلية، وكأنما كان هذا لم يرض السائق الذي ذهب إليها على بطة، مع أننا قد منحناه أكثر مما يستحق لمثل هذا المكان.

ودخلت على القنصل العام الأستاذ (عبد ربه)، فرحب جزاه الله خيراً، وكان يعرفني من غير أن يلقاني من قبل، ولما أخبرته الخبر قال: هذه عادة جديدة لهم بأن كل من لم يبادل باكستان الدخول إلى البلاد بدون الحاجة إلى سمة دخول، فإنهم يطالبون رعاياه بالسمة، وحدثني أن أحد السعوديين كان يحمل جواز سفر سياسياً، وأن شخصاً سعودياً كبيراً كان قد اتصل بهم من أجل مساعدة هذا الرجل إن احتاج إلى مساعدة، قال: فمنعوه من الدخول مع أنه طلب منهم مدة خمسة أيام بسلم فيها مبالغ من المال أراهم إياها لبعض الجماعات الإسلامية عندهم، قال: فردوه من حيث جاء.

قال: ولكننا سوف نبذل الجهد، وسوف نتجح إن شاء الله.

ثم أمر كاتبة باكستانية عنده تحسن العربية جيداً، أن تكتب لهم بما طلبوه، وترجوهم أن يسلموا جوازاتنا تحت كفالة ومسئولية القنصلية.

وقد لبثنا عنده فترة طويلة، اتصل أثناءها هاتفياً بالقنصلية الصينية في كراتشي يخبرها بقدومنا، وأننا قد نتأخر قليلاً في الوصول إليهم، مع أنه لا توجد فرصة إلا بقية هذا اليوم.

ثم نادى على أحد السعوديين العاملين في كراتشي واسمه الدكتور فلان، فأخذ الدكتور، وأظن أن اسمه مستعار، الرسالة

والجوازين، وقال: لا حاجة بكما إلى الذهاب للمطار، ولا إلى القنصلية الصينية، بل أكفيكما كل ذلك، لأنكما متعبان، ثم أوصلنا إلى الفندق، وذهب لشأنه، وعاد بعد ذلك معه الجوازات واستمارة مملوءة من القنصلية الصينية يريد أن نوقع عليها.

وقبل نهاية العمل في الثالثة كان قد سلمنا الجوازين بعد وضع سمة الدخول الصينية عليها دون بذل أي مجهود منا، فجزاه الله خيراً. واسترحنا في فندق (هولدي إن) استعداداً للسفر الليلة.

من كراتشي إلى بكين

وقفنا عند مكتب ترحيل الشركة السويسرية للطيران في المطار، وكان معنا عدة صناديق وحقائب فيها هدايا، وفي أحدها مصاحف، فوزن الأمتعة الزائدة عما نستحقه، وهو ستون كيلو ما عدا صندوق الورق القوي الذي فيه المصاحف، فتركه دون وزن احتراماً للقرآن الكريم، عندما عرف أننا سنهدي هذه المصاحف إلى الإخوة المسلمين في الصين، كما أعطانا بطاقة دخول إلى قاعة الدرجة الأولى، ولبتنا فيها فترة، وهي جيدة مريحة.

وفي الساعة الثانية عشرة والثلاث بعد منتصف الليل كانت الطائرة السويسرية تغادر مطار كراتشي إلى بكين في موعدها المحدد من قبل دون تأخير، وهذا نادر، إذ اعتادت شركات الطيران العالمية ألا تعتبر تأخير ربع ساعة عن الموعد المحدد في الأصل تأخيراً يستحق أن تعتذر عنه، وإنما تعتذر عما زاد عن ذلك، وجدنا الطائرة قد ملئت بالركاب أو كادت رغم كثرة الرحلات الدولية، ولكنها كانت مليئة من أوروبا، أما من كراتشي فلم نر إلا نحو ١٥ مسافراً معنا.

وقبل أن تتحرك الطائرة جاءت المضييفة إلي قائلة: أنت مسلم؟ قلت: نعم، فسجلت ذلك عندها، وذلك من أجل ألا يدخل الطعام شيء من لحم الخنزير.

وبدأت المضيفات السويسريات المدربات على الخدمة الممتازة، وأكثرهن قد جاوذن مرحلة الشباب يوزعن المناشف الحارة المعطرة، والأشربة المختلفة مع الابتسامات والمجاملات للجميع.

وعندما نهضت الطائرة أعلن مكبر الصوت فيها أن السفر سيستغرق سبع ساعات من الطيران المتواصل، أي دون الهبوط في أية محطة قبلها.

وأعلنوا أنهم سيقدمون الآن وجبة خفيفة، وأنهم سيقدمون طعام الإفطار قبل الوصول إلى بكين بساعتين ونصف. وذلك لكوننا الآن بعد منتصف الليل بقليل.

وبعد أن استوت في الجو وسط ظلام دامس خارجها، وزعت المضيفات شطائر فيها لحم البقر، ومعها ما شاء الراكب من الشراب.

شيء جديد وجميل

من أجمل الأشياء التي جدوها في هذه الطائرة السويسرية التي هي من طراز بوينغ ٧٤٧ المسمى بالجامبو، ولم أكن رأيت من قبل في مثل هذه الطائرة وغيرها مع شركات الطيران الأخرى في أركان العالم المختلفة، أنهم وضعوا خارطة كهربائية (ألكترونية) في مقدمة الطائرة عليها المناطق التي ستمر بها الطائرة، ورسموا صورة الطائرة على الخط نفسه الذي تطير عليه من تلك المناطق، وهو تتحرك إلى الأمام كل فترة

وأخرى، وتتقدم حسب تقدم الطائرة في طيرانها.

وبعد الفينة والأخرى تتحرك صورة الطائرة والخط الذي قطعه حركات ضوئية واضحة ليتبينها من لم يكن تبين ذلك من قبل.

وزادوا على ذلك بأن كتبوا سرعة الطائرة في أعلى هذه اللوحة، وهي تتغير أحياناً، فيتبين في الخارطة ما يطرأ عليها من تغيير في السرعة، أو البطء موضحاً ذلك بالكيلومتر.

وهذا كله إضافة إلى ما كان ذكره الطيار من معلومات من مكبر الطائرة عن الرحلة ومدتها واتجاهها والبلدان التي ستمر فوقها.

فصرت وأنت في الطائرة كأنما أنت راكب على دابة من حيث المعرفة بالطريق الذي تسلكه الطائرة، والأماكن التي تطير فوقها.

وذلك بطبيعة الحال مع الفارق في كونك لا ترى من الأرض شيئاً فيما لو كنت تطير في النهار، أما في هذا الليل البهيم فإن خارج الطائرة هو ظلمات بعضها فوق بعض، وأما داخل الطائرة، فإنهم قد جعلوه يظلم ظلمة واحدة بعد أن فرغ الناس من أكلهم وشربهم، وذلك من أجل أن يتيحوا الفرصة لمن يريد النوم ويستطيعه في الطائرة أن يفعل ذلك، وكانوا وزعوا علينا جوارب السير داخل الطائرة، وكمامات العين، وإشارة منع الإزعاج.

ورسم اللوحة التي تبين مسار الطائرة هو جديد ومفيد، وهذه الشركة السويسرية هي أول من رأته فعله من الشركات، فزادوا بذلك شركتهم ميزة على ميزات لها.

وقبل الوصول بساعتين ونصف قدموا طعام الإفطار سخياً نظيفاً

كعاداتهم التي جربتها كثيراً في رحلات عالمية.

وكانت الخدمة سريعة رغم امتلاء مقاعد الطائرة بالركاب، فمثلاً في درجة رجال الأعمال (أو البزنس كلاس) يوجد وفد تجاري تركي كبير دعت وزارة التجارة الخارجية الصينية لزيارة الصين وإجراء مباحثات تجارية معها.

وقلت في نفسي: حبذا لو زار هؤلاء الأتراك منطقة تركستان الشرقية، عسى أن يستهض هذا همهم لمساعدة إخوانهم المسلمين من أهل تركستان الشرقية التي تسميها الصين شنجاك، وهي سنكيانغ، كما تعرف، وربما لا يحتاج الأمر إلى تذكيرهم بالروابط الدينية واللغوية بينهم، لأن مجرد اسم تركستان الشرقية يتضمن أنهم أتراك مثلهم؛ ولكون لغتهم لا تزال تركية الأصل، وإن بعدت عنها اللغة التركية العثمانية الحديثة، فأصبح من يتكلم إحدى اللغتين لا يستطيع فهم الأخرى إلا بصعوبة، أو بكثير من التأمل، ولكنهما ترجعان للغة واحدة، مثل ما ترجع اللغتان البرتغالية والإسبانية إلى لغة واحدة أصلية وهي اللاتينية.

ويضرب لنا الإخوة من أهل تركستان الذين يعيشون في الحجاز بالفرق في اللهجة ما بين لغة الحجاز والمغرب قائلين: إنهما لهجتان مختلفتان، ولكنهما مفهومتان، وهذا له وجه صحيح، ووجه غير صحيح، وهو أن معظم الكلمات التي تختلف فيها اللهجتان: المغربية والسعودية، إنما ترجع للعربية لسعتها، ولوفرة المفردات فيها، بخلاف اللغتين التركية العثمانية الحديثة والتركستانية التي دخلت إلى كل واحدة منهما كلمات عديدة لا توجد في اللغة التركية الأصلية

المشتركة بينهما، لأن تلك اللغة هي غير موجودة الآن بخلاف العربية الفصحى التي هي حية مستعملة بفضل القرآن الكريم والسنة المطهرة، وهي الآن لغة الإعلام والصحف والكتب والكتابة الرفيعة في كل البلدان العربية.

يوم الثلاثاء: ١٣/١٠/١٤٠٧هـ.

أطل الفجر سريعاً علينا من نوافذ الطائرة، وكان إسفاره يبدو أسرع من المعتاد، والسبب في ذلك هو كوننا نطير إلى الشرق، فكأننا من الناحية الظاهرية نلتقي بالشمس.

وعندما أسفرت الأرض، وكانت صورة الطائرة على الخريطة أمامنا تظهر أننا نطير فوق غرب الصين، رأيت الأرض جبلية خضراء، بل إن جبالها تبدو كأنها الحيطان المتصلة، أو كأنها جزء من سور أخضر غير سور الصين العظيم الذي هو في الأصل سد منيع من صنع الإنسان، وبين هذه الجبال الخضراء شاهدنا نهراً يتلوى جم المياه.

فوق مطار بكين

أغفيت في تهوية لذيذة، ربما كان من أسبابها رتابة صوت المحركات، والحركة إذا كانت رتيبة لا ارتفاع فيها ولا انخفاض تساعد على النعاس، مثلما يساعد عليه السكون، لا سيما إذا اتصلت لفترة من الوقت.

وعندما خافتت محركات الطائرة بحركتها قليلاً انتبهت ونظرت إلى الأرض، وكان مقعدي بجانب النافذة حسب رغبتني، فرأيت أرض الصين الشمالية أرضاً منبسطة منسقة ليس فيها موضع قدم غير معمور

بالزراعة، وشاهدت فيها قناة واسعة مستقيمة، وكلها خضراء، إلا أنها دون خضرة الأرض الجبلية التي شاهدتها قبل ساعة ونصف تقريباً، والسبب في ذلك أن هذه الأرض فيها زراعة حقلية، والحقول يكون فيها زرع حصيد وزرع أخضر نضر، وأما تلك الجبلية فإنها غابات خضر متشابكة.

وعندما تدنت الطائرة قليلاً ظهرت القرى والمساكن المجتمعة في الريف كثيرة متقاربة وسط هذه الأرض المزروعة المشمولة بالخضرة، وظهرت بينها قنوات كثيرة كانت قد شقت لتوصل المياه إلى ما لا تصل إليه مياه النهر.

ثم اتضح منظر الحقول غير الخضر، وأنها لحقول حصيد، أو على وشك الحصاد من حقول القمح، وتذكرت بهذه المناسبة عدد سكان الصين الذي كان في عام ١٩٨٤م، وهذا آخر عام جرى فيه إحصاء للسكان بمساعدة الأمم المتحدة، قد بلغ ألف مليون وسبعة وثلاثين مليوناً.

وهؤلاء هم سكان البر الصيني الذي تحكمه حكومة الصين الشعبية في الوقت الحاضر.

ويساوي نحو ربع سكان العالم، بمعنى أن كل أربعة من البشر فيهم واحد من الصين من الناحية الإحصائية.

أما من الناحية الفعلية، أو لنقل من ناحية التأثير، فإن الألف مليون، بل الذي يزيد على ألف مليون، لا يبلغ تأثيرهم في العالم سواء من حيث التأثير السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي ما يبلغه تأثير خمسين مليوناً من الفرنسيين هم سكان فرنسا، أو ما يماثل هذا العدد من

سكان بعض الدول الأوروبية غيرها.

والذي ذكرني بعدد سكان الصين هنا هو الحاجة إلى إطعامهم مما تنتجه أرضهم، فمثلاً يحتاج هذا العدد إذا اقتصر على الخبز وحده، واستهلك الفرد ثلاثة أرغفة في اليوم، في كل وجبة رغيف واحد، إلى ثلاثة آلاف مليون رغيف في كل يوم.

كما ذكرت في ذهني عندما رأيت الخضرة الشاملة حول بكين ما كنت رأيت فيها من اللون الأغبر عند زيارتي الأولى للصين، وكانت في أوائل الربيع الذي صار امتداداً للشتاء عندهم، فلم تعد ترى آنذاك عوداً أخضر، حتى حقول القمح لم تكن قد أورقت في ذلك الوقت.

كما أن الإنسان يرى من الطائرة بخار الماء ظاهراً وافراً فوق الحقول في هذه المنطقة، والسبب في ذلك أن أمطارهم الغزيرة هي صيفية في العادة، وهذا هو أول أوان موسم الأمطار في هذه المنطقة من الصين.

في مطار بكين

حطت الطائرة عجالاتها، ولا نقول رحالها أو رجالها، على أول المدرج في الساعة السابعة والدقيقة الخامسة صباحاً بتوقيت مدينة كراتشي التي ركبنا منها، ويساوي ذلك الحادية عشرة وخمس دقائق حسب توقيت بكين، فتوقيت بكين يتقدم على كراتشي بأربع ساعات. وإذاً يكون الفرق بين توقيت المملكة العربية السعودية وتوقيت بكين ست ساعات.

وقد استغرق الطيران سبع ساعات إلا ربعاً، وليس سبع ساعات كاملة كما كان مكبر الطائرة قد أعلن عند بدء الرحلة.

وعندما وقفت محركات الطائرة أعلن مكبر الصوت للركاب أنه يجب عليهم أن يلزموا مقاعدهم، وألا ينتقلوا عنها حتى يدخل موظفو الجوازات إلى الطائرة، ويفرغوا من عملهم فيها، وألقموا الطائرة دهليزاً متحركاً دخل منه موظفان من موظفي الجوازات ألقيا نظرة على من في الطائرة، ثم سمحوا للركاب بالخروج منها دون أن يعملوا شيئاً في داخلها.

وجدنا في استقبالنا في المطار عدداً من الإخوة الكرام المسؤولين في الجمعية الإسلامية الصينية، وبعض أئمة المساجد، فأجلسونا فيما يسمى بصالون الشرف، وهو قاعة كبار الزوار، بينما كان بعضهم يسعى في استخلاص الأمتعة والجوازات.

وكان أكثرهم، بل كانوا كلهم ممن تعرفنا عليهم في الزيارة السابقة، وبعضهم كان قد حج، والتقينا به في مكة المكرمة، ومن المستقبلين:

الحاج نعمان ماشي آن نائب رئيس الجمعية الإسلامية وأمينها العام.

الحاج أحمد واحدي نائب رئيس الجمعية الإسلامية الصينية.

الحاج عيسى محمود نائب السكرتير العام للعلاقات الخارجية في الجمعية.

الحاج عبد الرحيم أمين نائب السكرتير العام لشئون الحج.

الحاج مصطفى يانغ جي بوه المترجم والموظف في العلاقات الخارجية في الجمعية.

الحاج لقمان ماشان لي من كبار موظفي الجمعية وكان مرافقاً ومترجماً لنا في

رحلتنا الأولى إلى الصين.

قدمت لنا امرأة صينية في القاعة شراباً بارداً معروفاً في بلادنا من

الكوكاكولا والميرندا، ومن لم يردهما استبدل بهما ماء معدنياً صينياً، تعودنا فيما بعد على شربه، وكانت الأحاديث في القاعة تدور حول الزيارة الأولى، وهذه الزيارة، والتطور الجيد الذي شهده النشاط الإسلامي في هذه الفترة، وكل ذلك بطبيعة الحال داخل نطاق الأعراف السياسية، ودون أن يجراً أحد على ذكر النقائص أو العيوب كما تقتضي ذلك قواعد المجاملة.

في مدينة بكين

قدموا سيارتين إحداهما مخصصة لي ومرافقي منهم، والثانية مخصصة لمرافقي في الرحلة الأستاذ رحمة الله بن عناية الله، ومرافقه منهم، وفي المرة السالفة كانت هناك أربع سيارات، وليس هذا بالفرق المهم، وإنما الفرق من الناحية المظهرية هو في مظهر الحياة في الطريق ما بين الفندق في قلب المدينة، وبين المطار، فكل شيء الآن أخضر نضر، وكان في الزيارة الأولى أغبر أشعث.

وكانوا قد أخبرونا أن أحسن أيام بكين هي في فصل الصيف، لأنه غير حار، وكل شيء فيه يكون مورقاً، والأمطار تنزل فيه، فتلطف الجو، بل تحيل صيفها إلى ربيع، مع أن الصيف فيها هو كالربيع في بلادنا من حيث الحرارة والبرودة.

وكنت طلبت منهم ألا يعتبروا هذه الزيارة رسمية كما فعلوا في المرة السالفة، فيسمحوا لنا أن ننزل فيما نشأؤه من الفنادق، وأن نتولى الصرف على أنفسنا اكتفاء باستضافتهم لنا في المرة السابقة؛ غير أنهم استتكروا ذلك وقالوا: أنت ضيفنا، ولا نكتفي بضيافة مرة واحدة، فأنتم في رابطة العالم الإسلامي تستضيفون بعثة الجمعية الإسلامية

الصينية للحج في كل سنة، ولا تكتفون بسنة دون أخرى، فشكرتهم على ذلك.

وأنزلونا في فندق (شي يوان شي)، وذكروا أن معنى يوان هو حديقة، والسؤال كان بمناسبة الإسراع إلى النزول في مطعم الفندق في الطابق الأرضي، وهو مطعم من عدة مطاعم فيه، أحدها أوروبي، كما كتبوا عليه، والثاني صيني، والثالث وهو هذا مطعم إسلامي، وقد كتبوا عليه ذلك بالصينية والإنكليزية، فالكتابة بالإنكليزية: (مسلم فود)؛ أي طعام المسلمين، وبالصينية كما ترجمها لنا إخواننا بهذا المعنى، ولكنهم ذكروا الإسلام بما يعرفونه به في الصين، وهو (تشن جن)، أي النقاء الخالص، فكتبوا تشن جن لحوم وخضراوات، أي طعام المسلمين من اللحوم والخضراوات.

والمهم في الطعام في الصين اللحوم، لأن هؤلاء القوم الكفار من أكثرية السكان ليسوا من أهل الكتاب الذين تحل ذبائحهم، كما أنهم يأكلون حيواناً كثيراً محرماً في الأصل، كالكلاب والحمير والقطط والقروود والفئران، إضافة إلى لحم الخنزير، لذلك يعتبر الطعام والدخول إلى مطعم ما دليلاً على دين المرء، ما عدا دخول الكفار إلى مطاعم المسلمين، فإن بعضهم يفضل الأكل في مطاعم المسلمين لنظافتها، ولأن لها نكهة خاصة كما أخبرونا.

أما في مطعم المسلمين هذا الخاص في الفندق، وهو كبير، في قسم منه عقود غير عالية أخذاً من الفن الإسلامي في البناء، وليكون شعاراً له.

ورأيت فيه إلى جانب المسلمين من أهل الهند والبلدان العربية

والصين طوائف من الأوروبيين، سمعت منهم من يتكلم الفرنسية ومن يتكلم الإنكليزية، وذكر أهل المطعم أن كبيرة العاملات فيه امرأة مسلمة ذكرت اسمها للإخوة المرافقين، وهي من أسرة (ما)، وهي أسرة مسلمة معروفة ذكرت، أن بعض الأوروبيين من نزلاء الفندق وغيرهم يفضلون الأكل في مطعم المسلمين هذا، لكونهم يطمئنون إلى أن ما يقدم فيه هو مما اعتادوا أكله من الحيوان النظيف، ويجدون فيه إلى جانب ذلك الأطعمة الصينية الشهية التي يتميز بها أهل الصين.

فجملة (طعام المسلمين) تعني المسلمين من أهل الصين.

ومن المعروف أن الأوروبيين يأكلون ما نأكله من الطعام، ونحن نأكل ما يأكلونه إلا الخنزير؛ بخلاف كفار الصين، فإنهم يأكلون أشياء من المحرمات والخبائث لا يقترب منها ذوو الذوق السليم حتى من غير المسلمين.

وهذا الفندق الذي ذكرت فيه ثلاثة مطاعم متجاورة، في الطابق الأرضي وفيه أيضاً مطعم ومقصف في قمة له دواره فوق الطابق الأعلى منه، ويقولون إنها تتم دورتها في كل ثلاثين دقيقة، مع أن الذي شاهدته في عدد من بلدان العالم من هذه القمم التي تدور أن يجعلوا دورتها تتم في ساعة واحدة، أي يكون سيرها بسير الساعة، وهي أيضاً تدور إلى اليسار كما تدور عقارب الساعة.

وقد افتتح هذا الفندق منذ سنة، فهو مثل غيره من العديد من الفنادق الجديدة في مدن الصين التي افتتحت بسبب سياسة الانفتاح على العالم التي سارت عليها حكومة الصين الشعبية، وهو انفتاح نسبي، ولكنه حقيقي، بالنظر إلى الانغلاق القديم الذي كانت الشيوعية قد

فرضته على البلاد منذ الثورة الثقافية التي أجج أوارها قوم من الملتفين على زعيم الصين الهالك (ماوتسي تونغ)، وتحت إرشاده، وهي التي ألحقت أفدح الأضرار بماضي الصين وحاضرها، فالماضي أضير عن طريق حرق كتب الثقافات الصينية القديمة، وعن طريق تشويه سمعة المتمسكين بها، ثم بسبب الإشاعات والوشايات التي سادت في المجتمع الصيني آنذاك، فصار الابن يشي بأبيه، والصاحبة بصاحبها.

ولكن من الغريب جداً في الفنادق الجديدة، ومنها فندق (شي يوان شي) أن أسعارها غالية جداً، بل هي أغلى من الفنادق في البلدان الرأسمالية الغنية، فمثلاً سعر الغرفة التي أنا فيها، وهي ذات قسم للاستقبال، وقسم مرتفع منفصل فيه سرير واحد عريض هو أربعمئة وخمسة وعشرون يناً، بدون طعام الإفطار، وهذا يساوي بالصرف الرسمي مائة وأربعة عشر دولاراً أمريكياً.

والصرف الرسمي هنا ليس نظرياً أو افتراضياً، وإنما هو إلزامي، فالفندق لا يقبل من نزلائه أن يدفعوا له إلا العملة الأجنبية الصعبة، ولا يقبل من العملة الصينية إلا عملة خاصة تملكها الفنادق، تعطى بديلة من العملات الأجنبية كالدولارات، وتقبل حيث لا تقبل العملة المحلية؛ لأنها في الأصل مبدلة بالعملة الأجنبية الصعبة.

وقد كتبوا على المطاعم والمشارب عبارة واضحة: (من فضلك ابرز شهادة تغيير العملة إذا أردت أن تأكل أو تشرب في هذا المطعم) حتى بالنسبة إلى مشرب فيه كتبوا عليه ذلك.

فمثلاً إذا كان معك على سبيل الافتراض ألف ين صيني، وهي تعادل راتب عشرة إلى اثني عشر عاملاً صينياً في الشهر، فإنها لا تغني

عنك شيئاً، حتى ولا تستطيع أن تشرب بها فنجاناً من الشاي في هذا المقصف، فضلاً عن أكل وجبة كاملة.

وتجد إذا وفقت من يبيع لك الدولار في السوق السوداء التي هي رائجة هنا، ويبيع الأجنبي مائة الدولار الأمريكي بخمسمائة وخمسين ينأ، على حين أن السعر الرسمي المحدد في المصارف والفنادق في هذه المطاعم هو ثلاثمائة وواحد وسبعون ينأ، وإذا الفرق هو حوالي النصف.

ويقول الخبراء بهذا الأمر: إن هذا المشتري للدولار بهذا السعر المرتفع يبيعه في السوق السوداء أيضاً بأعلى من هذه القيمة بكثير.

وللتدليل أيضاً على ارتفاع أجور الفنادق في الصين إضافة إلى المقاييس العالمية المجردة في أسعار الفنادق أن هذه الأجرة اليومية لغرفتي في الفندق، وهي أربعمائة وخمسة وعشرون ينأ، تساوي أجرة أربعة عمال مهرة من الصينيين لشهر واحد، أو ستة عمال صغار لمدة شهر واحد.

ومع ذلك ذكر لنا إخواننا في الجمعية أن أكثر الفنادق تكون مزدحمة، ولا يسهل الحصول فيها على غرف خالية، وذلك لكون معظم الضيوف يمثلون شركات كبيرة، أو حكومات تدفع عنهم أجرة هذه الفنادق، أو هم من رجال المال والأعمال التجارية التي تدر عليهم الربح الكثير، فلا يبالون بهذا الأجر المرتفع للفندق.

وقد يكونون مثلنا ضيوفاً على أهل الصين، فلا يدفعون شيئاً من الأجرة.

وهذا الفندق هو من فنادق الدرجة الأولى، ولكنه ليس من فنادق الدرجة الفاخرة، وهو أعلى درجة من فندق (جبل العطر) الذي سكنا فيه المرة الماضية.

كما أن جميع ما فيه هو على طراز الفنادق الأمريكية من المصاعد والأثاث إلا أشياء تافهة تتعلق بعادة لأهل الصين أو اليابان مثل وجود أحذية خفيفة من اللدائن الناعمة كالحرير يستعملها النزول في الغرفة، ويجوز له أن يأخذها معه، ووجود (فرشاة) كبيرة، ودواء لتلميع الأحذية.

برنامج الزيارة

في هذا المساء لم يكن لنا عمل إلا مناقشة البرنامج الذي وضعه الأخوة الصينيون لزيارتي، وقد جعلوه يمتد أسبوعين مع أننا كنا أخبرناهم ببرقية بعثناها من مكة أنني لا أستطيع البقاء في الصين هذه المرة أكثر من تسعة أيام أو عشرة.

وهذا البرنامج الذي وضعوه يشتمل على الإقامة في (بكين)، وزيارات المقاطعات الثلاث التي تقرر زيارتها.

وأجرينا مع وفد منهم التغيير الذي طلبناه في البرنامج؛ غير أنهم ذكروا أنهم سيستشيرون الجمعية ويخبرونا بذلك غداً.

وقد تقرر أن يبدأ البرنامج الفعلي للزيارة غداً صباحاً بالذهاب إلى مقر الجمعية الإسلامية.

وأخذنا للراحة بعد السهر المتواصل ليلتين.

يوم الأربعاء ١٤ / ١٠ / ١٤٠٧ هـ - ١٠ / ٦ / ١٩٨٧ م.

التباطؤ في الخدمة

تناولنا طعام الفطور في الفندق في الساعة والنصف من هذا الصباح، وهو في المطعم الإسلامي، أو (مطعم المسلمين)، وكان

مزدحمًا في هذا الصباح بالرواد الذين أكثرهم من ذوي المظهر الأوروبي، يليهم في ذلك ذوو المظهر الصيني، وهم من الذين يسكنون خارج الصين كأهل سنغافورة وهونغ كونغ، أو ماليزيا وتايلاند من الصينيين، يبدو ذلك واضحاً من ملابسهم الثمينة، والإشراق الغذائي الظاهر على وجوههم.

وقد عجبت من سوء الخدمة في المطعم؛ إذ تعمل فيه أربع فتيات صينيات من ذوات الشكل الصيني الشمالي، وهو الأقرب إلى بلداننا العربية في اللون، وإن خالفها في التقاسيم، ويظهر ذلك مثلاً في انتفاخ الجفون، وصغر العيون، ونبوء الوجنات.

وهن يبدون خلال العمل كأنما هن تماثيل، وإن لم يكن بدعاً من العاملات في المطاعم والمقاهي، وفي المصالح الحكومية، فإن هذا استرعى انتباهي اليوم، لأننا كنا نضن بالوقت أن يضيع، وهن يعملن معنا كما يعملن مع الآخرين لا يبالين بالناس، ولا يجدن حرجاً في أن يتغافلن عن تلبية نداءهم.

وقد رأيت امرأة صينية أجنبية مع رجلها ضاقاً ذرعاً بمناداة فتاة منهن، ثم أخرى، فقاما إليها، ولكنها أيضاً لم تلبّ النداء، بل ظلت واقفة، أو ذهبت لشأن آخر من شأن المطعم حتى خيل إليّ أن تباطؤهن في أداء العمل تباطؤ مقصود، وكنت عرفت ذلك عنهن في المرة السابقة، ووصفت حالهن، وظهر لي الآن أن الانفتاح الاقتصادي في الصين لم يزدن إلا جموداً في العمل على جمود، وذلك لكونه زادهن من العمل، ولم يزدن في الأجر، إذ الأجور في الصين زادت عما كانت عليه قبل ثلاث سنوات، ولكنها زيادة أشبه بالنقص، لأن البضائع والسلع زادت

أسعارها أكثر من ذلك، وقيمة عملتهم اليانية - نسبة إلى الين - وقد يقال فيه (يوان) بإسكان الياء، وإن كان لفظه أقرب إلى لفظين، قد انخفضت أيضاً، فبعد أن كانت المائة دولار تساوي مائتين وأحد عشر يناً عندما زرت الصين في عام ١٩٨٤م، أي منذ ثلاث سنوات، أصبحت الآن تعادل ثلثمائة وسبعين يناً، وهذا كله بالصراف الرسمي.

وطعام الفطور هنا هو إفرنجي بحت، أو إن شئت الدقة قلت: عالمي بحت، فليس فيه مما في طعام الصين المعقد المتنوع شيء، وإنما هو البيض بأنواعه، وشراب البرتقال غير الجيد، وشرائح الخبز الإفرنجي المقمر، أي المشوي قليلاً المسماة بالتوست بالإنكليزية، ومع ذلك فنجان صغير قصير أشبه بالصحن الصغير، في جزء منه مربى أحمر، وبجانبه زبدة، يضعون ذلك لكل شخص وحده.

مقر الجمعية الإسلامية الصينية

ذكرت مقر الجمعية الإسلامية الصينية في كتاب: «داخل أسوار الصين» الذي كتبتة عن رحلتي السابقة، وسأحاول في هذا الكتاب ألا أكرر ذكر شيء ذكرته هناك، إلا إذا كان الأمر يستدعي إيضاحاً، وتكون هناك مناسبة دعت إلى الكلام في الموضوع، وإن يكن بطريقة مختلفة.

والغرض من الذهاب إلى الجمعية الإسلامية في هذا الصباح هو اللقاء برئيسها وبالمسؤولين الكبار فيها الذين لم نرهم أمس في المطار، وبحث الأمور المهمة المتعلقة بعملنا الذي جئنا من أجله إلى الصين، والاتفاق على برنامج الزيارة.

فوجدنا عند باب المقر الشيخ (إلياس شن شيا شي)؛ رئيس الجمعية

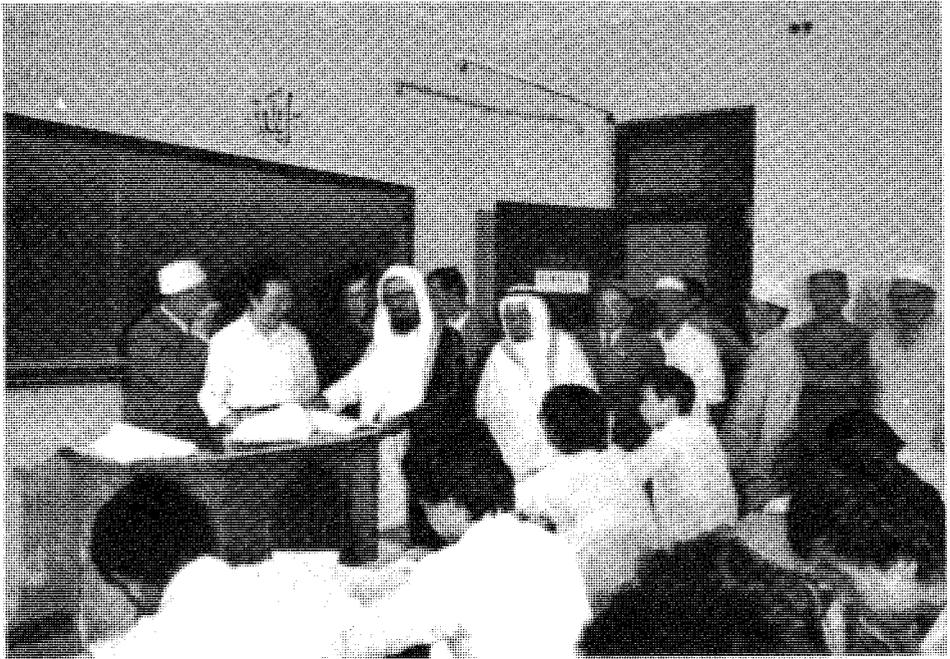
الإسلامية، وكان عندما زرت الصين في المرة الأولى النائب الأول للرئيس، ومعه المسؤولون في الجمعية، ومنهم الشيخ الحاج صالح إن شي وي نائب رئيس الجمعية، وكان صحبنا طيلة جولتنا في الصين في زيارتي الأولى لها، وهو إمام (جامع بكين).



مع الشيخ إلياس شيا شي رئيس الجمعية الإسلامية (على يساري)
في مقر الجمعية في بكين

وقد بدؤوا بالمرور بنا على المعهد الإسلامي الذي يقع مقره في مبنى الجمعية الإسلامية، وهو كبير يملكه المسلمون منذ زمن، فوجدنا الطلبة يؤدون الاختبارات، وعرفنا أنهم قد حولوا هذا المعهد من دورة تدريب الأئمة التي كان عليها عندما زرنه قبل ثلاث سنوات، وكان

التعليم الإسلامي، ومنه افتتح المعاهد الدينية آنذاك محرماً، أما الآن فإنهم جعلوه معهداً إسلامياً يدرس فيه الطالب أربع سنوات أو خمساً، وإذا تخرج منه يكون قد عرف العربية، وحصل على قدر من العلوم الإسلامية يؤهله للإمامة في المساجد، كما يؤهله للالتحاق بإحدى الكليات الإسلامية في الجامعات المشهورة كجامعة الأزهر، أو الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.



زيارة المعهد الإسلامي الصيني في بكين

دخلنا عدة فصول أظننا فصول المعهد كله، فرأيت الطلاب يحسنون العربية، ويكتبون بها، عرفنا ذلك من التحادث معهم بالعربية، وليس لمجرد كتابة الدروس بالعربية على السبورة مثلاً، أو لوجود كتب عربية بأيديهم، لأن ذلك قد يكون أمراً معداً من قبل.

كما أن المدرسين، وكلهم من الصينيين، يتكلمون العربية أيضاً. وقد أخبرونا أن هؤلاء الطلاب هم الذين رأيناهم في المعهد قبل ثلاث سنوات، زادوا طلاباً غيرهم التحقوا بعدهم، وأنهم سوف يتخرج الناجحون منهم بعد شهرين، كما هو مقرر، ويوزعون على مناطق الصين المختلفة التي قدموا منها.

فقد اختاروهم في الأصل من عدد من المناطق، ومنها على سبيل المثال طالب منهم من منغوليا الداخلية، قال بعربية فصيحة: إنني سوف أتكلم عن بلدي، ولا أدري أفعل ذلك لكونه عرف أننا سنزور (منغوليا) الداخلية أم أن ذلك حدث مصادفة، وإنما المهم في الأمر أنه أخذ يتكلم بعربية فصيحة واضحة عن تلك البلاد وبطريقة ارتجالية.

الاجتماع الرسمي

وجدناهم يصلحون في مقر الجمعية الواسع إصلاحاً كاملاً يشمل الترميم والتبليط والتجميل، مما يدل على تطور حميد في الصين إذ كان هم المسلمين في السابق هو مجرد المحافظة على الموجود لديهم، وعدم التطلع إلى تحسينه.

ثم دخلنا إلى قاعة الاجتماع الرئيسية في الجمعية، فألقى الشيخ (إلياس شن شيا شي) كلمة كان مما قاله فيها:

إنني أرحب بزيارة الشيخ محمد بن ناصر العبودي الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي لمسلمي الصين الشعبية؛ مشيراً إلى العلاقات الأخوية الوثيقة بين الرابطة والجمعية التي تتطور وتتوثق يوماً بعد يوم في توطيد عرى الأخوة الإسلامية التي تربط مسلمي الصين مع

إخوانهم في الدين، وإن الرابطة وهي هيئة دولية تلعب دوراً بارزاً في خدمة القضايا الإسلامية، والدعوة إلى الله، وتعزيز الأخوة القرآنية بين كافة المسلمين، وأن مسلمي الصين يقدرّون جهود الرابطة العالمية ويثنون على نشاطاتها.

فألقيت كلمة بدأتها بالشكر على الاستقبال والترحيب، وقلت: إن هذه الزيارة هي امتداد للزيارة الأولى عام ١٩٨٤م، وإن الرابطة تعمل على تحقيق المبدأ القرآني حيث قال الله عز وجل: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ وعلى هذا فإن التعاون بين المسلمين واجب إسلامي، ومن أسس هذا التعاون هو اللقاء والاجتماع والتشاور، وفي سبيل تحقيق هذه الغاية تحرص الرابطة على زيارة الجماعات المسلمة، والاجتماع بهم والتناصح لما فيه خير الإسلام والمسلمين.

ثم عقب الحاج إلياس شن شيًا بشي بالشكر والثناء على مساعدات الرابطة المعنوية والمالية لمسلمي الصين الشعبية... وقد ظهر أثارها في تزايد أعداد الحجاج المسلمين الصينيين سنوياً، وقد ارتفع عددهم من ٢٥ حاجاً إلى ٢٢٠٠ حاجاً في السنة الماضية، قال: ولا ننسى الرابطة وجهودها المباركة، وما تقدم من رعاية للحجاج الصينيين، وتذليل مصاعبهم، والمسلمون الصينيون يشكرون الرابطة على كل ما قدمته وتقدمه لهم من دعم وعون، وقد ترك هذا الاهتمام انطباعاً عميقاً، وأثراً حسناً في نفوس المسلمين، ويتطلعون إلى كثير من الدعم والمساعدة والتشجيع على استمرار نشاطهم الإسلامي.

فعلقت على ذلك بالشكر على مشاعره، وأحاسيس المسلمين الصينيين نحو الرابطة التي لن تألو جهداً في خدمة المسلمين؛ لأن رابطة

العالم الإسلامي هي منظمة إسلامية عالمية تعمل على مستوى العالم حيث يوجد المسلمون، وهم منتشرون في كل أنحاء الدنيا، ومن يعمل على مستوى العالم تكون مسؤولياته كبيرة، وأعماله عديدة، حتى تلبى احتياجات العمل الإسلامي حسب الأهمية والأولية، وقد يسبب هذا الأمر تأخر بعض المساعدات لبعض المشاريع الإسلامية في مناطق إسلامية أخرى، ونرجو أن يلتمس الإخوة لها العذر في ببطء بعض المساعدات.

ثم تحدث الحاج إلياس شن شيا شي عن أعمال المؤتمر الإسلامي الصيني الخامس الذي عقد في بكين فيما بين ١٠ - ١٦ مارس ١٩٨٧م وحضره ٣٣٠ مندوباً من الأئمة والعلماء من مختلف مقاطعات الصين الشعبية، وإن المؤتمر أكد على توطيد الصلات الأخوية بين مسلمي الصين الشعبية والدول الإسلامية والعربية، وبخاصة توثيق العلاقات مع رابطة العالم الإسلامي، وأشار إلى أن عدد الحجاج هذا العام قد يصل إلى ٢١٠٠ تقريباً، ويمكن أن يكون أكثر، ولكن هناك صعوبات الطيران والتأشيرات، كما يعاني المسلمون صعوبات في تحويل عملاتهم المحلية إلى الدولار، وأردف يقول: إن الجمعية الإسلامية الصينية سترسل هذا العام بعثتين: إحداهما رسمية تتكون من ٢٦ شخصاً برئاسة السيد إبراهيم روزي السكرتير العام لحكومة مقاطعة شنجانغ أويفور ذاتية الحكم، والثانية بعثة خدمات لرعاية الحجاج الصينيين تتكون من ١٢ شخصاً برئاسة الحاج عبد الرحيم أمين نائب السكرتير العام لشؤون الحج في الجمعية الإسلامية الصينية المركزية.

ثم أنهى حديثه بالشكر والتقدير على ما قدمته الرابطة من استضافتها الدائمة لرجال بعثة الحج الصينية الرسمية سنوياً، وبالحمد

والثناء لخدام الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله على اهتمامه الكبير بضيوف الرحمن، وما يبذله بسخاء وعناية في توفير سبل الراحة لهم لأداء فريضة الحج في يسر وأمان.

فقلت: إن ما تقوم به حكومة خادم الحرمين الشريفين ورابطة العالم الإسلامي من خدمات نحو الحجاج، ما هو إلا واجب إسلامي، وإن الرابطة على استعداد لتقديم المساعدات اللازمة لبعثتي الحج الصينية التي أشار إليهما.

ثم تطرقت إلى الحديث عن دورة تدريب الأئمة والدعاة المزمع عقدها في بكين حسبما تم الاتفاق عليه بين الرابطة والجمعية، وطلب تحديد المكان والزمان لمناقشة ذلك، وتحديد الخطوات اللازمة لإقامتها في موعد مناسب يحضره معالي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، ثم يقوم بجولة في المناطق الإسلامية لمدة أسبوع، وانتهى النقاش بأن يتم عقد جلسة العمل في مقر نزول مبعوثي الرابطة بفندق شي يوان شي في الساعة ٧ مساء من اليوم نفسه.

وبعد الفراغ من تبادل الكلمات وعبارات المجاملة أخبرتهم بأننا نحمل معنا مبالغ مالية للإسهام في إعمار عدد من المساجد في شنجاك أو (تركستان الشرقية)، كما أنه يسرنا أن نخبرهم أننا سنهدي إليهم جهازين للتلكس: أحدهما للجمعية الإسلامية الصينية الرئيسية في بكين، والثاني لفرع الجمعية في مقاطعة سنسكيانغ، وذلك استجابة لطلب كانت الجمعية قد عرضت بذكره للرابطة، لأنهم لا يستطيعون شراء مثل هذه الأجهزة من الصين؛ لأنها غير موجودة في الصناعات المحلية، وإنما تستورد من (هونغ كونغ)، وذلك يستدعي الحصول على

عملة أجنبية صعبة لا يستطيعون الحصول عليها لعدم توفرها عند حكومتهم، حتى وإن استطاعوا الحصول على ما يقابلها بالعملة المحلية وهم لا يستطيعون ذلك.

كما أخبرتهم بأننا في رابطة العالم الإسلامي قررنا دفع مساعدة مالية حاضرة إلى مشروع المركز الإسلامي الذي تجري إقامته الآن في مدينة (نن تشوان) عاصمة مقاطعة (نن تشا).

وقد شكروا عرض الرابطة هذا، وإن بدا أنهم كانوا يتطلعون إلى أكثر من ذلك.

والحقيقة أن الأمر كذلك، فلدى الرابطة مشروع لمساعدة المساجد في الصين يشتمل على مبالغ كبيرة من المال، ولكنه يحتاج إلى بعض الوقت لاستكمال إعداده، وتوفيره من ميزانية الرابطة، ومن ميزانية المجلس الأعلى العالمي للمساجد.

وفي النهاية وافقونا على اختصار مدة الزيارة، واتفقنا على برنامجها، كما اتفقنا على أن نعقد جلسة مباحثات رسمية لتفصيل ما بحثناه في غرفتي في الفندق نحو الساعة الثالثة من بعد الظهر هذا اليوم.

في مطعم تركستاني

ربما مر بك القول بأن المطاعم الإسلامية كما يدعونها، وإن كنت أدعوها مطاعم المسلمين لأن ذلك أصح في الواقع هي مهمة جداً في أنحاء الصين، وذلك لكون الأكثرية من الصينيين الذين يدعون (الخان) يأكلون حيواناً وحشرات ودواب محرمة في الإسلام أو مكروهة لذوق المسلم مثل الكلاب والحمير والفئران والقرود، ويكثر استعمال

لحم الخنزير وشحمه في أطعمتهم.

إضافة إلى أن الحيوان الذي يحل أكله للمسلم لا يجوز له أن يأكله إذا ذبحه هؤلاء؛ لأنهم ليسوا من أهل الكتاب، لذلك كانت مطاعم المسلمين موجودة في أكثر الأمكنة، ورغم الكتابة عليها والإعلان عنها بأنها (مطاعم المسلمين)، أو أن فيها طعاماً إسلامياً فإن طائفة من الكفار، وهم الخان يفضلون أن يأكلوا فيها لنظافتها، ولنكهة خاصة في بعض الأطباق التي يقدمها المسلمون، وذلك لكون المطابخ في بلاد المسلمين كانت منفصلة على مدى القرون عن مطابخ الكفار.

بعد الخروج من الجمعية الإسلامية ذهبنا إلى وكالة لأجهزة التلكس حيث شاهدنا المعروض فيها، واتفقنا على شراء اثنين لهم من تلك الأجهزة؛ إلا أن الشركة ذكرت أنها ليست موجودة عندهم، وإنما هي في هونغ كونغ، ويمكنهم إحضارها غداً، فوافقنا على ذلك.

ذهبنا في الثانية عشرة، وهو الموعد المحدد للغداء في المصالح والإدارات الحكومية، وأكثر المصالح والإدارات في هذه البلاد الشيوعية هي حكومية.

وذلك في مطعم تركستاني، ويسمون التركستانيين هنا بالإيغور نسبة إلى كبرى القبائل التركية التي تسكن في تركستان الشرقية، ويسمى هذا المطعم (مطعم تورفان)، وتورفان منطقة في تركستان الشرقية اتفقت السلطات المحلية فيها مع سلطات بلدية مدينة بكين على افتتاح هذا المطعم، والاشترار في ذلك، ثم تقاسم الريح الذي ينتج بينهما مناصفة.

وذلك لما ذكرته من الإقبال على المطاعم الإسلامية، كما أن مطعم (تورفان) هذا يقدم أطعمة تركستانية خالصة، لا تقدم في المطاعم الأخرى، يقبل عليها أهالي تركستان الموجودون في بكين، وهم كثير، إلى جانب بعض الأهالي والزوار من المسلمين من داخل الصين ومن خارجها.

عندما وصلناه وجدنا فتيات من التركستانيات قد ألبسوهن اللباس التقليدي لبلدتهن، وهو قمص طويلة تنزل إلى أدنى من الركبة، مزركشة الصدور، مع أنهن لسن بحاجة إلى ذلك؛ لأن ملامحهن وتقاسيم وجوههن تدل بوضوح على أصلهن التركستاني الظاهر.

وهن إن شئت الإيضاح البخاريات اللاتي نعرفهن في الحجاز؛ إلا أن احتشام البخاريات في بلادنا قد زایلهن، وإن كانت في وجوههن حشمة ظاهرة إذا قورن بالصينيّات الكافرات اللاتي لا تكاد تلاحظ في بعض الأحيان فرقاً بينهن من هذه الناحية وبين الرجال، بل إننا كنا نتجادل أحياناً عندما نرى إنساناً أمامنا، وبخاصة إذا كان شاباً، فلا ندري أرجل هو أم امرأة؟ وما رأيت جنساً في العالم يكثرفيه مثل هؤلاء المشتبه فيهم من الناحية المظهرية أهم من الذكور أم من الإناث مثل الصين!

كان معنا الأخ (الحاج عبد الرحيم أمين) سكرتير العلاقات الخارجية بالجمعية الإسلامية، وهو تركستاني، كما أن مرافقي الأخ (رحمة الله بن عناية الله) يعرف التركستانية لأنه بخاري الأصل كما يدعى في الحجاز، وإن كان بين بلدته الواقعة قرب مدينة كاشغر التاريخية وبين بخارى مسافة طويلة، فسارع مدير المطعم، واسمه عبد

الباري، ويخففونه أحياناً بقولهم: باري. وعلى رأسه شعار التركستانيين الظاهر الذي يتمسكون به، وهو القلنسوة، أي الطاقية المربعة الشكل المخططة، وأحياناً تكون مزركشة، فرحب بنا ترحيباً حاراً.

وأكلنا عنده طعاماً جيداً لا عيب فيه عندي إلا شيئان هما عيب الطعام الهندي - عندي أيضاً - وهما: الدسم الثقيل، واللفل الكثير، وإن كان الفرق كثيراً بين الطعامين في هذا الموضوع، فطعام الهنود لا يكاد يسيغه من يكون مثلي يميل إلى الطعام الخفيف الخالي من الدسم، ويكره الفلفل الذي هو حار في الأولى والثانية والرابعة كما كان كتاب الطب القديم يقولون.

والأولى هي: الفم، والثانية هي: الحلق، والثالثة التي لم تذكر، وهو ليس حاراً فيها على قولهم هي: المعدة أو البطن، أما الرابعة التي ذكروا أيضاً أنه حار فيها، فهي مخرج البراز.

وكان أهم ما في هذا الطعام أنواع اللحم من مشوي ومطبوخ؛ على حين أن أهم ما في الطعام الصيني، سواء منه ما كان للمسلمين وغيرهم هو الخضرات.

نقدنا مقابل ذلك خمسة وستين يوماً للثلاثة.

حفلة الجمعية الإسلامية

أقامت الجمعية الإسلامية مأدبة عشاء لنا في مطعم كبير مشهور في قلب مدينة بكين، وذلك في السادسة والنصف، وقد بقي على غروب الشمس نحو الساعتين؛ إذ هي تغرب في نحو الثامنة والنصف، ولكن هذا نظام صار متبعاً في الصين منذ استيلاء الشيوعية على الحكم،

وهو أن يكون موعد طعام الفطور السادسة صباحاً، والغداء في الثانية عشرة ظهراً، والعشاء في السادسة مساءً.

وقد بدؤوا الآن يتحللون منه شيئاً فشيئاً، وكانوا عندما زرناهم في المرة الأولى يتمسكون به تمسكاً شديداً، ومن مظاهر تحللهم منه أن موعد العشاء لنا هذا اليوم هو في السادسة والنصف، وليس في السادسة.

وجدنا في الاستقبال في المطعم بعض المسئولين فيه عند بابه الخارجي، فتقدمنا إلى داخله؛ حيث صعدنا درجاً أفضى إلى قاعة كبيرة مليئة بالآكلين، صعدنا منها مع درج قصير إلى قاعة علوية أخرى مليئة بالناس أيضاً، فأدخلونا قاعة صغيرة منفصلة؛ حيث وجدنا المائدة الكبيرة قد نصبت، وعليها مقدمات الطعام.

وكان الشيخ إلياس شن شيئا شبيهاً، ومعه عشرة من زعماء المسلمين قد استقبلونا عند الدرج الداخلي مرحبين فتحلقنا جميعاً حول المائدة الكبيرة.

وبدأنا بتناول مقدمات المائدة، ولا نقول المقبلات، لأنها أطعمة خفيفة، فهي ليست كالمقبلات عندنا التي تكون في الغالب من المخللات، أو حتى تكون تشبه السلطات في بعض الأحيان.

ومن هذه المقدمات، وهي أنواع متنوعة، بيض أسود اللون معالج بأدوية أو محاليل كيميائية، يبدو أنه ينقع فيها لمدة شهر أو شهرين، فيستحيل لونه الأبيض إلى أسود شفاف، حتى يصير كأنه قطعة من اللدائن السوداء.

وشرائح قليلة من سمك مملح مضاف إليه قليل من السكر، وقطع صغيرة من لحم البط، وخيار منقوع بالسكر، والصلصة، وللعربي أن

يتصور غرابة ذلك من حيث اللون، ومن حيث الطعم، وشيء كالعصب إلا أنه معمول على هيئة خيوط ذكروا أنه لحم حيوان بحري، ويبدو تحت الأضراس كأنه العصب الصلب، وقد نقع في الخل.

وأما الخل على ذكره، فإن خلهم ليس شديد الحموضة مثل الخل عندنا، وإنما هو حامض خفيف، ومع حموضته فيه طعم آخر لا أدري بماذا أصفه، لأنه بين الملوحة والحرارة، وهناك أنواع أخرى كالخل، منها شيء أسود اللون حازق، وآخر أحمر لم أذقه، ولكنني أظنه حاراً، وإن لم تكن حمرة من كونه من فلفل أحمر.

وجاءت خادمة المائدة، وهي صينية من قومية الخان، وهم كفار الصينيين كما تقدم، بالقائمة وفيها خمسة عشر نوعاً من الطعام الصيني اللذيذ، وكلها حلال بلال؛ لأنها معدة للمسلمين من أهل هذه البلاد، ولضيوفهم من الخارج، وهذه هي المقدمات التي ذكرت بعضها، وإنما عادتهم أن يأتوا بالقائمة في المآدب الرسمية حتى يطلعوا الضيوف على أنواع الطعام التي ستقدم، فيحسبوا حساباً للأنواع التالية.

ومن هذه الأنواع أكلة من ذنب البقرة لذيذة، قالوا: إنها مما يختص به أهل بكين، ونوع من الإربيان الكبير الجيد، وهو الجمبري بلغة أهل مصر، والروبيان بلغتنا الدارجة، ونوع من أعصاب البقرة جاؤوا به ناضجاً، وقد طبخوه مع شيء جعله يزرق في الحلق بدون استئذان، وقال لي أحد الإخوة: إن الصينيين يأكلون الأعصاب هذه بعد أن يطبخوها طبخاً جيداً، لاستطرافها ولذتها من جهة، ولأنها - فيما يزعمون - تشد من عصب آكلها.

أما الحلوى والفاكهة، فقد جاؤوا بهما في وسط المائدة، وإنما

كان ختامها الشورية التي يستفتح الأوروبيون بها الطعام.

استكمال المباحثات

عدنا إلى الفندق بعد المأدبة، وكنا بدأنا جلسة للمباحثات الرسمية في الثالثة من بعد الظهر في غرفتي في الفندق كما كان مقرراً، واستغرق الاجتماع ثلاث ساعات دون أن ينتهي البحث، وذلك لإصرار الجانب الصيني على أن يكون الاجتماع الذي نبحت في كيفية عقده ملتقى إسلامياً عالمياً تتفق عليه رابطة العالم الإسلامي، وليس دورة لتدريب أئمة المساجد في الصين تتفق عليها الرابطة أيضاً، كما نريد نحن، وكما قدمنا به عرضنا إلى الجمعية الإسلامية الصينية، وأبرقنا لها من الرابطة بذلك، وأني سوف آتي للتباحث معهم في كيفية إنفاذ هذا الأمر.

ويظهر أن الحكومة الصينية لم توافق على إقامة الدورة التدريبية التي كانت الجمعية قد وافقت عليها، وقد ألح الجانب الصيني الذي كان برئاسة (الشيخ نعمان ما شي آن) نائب رئيس الجمعية الإسلامية والأمين العام لها إلى أن حكومة الصين الشعبية ترى أنه إذا أتاحت الفرصة لأهل الأديان المختلفة في الصين أن يتلقوا التعليمات والتدريب من أناس من خارج الصين، فإن هذا يفتح باباً واسعاً - بزعمهم - على البلاد، وقد يجر إلى تدخل أناس من الخارج في الشؤون الداخلية للبلاد، فأخبرناهم أننا لا نقصد بالتدريب أن نفهمهم ما لا يريدون، أو لا يعلمون، وإنما سوف نتفق على برنامج واضح محدد تلقى بموجبه، وفي نطاقه محاضرات ودروس على أئمة المساجد في الصين، تتضمن المعلومات الضرورية لإمام المسجد مما يتعلق بأحكام الصلاة والسهو

وتجهيز الجنازة، وعقد النكاح للمسلمين، وتقسيم المواريث وفق الشريعة الإسلامية، وذلك فيما إذا اتفق الورثة فيما بينهم على ذلك ورضوا به.

إلى جانب كيفية تعليم الصغار، وإرشاد الكبار، مع إمداد المعلمين بكتب عربية جيدة، وإعطائهم مكافآت شهرية سخية مدة تدريبهم، مع التكفل أيضاً بدفع تذاكر سفرهم عند قدومهم من أماكن سكنهم في مناطق الصين المختلفة إلى مكان إقامة الدورة في بكين، وعند عودتهم بعد الانتهاء من الدورة.

وسوف تتظر الرابطة فيما بعد في تعيين عدد من الناجحين في الدورة دعاة ومرشدين في الصين، تدفع لهم الرواتب السخية، وتجعلهم يتفرغون للدعوة إلى الله.

غير أنهم أصروا على عدم الموافقة على هذه الدورة، وذكر الأخ الشيخ (نعمان ماشيان) الذي كان قد وافق على إقامة الدورة التدريبية نيابة عن الجمعية الإسلامية الصينية أن المجلس الدائم للجمعية - ولا نعرف شيئاً عن هذا المجلس من قبل - لم يوافق على إقامة الدورة التدريبية اعتماداً في نظره على أن الصينيين لديهم من العلماء من يقوم بهذه الدورة وأمثالها؛ دون الاستعانة بأحد من خارج الصين.

ثم إن الجمعية الإسلامية حسبما ذكره قد افتتحت ثمانية معاهد إسلامية في ثمان مدن رئيسية من عواصم المقاطعات، وعمل هذه المعاهد هو إعداد أئمة المساجد والعاملين فيها.

هذا وقد تقرر أن يعقد اجتماع ثالث فيما بعد لبحث هذا الموضوع، وكان ذلك بناء على طلبنا؛ لأن رئيس الجمعية الإسلامية الصينية الشيخ

(إلياس شن شيا شي) كان قد أخبرني أنه يرغب في زيارتي في الفندق زيارة خاصة في العاشرة من مساء هذا اليوم، يصحبه فيها الأستاذ (لقمان ما شان لي) الذي كان صحبنا طول زيارتي الأولى للصين، واستفدت منه كثيراً، وحمدت صحبته، ثم لقيته بعد ذلك في مكة المكرمة.

وقد حضر الشيخ إلياس بالفعل ومعه الأخ لقمان، ولبثا بعض الوقت في زيارة مجاملة لم تخل من بحث ما يتعلق بالجانب غير الرسمي من العمل.

تمشية نصف الليل

خرج الرجلان في الحادية عشرة، وخرجنا نحن، أنا ورفيقي في السفر الأستاذ رحمة الله بن عناية الله، في تمشية على الأقدام فيما حول الفندق، قصدنا منها أن نرى وحدنا المنطقة على طبيعتها في هذا الليل، وبخاصة لما كان في أذهاننا عن الصينيين بأنهم كانوا ينامون مبكرين من أجل التبكير إلى العمل.

وغيرنا ملابسنا العربية إلى الملابس العالمية المسماة بالإفريقية، وخرجنا في تمشية في الشارع الطويل القريب من الفندق.

لم يكن الشارع خالياً، في هذه الساعة المتأخرة من الليل، بل كان فيه مشاة، وحتى بعض الباعة المتجولين الذين يقفون بعرياتهم في جانب الرصيف، ومنهم رجل مسلم كان يبيع شواء قليلاً. حيا بتحية الإسلام وقال: حلال، حلال، (بسم الله، الله أكبر)، وهو يشير بيده لعلامة الذبح، يريد أن اللحم مذبوح ذبحاً شرعياً.

وكان يقف عنده شخص من المارة، ربما كان سكران، ولمجرد وقوفه لا عمل له أراد أن يتحدث إلينا، ولم نرد ذلك.

وأرادنا الأخ المسلم أن نأكل قليلاً مما لديه من الشواء الذي هو نزر قليل، يبيع منه على المارة قطيعات صغيرة في قضبان حديدية صغيرة، كأنها الأعواد، وهو يشوي على فحم موقد في عربته، وبنيت له تساعده.

ورأينا المتسكعين في أنحاء من الشارع، مما يدل على أنهم ليسوا من العاملين في النهار وإلا لما تسكعوا في هذا الليل الذي يعوق السهر فيه عن العمل في النهار.

ولكن الجميل في الشارع في مثل هذه الساعة أن السيارات التي تمر به قليلة جداً، وإنما المارة هم من المشاة، أو من ركاب الدراجات الذين لا يسرعون، وكثيراً ما تراهم يتحدثون فيما بينهم وهم سائرون على دراجاتهم.

ولهم مسار خاص في الشارع على يمينه ويساره، فأغلب الشوارع الرئيسية في بكين يكون في وسطها مسار للسيارات مشترك بين السيارات الذاهية والآيبية، لا يفصل بينهما إلا الخط الأصفر أو الأبيض الذي يكون في أرض الشارع عادة يفصل بين المسارات فيه، وعن يمين هذا الخط الرئيسي للسيارات يكون هناك قسم مخصص للدراجات؛ يفصل بينه وبين المخصص للسيارات حاجز لا تستطيع السيارات أو الدراجات أن تتخطاه، ثم يكون ما وراء قسم الدراجات مما يلي الأبنية في الشارع الرصيف المعتاد الذي يختلف سعة وضيقاً حسب أهمية الشارع، وسعته أو ضيقه، وكثيراً ما تكون بين هذه الحواجز في الشوارع الرئيسية الواسعة أشجار مغروسة على هيئة صف مستقيم.

لذلك لا يتضايق من يسير على قدميه في الشوارع الرئيسية الواسعة من حركة السيارات، ولا حركة الدراجات، ولا حتى من زحام المشاة، وإنما المشكلة في الشوارع الضيقة، وأغلبها شوارع قديمة حيث يختلط مستخدمو الشارع بعضهم ببعض من سيارات وراكبي دراجات ومشاة، فتحصل مضايقات، ويتعطل السير في بعض الأحيان، ويضطر ركاب الدراجات إلى الترحل من دراجاتهم، والإمساك بها، وهم يسرون على أقدامهم، لأنهم لا يستطيعون أن يبقوا فوقها وهي واقفة، أو لا تكاد تسير، كما هو معروف.

ولكن مما ينبغي أن يسجل للصينيين هنا أن الهدوء في السير، وعدم المشاحنة في الطريق هو الشائع، وإن شئت قلت: إنهم يحافظون على آداب استخدام الطريق، فالسيارات تسير بهدوء ظاهر، حتى إنك وأنت راكب السيارة تكاد تحث سائقها على أن يسرع في سيره، لأنه يخيل إليك أنه يتباطؤ فيه.

وكذلك الأمر بالنسبة لراكبي الدراجات، ويكفي أن تعرف أنهم كثيراً ما تراهم يتحدثون وهم راكبون في الطريق على دراجاتهم، وكأنما هم راكبو الإبل في العهد القديم، ولا شك في أنهم لو كانوا يسرعون في السير بدراجاتهم لما استطاعوا الحديث فيما بينهم.

لهذا السبب قل أن ترى المخاصمات أو المنازعات من أجل المرور.

وشرطة المرور الموجودة في أكثر الأماكن يسرون السيارات بدون إشارات ضوئية، إذا كان المكان غير مهم، أو التقاطع غير واسع، وحتى إذا وجدت إشارات المرور الضوئية، وهي موجودة في أكثر الشوارع الواسعة، فإن شرطة المرور موجودون أيضاً.

وأذكر أن سائق سيارتي التي خصصتها الجمعية الإسلامية لركوبي، وهو إيغوري، أي تركستاني، لم يشعر بأن الإشارة قد صارت حمراء إلا بعد أن تجاوز خط عبور المشاة الأبيض الذي يكون دون إشارة المرور، فأسرع شرطي موجود هناك بإيقافه، وكان خلفه سيارتان تتبعنا، وطلب منه الاطلاع على أوراقه، فأراه إياها، ولم يسمح له بمواصلة السير إلا بعد أن تكلم معه الإخوة المرافقون، وأفهموه أننا ضيوف عرب، مع أن السائق لم يتجاوز الإشارة.

وقد لاحظنا، ونحن نسير في هذه الساعة المتأخرة في الشارع امرأتين جالستين تحت إحدى الأشجار، وهما تتظران إلينا باهتمام مما قد يوحي بمقصودهما من الجلوس هنا، وإن كنا لم نعرف ذلك على الحقيقة؛ لأننا لم نقف عندهما.

ولم نر أحداً استكر سيرنا في هذا الشارع في الليل مع أن غربتنا ظاهرة، إذ العربي كأوروبي في الصين، لا يستطيع أن يستر غربته، وذلك لاختلاف تقاطيع جسمه، وتقاسيم وجهه عنهم، مثله في ذلك مثل الأبيض في إفريقية، لا يستطيع أن يخفي غربته، لأن لونه المخالف لألوان الإفريقيين ينم عنه.

بل لاحظت أن امرأة أوروبية أو أمريكية تسير وحدها في الشارع، مما يدل على شعورها بالأمن فيه.

والأمن في الصين بعامة يحتاج إلى فصل خاص به، ربما يأتي فيما بعد، لكن الذي يمكن قوله بسرعة: هو أن الصين الشيوعية آمنة في الوقت الحاضر أمناً مطلقاً لا يوجد مثله في الأقطار الرأسمالية في أوروبا؛ فضلاً عن أمريكا، بل لا يوجد مثله في الأقطار الشرقية المجاورة لها غير

الشيوعية، مثل هونغ كونغ، وتايلند، والفلبين.

يوم الخميس ١٥/١٠/١٤٠٧هـ - ١١/٦/١٩٨٧م.

إلى مدينة تيانجين

وهي ثالثة المدن الكبيرة الثلاث في الصين التي هي: بكين وشنغهاي، وتيانجين، وتبعد هذه عن بكين بمسافة ١٤٢ كيلو متراً، وتقع جهة الجنوب الشرقي من بكين على ساحل (بوهاي).

وكان من المقرر أن نبدأ السفر إليها في الساعة والنصف بعد أن نطعم في الساعة، غير أن البطء في خدمة المطعم عند الفطور أخرجنا، وربما كان هناك أناس آخرون من النزلاء قد أثربطء العاملات وتباطئهن على برامجهم، فرأيناهم يتضايقون من ذلك، ولكن لا أحد يهتم بأمرهم.

فغادرتنا فندقتنا في بكين في الثامنة إلا عشر دقائق على سيارتين: إحداهما المخصصة لي، ومعني الأخ (نعمان ما شي آن) نائب رئيس الجمعية الإسلامية، والأخ المترجم (مصطفى يانغ جي بوه)، وفي الأخرى الأخ رحمة الله بن عناية الله، والأخ عبد الرحيم أمين سكرتير العلاقات الخارجية بالجمعية الإسلامية، وهو تركستاني يعمل في قسم العلاقات الخارجية في الجمعية الإسلامية كما سبق ذكره.

وفي هذه الساعة كان فيضان الدراجات في شوارع بكين قد بدأ، والأمر المفيد في هذا الموضوع أن هذا الزحام الذي يسببه الفيضان العارم للدراجات ليس له ضوضاء، بل إنك ترى الناس يسيرون فوق دراجاتهم، وكأنما هم بقية الماء في الوادي الذي سال، وقد أوشكت مياهه على

النضوب، فصار يتحرك، ولكنك لا تسمع لحركته صوتاً.

وراكبو الدراجات فيهم من جميع الأعمار من الشيوخ حتى الأطفال الذين يذهبون إلى مدارسهم، ولكن هؤلاء ليس عددهم كثيراً، لأن الأكثرهم من البالغين من رجال ونساء.

وقد رأيت في هذه المرة أمراً لم يكن موجوداً عندما زرت الصين في المرة السابقة، وهو أن النساء بدأن يتحللن من الزي الموحد الذي يشبه لباس الرجال، وهو شبيه بالبدلة السفرية، ويتألف من قميص طويل الأكمام، وسروال طويل واسع، فصرن الآن يلبسن ألبسة متنوعة من قمص قصيرة ضيقة (فساتين) إلى ملابس يغلب عليها القصر، فصرت ترى المرأة وهي تركب دراجتها قد انكشف من ساقها ما لم يكن ينكشف من قبل.

ومن الملاحظ أيضاً أن بعض راكبي الدراجات من رجال ونساء يركبون معهم الطفل الوحيد الذي ليس لهم غيره إذا كانوا شباناً، وذلك بعد أن حددت حكومة الصين عدد الأولاد المسموح بهم للأسرة بولد واحد، بل وحيد على حد تعبير قانونهم الخاص بذلك.

فعلى هذا تكون الدراجة كافية لركوب الأسرة أو أكثرها، كما أن الإيجابي في الأمر أيضاً أن تخف أو تعدم الشكوى من ضيق المنازل، لأن المنزل مهما كان ضيقاً لن يضيق بالرجل وزوجته وطفل واحد.

ودخلنا من الشوارع التي تحيط بفندقنا (شي يوان شي) إلى شارع يسمونه الشارع الدائري، ويقولون إنه يدور بمدينة بكين من بعض الجهات، وشارعنا الدائري الذي يدور بمدينة الرياض من كل جهاتها

هو أوسع منه، وأكثر تنظيمًا، غير أن هذا الشارع الصيني الذي أسموه بالدائري تقع عليه أبنية عالية ذات طوابق كثيرة، لأنه في الحقيقة واقع في قسم من المدينة معمور، وليس محيطاً بعمارتها.

ولا تسير في هذا الشارع أعداد كبيرة من السيارات، بل إن عدد السيارات فيه هو قليل إذا ما قورن بالشوارع الرئيسية في المدن العالمية حتى في المدن الصغيرة، فمثلاً السيارات التي تسير فيه، وهو كما قلت رئيسي، يقصد السير فيه لسهولة هي أقل من السيارات التي تسير في أحد الشوارع الرئيسية في مدينة الطائف.

هذا من ناحية العدد، ومن ناحية النوع فإن أكثر من نصف هذه السيارات التي تسير فيه مثل غيره من شوارع بكين هي من سيارات الشحن الكبيرة؛ سواء أعدت للشحن أم لغير ذلك، وجزء من السيارات المتبقية بعدها هي من سيارات الجيب الخضر التي تشبه سيارات الجيش، وتصنعها الصين الشعبية، والبقية من سيارات الركوب الصغيرة المعتادة، والحافلات الصغيرة، وأكثر هذه من صنع ياباني، فالصين رغم حاجتها للعملة الصعبة ما زالت متخلفة في ميدان الصناعة بل إنها ما زالت عاجزة عن أن تصنع ما يكفي حاجتها من السيارات، فتستوردها من اليابان وغيرها، وإن كانت السيارات اليابانية هي الأكثر ظهوراً في شوارعها.

قد تسأل بعد ذلك عن الثورة الشيوعية التي يسمونها الثورة التحريرية الكبرى في ميدان الصناعة، وقد مضى على استتباب الأمر لها أكثر من ثلاثين سنة، ولم تؤسس صناعة قابلة للتصدير، ثم تسأل سؤالاً متواضعاً: لم لم تصنع ما يكفي حاجتها من السلع التي

يحتاجها الشعب؟

صحيح أن كثيراً من المصنوعات السهلة أو الصغيرة هي من صنع الصين، ولكنها لا تكفي من جهة، ومن جهة أخرى فإن الدخول المحدودة لأفراد الشعب تجعل القوة الشرائية في الصين محدودة أيضاً، فلا يزيد الاستهلاك أو يجن جنونه كما يحدث في كثير من البلدان النامية.

وعلى أية حال فإن هذه إشارة جرت إليها العبارة، والحديث ذو شجون، وربما تأتي كلمة في موضعها عن هذا الموضوع فيما بعد إن رأينا مناسبة لها.

ولكن قلة السيارات في شوارع الصين تقابلها كثرة كاثرة في الدراجات كما سبق ذكر مثل له.

ويفكر المرء في الصينيين عندما تتحسن أحوالهم الاقتصادية - إن تحسنت - ويستطيع كثير منهم، ولا نقول أكثرهم، أن يقتني السيارات كما يفعل الناس في أنحاء العالم، أو حتى كما يفعل أبناء عموماتهم المجاورون لهم في هونغ كونغ، وسنغافورا، وتايبيه كيف تتسع شوارع مدنهم لتلك السيارات؟

ولا شك في أن الشوارع ستضيق بها، وأن المسئولين في المدن سيفكرون كثيراً في مواجهة طوفان السيارات الذي تصعب مواجهته، وليس كطوفان الدراجات الذي سهل عليهم علاجه، فالسيارات تحتاج لشوارع واسعة، ومسارات لا تتعارض أو تتقابل في الشوارع، وأصواتها مزعجة، وهي تطلق سموماً من الأدخنة المضرة بالصحة.

وكل ذلك يحتاج لعناية وتخطيط جديد لا بد من توفير الأموال

والجهود له.

ولذلك يمكن القول بأن حالة الصينيين في المدن في هذه الصورة، وحرمان الشعب من امتلاك السيارات، وقصر ما يمتلكه من وسائل المواصلات على الدراجات الهوائية، هو أمر فيه مضرة بأفراد الشعب، ولكن فيه مصلحة عامة تتعلق بتوفير الأموال، وحسن الأحوال في الشوارع، وعدم الضوضاء، وعدم تلوث الهواء، ولرب ضارة نافعة.

شارع السلام الدائم:

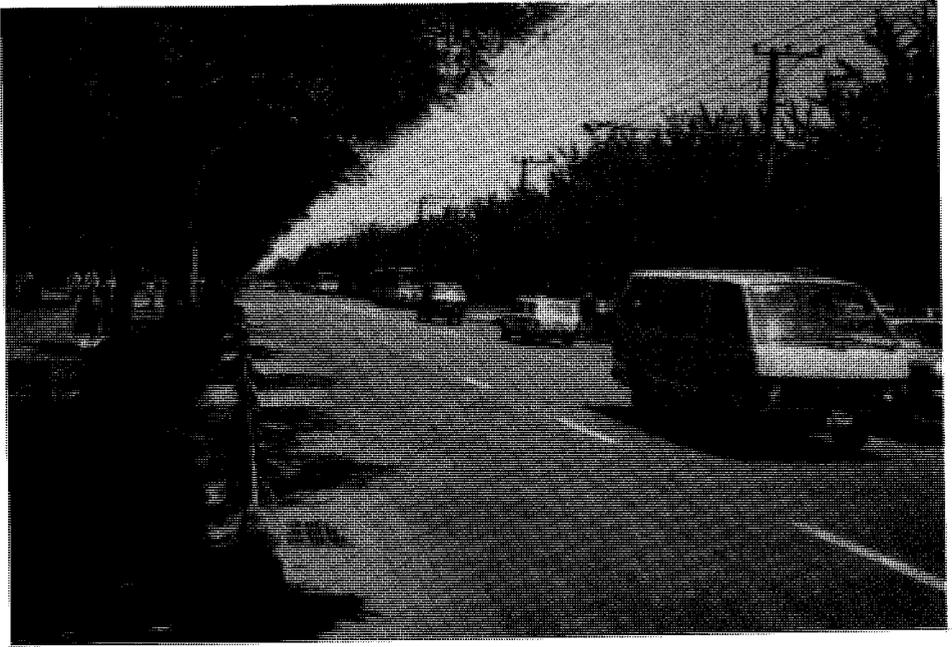
وهو مستقيم يشق قلب المدينة الحديث، وقد ترجموا اسمه لنا هكذا، وربما كان المراد بذلك: (شارع السلام المستمر)؛ لأن دوام الحال من المحال، ولو أرادوا دوام السلام لما استطاعوا، ولكن التفاؤل بالاستمرار لفترة أطول يكون أقرب إلى الواقع.

وقد نوهوا باسم هذا الشارع، ونعتوه بأنه الشارع الطويل، وهو طويل بالفعل، وعريض ومنسق، ويستحق أن ينوه به خاصة في الصين الشعبية، ذات الإمكانيات المحدود استعمالها، والشعب الذي لا يكاد يعرف شيئاً عن حالة الشعوب الأخرى.

ومن مظاهر ذلك أن السائق قال: هذا الشارع هو أطول شارع في العالم، فطوله خمسة عشر كيلو متراً.

فقلت له: إن هناك شوارع كثيرة في مدن كثيرة هي أطول منه، بل إن في شوارع في مدن متوسطة؛ بل إنها تعد صغيرة بمقاييس الصغر والكبر في المدن الصينية، وهي مدينة الرياض على سبيل المثال، فطريق مكة الذي يبدأ من الشمال إلى الجنوب، ويشق مدينة الرياض، هو

أطول منه إذ يزيد طوله على عشرين كيلو متراً.



شارع جيد حديث في بكين وسيارة الأجرة واقفة

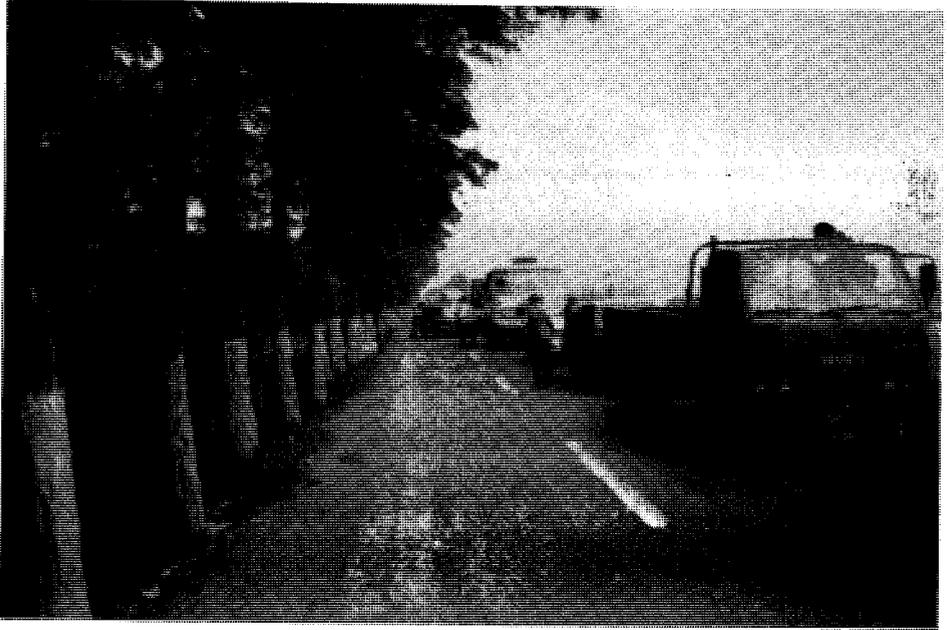
مع أن المشهور أن أطول شارع في العالم هو شارع (ريفا دافيا) في مدينة بوينس آيرس في الأرجنتين، وقد وصفته عندما سرنا فيه في كتاب: «إلى أقصى الجنوب الأمريكي» المطبوع.

ويبلغ طوله ٨٢ كيلو متراً، وليس مجرد خمسة عشر كيلو متراً.

وخرج الإخوة المرافقون قول السائق بأن المراد به أنه أطول شارع في العالم يشق قلب المدينة، فلا يوجد شارع مثله يشق قلب مدينة بهذا الطول.

غير أننا رأيناه يمتد في ضاحية من ضواحيها جهة الشرق، ونحن

نسير معه قاصدين (تيانجين) وفارقنا مدينة بكين، وفارقنا معها شارع السلام الدائم، ولا أقول فارقنا السلام، فنحن - ولله الحمد - في سلام منذ أن دخلناها، وقبل أن ندخلها، ونرجو أن يستمر ذلك السلام.



وقفة في الطريق إلى تيانجين من بكين

فوقفنا في ضاحية يشقها شارع ضيق تلتقي فيه السيارات الذهبية والآتية، ويفصل بين مسارها خط أبيض معتاد.

ونحن متجهون جهة الجنوب الشرقي حيث تقع مدينة (تيانجين) والشارع مزفت، ولكن جانبيه مغبران.

محافظة قونغ شيان:

والمحافظات هي المناطق الإدارية الصغيرة داخل المقاطعات الكبيرة

في الصين، وهذه المحافظة تابعة لمنطقة بكين، فصار الشارع الذي نسير فيه واسعاً منسقاً على جانبيه مسار واسع لراكبي الدراجات كالمعتاد في شوارع مدينة بكين.

وتسير فيه إلى جانب السيارات بعض العربات التي تجرها الخيول؛ بعضها يحمل خشباً، وبعضها يحمل قشاً لا أدري ما المراد منه. وكثرت السيارات التي تسير فيه، وأغلبها متجه للدخول إلى مدينة بكين.

ثم صار الطريق مزدوجاً للسيارات الذهابية، فيه قسم منفصل عن السيارات الآتية.

ثم خرجنا للريف الخالص، وهو مزروع كله، وأهم الحقول فيه هي حقول القمح الصيفي الذي يزرع في إبريل، ويحصد في أغسطس؛ بخلاف ما عليه الحال عندما حيث يكون الزرع في ديسمبر في العادة والحصاد في مايو.

وبخلاف القمح الشتوي الذي يزرع في المناطق الباردة من شمال الصين وشرقي أوروبا عند دخول الشتاء، حتى إذا حل الربيع في إبريل بدأ في النمو، وهو الآن مدرك للحصاد، رأينا حقولاً منه مصفرة.

ورأينا هنا ما رأيناه في المرة الماضية من طوائف الفلاحين ما بين رجال ونساء، وقد تجمعت أعداد منهم على زراعة أرض صغيرة كان يكفي لها عندما في القديم جهد رجل واحد، ولكن من الملاحظ من ملابس الفلاحين والفلاحات النظافة التامة حتى لا تعتقد أنهم فعلاً من الفلاحين، وإنما تظن أنهم من المتزهين المتفرجين، وعلى النساء قبعات عريضة في الغالب للوقاية من الشمس، وربما من المطر الخفيف أيضاً؛

لأن موسم الأمطار الصيفية قد بدأ بالفعل في هذه المنطقة.

ومررنا بجسر فوق نهر صغير، أو هو فرع لنهر أكبر، ويجري وسط أراض خضرة خصبة؛ مما يجعل الصين من أخصب المناطق، ولو كانت نسبة السكان فيها معتدلة مثل غيرها من بلدان العالم، لكانت مصدراً رئيسياً للأغذية والمأكولات فيما يعتقد، ولكن الكثرة العظيمة في السكان تستهلك كل ما تنتجه الأرض، وربما لا يكفيها في بعض الأحيان، ويكفي أن نتذكر ما سبق أن ذكرته لك، وهو أن سكان الصين قد تجاوزوا الألف مليون نسمة منذ ثلاث سنين.

واتسعت حقول القمح في الريف الذي كانت تشقه سيارتنا، وهي يابانية الصنع، مكيفة الهواء، مع أن الجو في الخارج لا يحتاج إلى تكييف لاعتداله، ولكن إغلاق الزجاج منعاً لإزعاج الصوت، ولدخان السيارات الكبيرة يجعل من التكييف ضرورة.

ثم عاد الطريق ضيقاً، بسبب إصلاح يجرونه في نصفه، وصارت السيارات تستخدم النصف الباقي، إلا أنه عندما وصل إلى منطقة لم يوسع فيها الطريق إذ تحيط به أشجار كبيرة من أشجار الظل قديمة الغراس، وهم يصلحون نصفه، صار النصف الباقي لا يتسع إلا لسيارة واحدة، فصاروا يوقفون السيارات في أحد الاتجاهين فترة ويسمحون بالسير للسيارات القادمة من الاتجاه الآخر، وذلك لمسافة قصيرة هي حوالي مائة متر.

وسألت الإخوة المرافقين بمناسبة رؤية حقول القمح عن يملك هذه الحقول، وهذا سؤال مهم في دولة شيوعية، تملك الدولة وحدها فيها المرافق العامة، فأجابوا بأنه ملك خاص، لأن الدولة قد أعطت الأراضي

للفلاحين مقابل أجره شهرية، وهي وإن لم تملكهم إياها، فإنها لا تنتزع منهم ما داموا يزرعونها.

القطعة ألفا متر:

وحددت مساحة الملكية الزراعية بألفي متر مربع، أي ما يماثل مساحة بعض الدارات (الفيلات) غير الواسعة جداً في الرياض مثلاً.

وهذه القطعة الصغيرة المحدودة تعطى للأسرة، بمعنى أنها تكون للرجل وزوجته وأولاده ما داموا صغاراً، فإذا بلغوا الرشد وألفوا أسرة، استحقوا أن يعطوا مثلها.

ولكن المفيد في هذا الأمر، وهو الذي ركز إخواننا الاهتمام عليه، أن الفلاح يستطيع أن يزرع أرضه هذه كما يشاء، وأن يبيع ما تنتجه بما شاء، وأن يتصرف بثمنه كما يريد.

وهذا أمر يعتبر جديداً في الصين؛ إذ كان المتبع في زمن زعيم الشيوعية الهالك (ماو تسي تونغ) أن الفلاح ملزم ببيع ما تنتجه أرضه إلى الحكومة بالسعر الذي تحدده هي، ثم تبيعه للناس بما تراه، وإذا أخفى الفلاح شيئاً مما تنتجه أرضه، أو تصرف فيه، عد ذلك مخالفة يعاقب عليها القانون.

ولقد رأينا ما يشهد لما قالوه في تقسيم الأراضي إلى أقسام تشبه الأحواض الكبيرة التي غالباً ما تكون مستطيلة، وليست أحواضاً حقيقية؛ إذ لا حاجة لتلك الأحواض في الري؛ لأن القمح مثل سائر الزراعات الحقلية، ينبت هنا على المطر، وإذا تأخر نزول المطر، وتأخره نادر، فإنه يمكن سقيه بواسطة ري من النهر، يشترك مع غيره في تحمل

نفقاته، وعندما ذكر لي المرافقون المقدار المحدد للفلاح من الأرض بأنه ألفا متر، ظننت أن في الأمر وهماً استقلالاً لهذا المقدار، فاستفهمت منهم ثانية عنه مع أنهم كانوا يتكلمون بلغة عربية واضحة، فقالوا: نعم إنه ألفا متر مربع، أي حُمس هكتار - بضم الخاء والميم من خمس - التي تعني جزءاً من خمسة أجزاء من الهكتار.

ثم مررنا بأشجار من عنب قليل الوجود في هذا الطريق، وقد أقاموا له عرائش صغيرة أشبه بعيدان الخيمة، ذكروا أنه ربما كان لمزرعة حكومية.

وقد كثرت المياه حتى صار على جانبي الطريق مستنقع أخضر استمر فترة وهو يماشي الطريق، وإن كان ضيقاً أشبه ما يكون بقناة للصرف، وربما كان ذلك فلم يعرف الإخوة سبب وجوده.

كما رأينا أكواماً من التبن أكثرها من العام الماضي مما يدل على وفرة المحصول في العام الماضي، ويحتفظ الفلاحون بالتبن علفاً للماشية.

كما وصلنا إلى منطقة أغلب ما يزرع فيها خضرات في أحواض صغيرة يعمل فيها نساء من الفلاحات.

وغير بعيد منها قناة كبيرة تشبه أن تكون نهراً مستقلاً، لو كانت في بلاد لا يوجد فيها غيرها من الأنهار.

محافظة ووتشينغ:

قال لنا الإخوة المرافقون: لقد وصلنا محافظة (ووتشينغ)، وهي تابعة لمدينة تيانحين، وتقع على نهر (وتشين)، لفت نظري عندها وجود

جرارات زراعية كثيرة، مع أن الجرارات الزراعية في الصين ليست بكثيرة بسبب عجز بعض الفلاحين عن دفع قيمتها، وإن كانت الجرارات موجودة في كل جهة من الصين، ويستخدمها الفلاح لغير الحراثة فيما يتعلق بحياته، فيركبها كما يركب السيارة، وينقل عليها ما تنتجه أرضه من محاصيل.

كما رأيت عدداً من العربات التي تجرها الخيول محملة بأكياس الدقيق، ولك أن تتصور مثل حاجة الصين إلى الخبز إذا تذكرت أن سكانها يزيدون على ألف مليون إنسان.

غير أن طائفة كبيرة منهم لا يعتمدون في الوجبة الرئيسية على الخبز وإنما يعتمدون على الأرز، أو على أشياء أخرى.

ويمكن تقسيم الصين، وإن لم يكن ذلك تقسيماً دقيقاً، ولكنه سريع، بأن أهل الشمال يأكلون القمح مادة غذائية رئيسية؛ على حين أن أهل الجنوب يتخذون من الأرز غذاءهم الرئيسي.

ولمناسبة رؤية أشجار كثيرة يانعة الخضرة على الطريق وما حولها، وخلو الحقول والأراضي الزراعية الداخلية التي يدركها البصر من السيارات، سألت الإخوة عن الأشجار المثمرة التي هي أشجار الفاكهة هنا، فأجابوا: إنها قليلة جداً، وإن معظم الأشجار التي تراها هي من أشجار الظل، وأشجار الأخشاب، وإنما أماكن زراعة الفاكهة في غير هذه المنطقة، وتعتمد هذه المنطقة زراعة الحقول والخضرات.

هذا وقد وقفت السيارات في الطريق؛ لأن قطاراً سيمر فوق خط لسكة الحديد يعترض الطريق، فانتهزت الفرصة، وصورت بعض المناظر الجيدة في المنطقة، ومنها الطريق الإزفلي الذي كنا نسير عليه

تحيط به الأشجار العالية، وهذا هو الذي بقي من الطريق دون توسعة، وإلا فإنهم وسعوا أكثره، وقطعوا هذه الأشجار القوية لهذا الغرض؛ لأنها تأخذ بخناق الطريق وتضيقه.

الاستقبال قبل المدينة:

استقبلنا قبل الدخول لمدينة (تيانجين) الأخوان: (محمد يوسف وومغ) نائب رئيس الجمعية الإسلامية في تيانجين، وإمام المسجد الكبير فيها، و(محمد كانغ ده شو) سكرتير الجمعية الإسلامية في مكان يبعد عن المدينة بستة عشر كيلو متراً، وذلك للترحيب بنا. جزاهما الله خيراً.

وبعد السلام والسؤال عن الأحوال لم نجلس، وإنما تقدمنا هذان الأخوان وهما على سيارة خاصة إلى المدينة.

وقبل الدخول إلى المدينة اتسع الشارع جداً، وصار ذا أقسام عدة، منها ما هو خاص بالدارجات، وما هو مخصص للمشاة؛ فضلاً عن الطريق الذي تسلكه السيارات، وبين كل مسار وآخر أشجار يانعة، وأحياناً يكون بين الشارع ويساره مسار أخضر من الأشجار التي لا تخلو من الزهور؛ على قلة في الزهور هنا.

مدينة تيانجين:

قلنا: إنها إحدى المدن الكبيرة الثلاث في الصين، وهي ميناء مهم لمنطقة بكين؛ إذ تقع على مصب خمسة أنهار مستقلة؛ حيث تختلط هذه الأنهار أو تكاد بمياه البحر عندما تنتهي إليها، ويبلغ عدد سكانها ثمانية ملايين نسمة، فيهم ستون ألف مسلم.

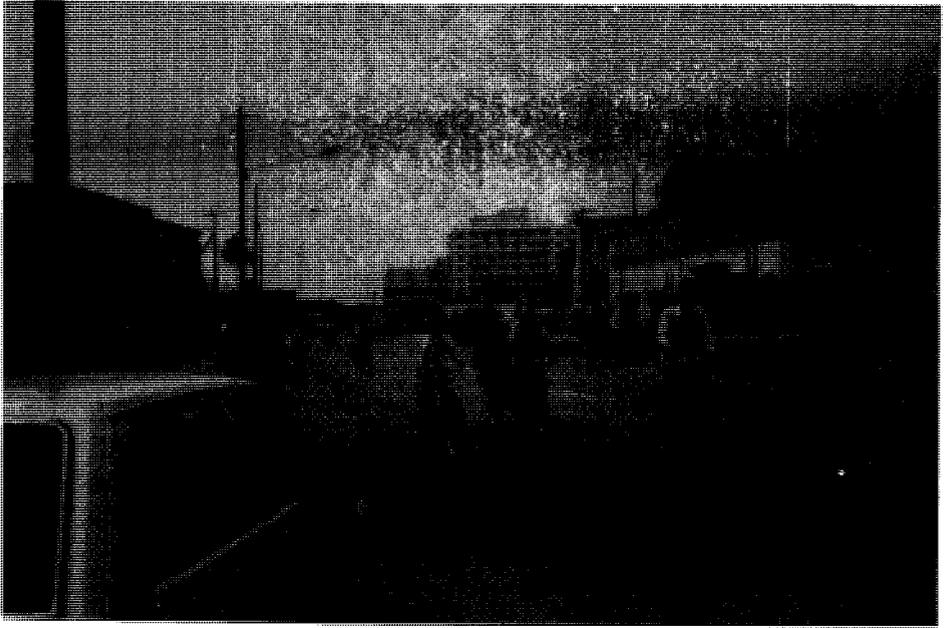
واشتقاق اسمها غريب، فمعناه الطريق السماوي، أو طريق ابن السماء على اختلاف بين الإخوة الذين ذكروا لنا اشتقاق الكلمات التي يتألف منها، فالمعنى الحرفي للاسم هو: (تان) التي تعني سماء، و(جين) التي تعني: الطريق المائي، وقد يقال فيه الطريق النهري أو البحري، إلا أن الترجمة الفقهية تعني ما هو أوسع من ذلك، فقدماء الصينيين كانوا يعتقدون أن إمبراطور الصين هو ابن السماء، مثلما يقال الآن عن اليابانيين بأنهم كانوا يعتقدون أن إمبراطورهم هو ابن الشمس المشرقة. وإذاً تكون (تيانجين) هي طريق الإمبراطور ابن السماء.

ولا حاجة إلى القول بأن هذا كله هو من بقاء المعاني القديمة التي لا محل لها الآن في أذهان الصينيين الذين هجروا في ظل الشيوعية، أو هجر أكثرهم دياناتهم القديمة كالبودية، والكنفوشيوسية، والشتاوية، ولم يبق أهل دين لا يزال أكثرهم متمسكاً به إلا الدين الإسلامي حسب ما كان قد قاله لي وزير شؤون الأديان في الحكومة المركزية الصينية في عام ١٩٨٤م.

ومع هذا التجميل الظاهر في مدخل المدينة الذي أعطاها مدخلاً جيداً، فإن هناك أشياء تشد المرء إلى الماضي مثل عربات تجرها الحمير، أو دراجات تتهاوى بحملها الثقيل، وتكاد قدما سائقها تعجزان عن تحريكها.

ثم مررنا بصف من الأبنية الحكومية المتعددة الطوابق (عمارات) بنتها الدولة لإسكان الشعب؛ إذ توجرها على الناس بأجرة زهيدة جداً

بالنسبة إلينا، وهي رخيصة بالنسبة إلى دخول الناس الشهرية، فمثلاً يمكن أن تكون الأجرة لشقة من ثلاث غرف صغيرة، وجميع الغرف الحديثة غير واسعة، بثمانية عشر يناً في الشهر؛ على حين أن راتب الذي يستأجرها يبلغ مائة ين في الشهر، ويدفع مع ذلك ما بين ثمانية ينان إلى اثني عشر يناً ثمناً لاستهلاكه الماء والكهرباء.



شارع في تيانجين

ثم مررنا ببناء مستقل ظاهر أخضر الطلاء، ذكروا لنا أنه مطعم من مطاعم المسلمين، وأنه شخصي، أي يديره شخص مسلم لنفسه، وحتى بناؤه على طراز إسلامي عربي، وأعتقد أن إدارته لذلك الشخص المسلم، وأما ملكيته فلا بد أن تكون للدولة، وصاحبه لا بد من أن

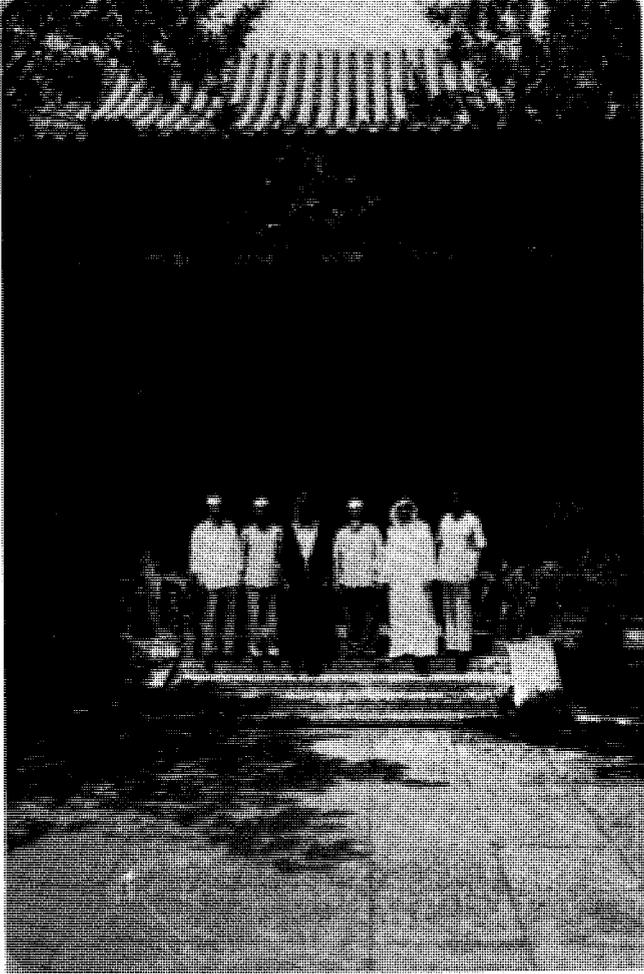
يدفع ضريبة مناسبة على دخله مثلما هو حاصل في أكثر البلدان.

وقد كتبوا عليه اسم الدين الإسلامي باللغة الصينية (تشن جن)، ومعناها: النقاء الخالص، هذا ما كاد يجمع عليه الذين سألناهم عن معناه من أهل الصين؛ غير أن أهم ما ذكر أن كله (تشن) في الثقافة الصينية القديمة تعني الذكي النظيف، وكلمة (جن) تعني: الحق، أو الله، وهذا معناه دين الله الحق، أو ما هو قريب من ذلك.

وكان دخولنا لمدينة (تيانجين) في الساعة الحادية عشرة ضحى بعد أن قضينا في الطريق إليها من بكين ثلاث ساعات وبضع دقائق.

ومررنا بأحد أنهار المدينة الخمسة، وهو نهر (زي يا)، وعمارات سكنية كبيرة تؤجر الدولة شققها على الناس، وبعضها يصح أن تسمى بالأبنية العامة الخاصة؛ لأنها تابعة لبعض المؤسسات والشركات الحكومية تبنيتها لإسكان موظفيها، والمتسببين إليها دون غيرهم من الناس، وتؤجرها عليهم بأقل مما تكلفها عمارتها؛ لأن ملكيتها في الحقيقة هي للدولة التي ترى نفسها ملزمة بإسكان الناس كلهم؛ لكونها ألغت ملكية المساكن الكبيرة، ومنعت سواء بالفعل، أو بسلب الإمكان غيرها من الجهات أن تقيم المساكن إلا ما كان من المؤسسات، أو الشركات التابعة للدولة.

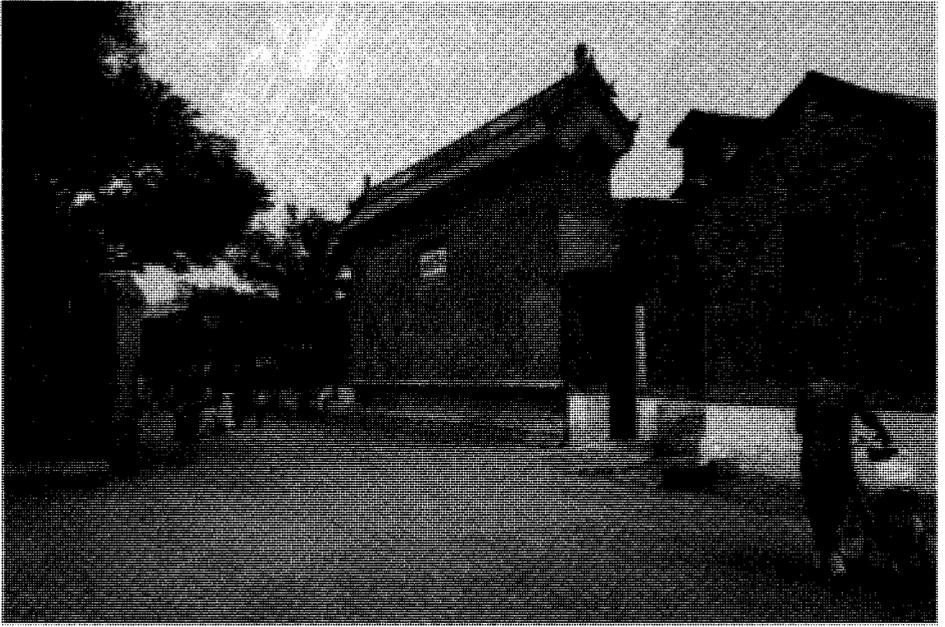
المسجد الكبير في تيانجين:



على باب جامع تيانجين

وقفوا بنا في شارع واسع عليه بيوت قديمة متطامنة ذات طراز صيني عريق، فسرنا على الأقدام في زقاق ضيق لا يكاد يتسع لمرور شخصين، وهو كما قلت جزء من هذا الحي القديم الذي يدل مظهره

على أنه حي تاريخي بالفعل، فأفضى بنا الزقاق الذي لم يكن مستقيماً إلى ميدان صغير عليه باب المسجد، وأمامه حائط قديم ذو طراز عتيق، بل تاريخي نقشت عليه عبارة قصيرة بالصينية، فسرها لنا إمام المسجد بأنها مطلق الوجود، وهو الله سبحانه وتعالى، حسب تعريف أهل علم الكلام.



الحائط الرمزي بجانب جامع تيانجين إلى اليمين على يساره حديقة الجامع بينهما الزقاق

وهذا الحائط منفرد منفصل عن غيره، ليست له أهمية من ناحية البناء، فليس هو متصلاً بمبنى آخر، ولا حاملاً لبناء، وإنما كان يشاد أمام الأبنية المهمة في الصين، وقد رأينا شبيهاً به عند بعض القصور الأثرية القديمة في الهند من الناحية المظهيرية، إذ يقيمون بوابة منفردة غير

متصلة بسور ولا غيره، وإنما يجعلونها أمام المبنى المهم كالمسجد الكبير، أو القصر المتسع، ليس لها من وظيفة إلا أنها رمز على ما لهذا المبنى من مكانة في النفوس.



الباب الأوسط لجامع تيانجين عليه تمثالان من الزهور بدلاً من
الأسدين الحارسين

وأما المسجد، فإنه على طراز صيني خالص قديم، واسع الأفنية، عظيم البناء، فيه ملحقات وغرف كثيرة تحيط به من يمين القبلة ويسارها، أما من الجهة الشرقية الشمالية التي هي خلف المحراب، فإن فيها المدخل الرئيسي للمسجد، وليس هو مدخلاً واحداً، بل أربعة إذ يدخل المرء أولاً إلى فناء مكشوف فيه حديقة صغيرة، ثم يصعد منه إلى درج يفضي إلى بوابة خشبية قديمة سقفها من الخشب القوي الذي بني من أباطرة الصين قصورهم التاريخية الباقية حتى الآن.

وتفضي إلى رواق مسقوف غير عريض، ومن هناك إلى باب الفناء الداخلي للمسجد، وهو مكشوف عليه أشجار عالية من أشجار الفاكهة وأشجار الظل، ومن هذا الفناء، أو باحة المسجد تصعد الدرج للدخول إلى المصلى الرئيسي في المسجد.

والجميل في الأمر أنهم جعلوا هذه البوابات بعضها بإزاء بعض بحيث تكون وأنت في الشارع ترى من خلالها من يكون في المسجد يصلي بعيداً عنك، إلا أنهم قد أغلقوا البوابة الرئيسية الخارجية عند دخولنا مع أنني لم أر ما يدعو إلى ذلك.

وقد أخبرنا الأخ الشيخ (محمد يوسف وومنج يه) إمام المسجد بأن الحي المحيط بالمسجد كان حياً إسلامياً، ولا يزال المسلمون يسكنون أغلب بيوته.

وذلك ظاهر من طراز البيوت حوله، بل إنك لتحس بالتاريخ قد نفخ غباره عليها، وأن كان لا يصيبك من ذلك الغبار شيء، لأن أزقته ضيقة مزفلتة الأرض، ولا تدخلها إلا الدراجات والدواب غير المحملة.



بيوت في الحي القديم في تيانجين

أقدم مسجد في تيانجين:

ذكروا لنا أن هذا المسجد هو أكبر المساجد في هذه المدينة الكبيرة، وأقدمها بناءً، إذ بني في عام ١٦٤٤م، وأن مساحته مع ملحقاته هي خمسة آلاف متر مربع، وأن البناء نفسه تبلغ مساحته ألفي متر مربع. ولا أشك في أن هذا المسجد كان جزءاً من حي إسلامي يحيط به منعزلاً عن غيره من أحياء المدينة مثلما كان ابن بطوطة قد شاهد أحياء المسلمين في المدن الصينية، وهي خاصة بهم، منعزلة عن غيرهم في داخلها المساجد.

وأما قولهم إنه أقدم مسجد مع أن تاريخ بنائه لا يرقى إلى أكثر من

عام ١٦٤٤م، فإن المراد بذلك أنه أقدم المساجد الباقية الموجودة، وذلك كله حسب تقديري، وإلا فإن ظاهر كلام إخواننا أنه أقدم المساجد بمعنى أنه كان أولها إنشاء في هذه المدينة.



في جامع تيانجين نعمان ماشيان على يمينه المترجم (مصطفى يانغ
بوه) والمؤلف يتأمل المسجد

لأن بعض المساجد في مدينة بكين بنيت قبل ذلك بقرون، ومن الدليل الواضح عليه تاريخ قبور في مسجد (نيوجين)، أي شارع البقر هناك حيث أرخ أحدها في عام ٦٧٩ هجرية، وأرخت وفاة صاحبه عام ٦٨٢ هـ، وقد ذكرت ما رأيته من أمرها في كتاب: « داخل أسوار الصين ».

ويسمى هذا الحي في الوقت الحاضر (هونغ كياو)، ومعناها: حي الجسر الأحمر، وذلك أنه كان يوجد جسر على نهر (زي يا) المجاور كان يسمى الجسر الأحمر، فهونغ: أحمر بالصينية، و (كياو): جسر. ولا علاقة لحمرة هذا الجسر بحمرة مذهب أهل الصين الذي اعتنقه حديثاً، وهو المذهب الشيعوي.

وقد ذكروا أن عدد سكان هذا الحي هو أربعون ألف نسمة كثير منهم من المسلمين، وأنه هو القلب القديم لمدينة تيانجين، وأنه كان قد بني قبل بناء المسجد، وأن الشارع العام الواسع الذي يقع قبلة المسجد قد شق حديثاً، وقبله لم يكن في هذا الحي شارع واسع وسألتهم عما إذا كان قد اعترض طريق هذا الشارع الواسع الذي شق حديثاً أي مبنى للمسلمين أزيل بسببه، فنفوا ذلك.

دخلنا إلى قاعة طويلة واسعة ملحقة بالفناء الداخلي للمسجد، فوجدناهم قد أعدوا مأدبة كبيرة من الفاكهة التي أهمها الموز والبطيخ الأخضر، وهو الجح والحبب عندنا، ومعها الحلوى والأشربة الغازية الباردة، والشاي الصيني المعتاد، وهو ليس بالأخضر ولا بالأحمر، ولا يضعون فيه السكر، بل لا يأتون معه بالسكر أصلاً، ويشربونه كثيراً، وذلك بكونهم يعدون « الزمزميات » التي تحمل الماء المغلي

وفناجين الشاي الخزفية الكبيرة التي هي من الصيني حقاً؛ لأنها خزف مصنوع في الصين، وعلباً فيها أوراق الشاي، فيأخذ من يريد أن يشرب الشاي من الأوراق شيئاً يضعه في الفناجين ويسكب عليه من الماء المغلي، ثم يغطي الفنجان بغطاء له سميك من الخزف أيضاً، ويتركه قليلاً، ثم يأخذ في شربه ترشفاً وبدون عجلة.

ولا يجد الغريب مثلنا لهذا الشاي طعماً، أو حتى لوناً يغيره بشربه، ولكنه إذا شربه مرة أو مرتين عرف له مزايا عديدة، منها أنه مدر للبول، ولا يطرد النوم كما يفعل شاينا الأحمر، كما أنه يساعد على الهضم، وفوق ذلك لا يخشى المرء أن يزيد شحماً لأنه خالٍ تماماً من السكر، ولذلك يقول الذين يريدون أن يرغبوا الناس فيه: إنه يخفف الوزن، وهو لا يخفف إلا من ناحية السلب، ولكن مجرد كونه لا يزيد الوزن مما يرغب كثيراً من الناس في هذا الزمان الذي صار الناس فيه يكثرون - في أكثر البلدان - من الأكل، ويقطعون من الحركة، فتتقل أوزانهم، ويحاولون البحث عما يخففها.

ابتدأ الشيخ محمد يوسف الكلام فقال: إنني بالنيابة عن المسلمين في مدينة تيانجين أرحب بكم، وأخبركم بسرورنا لزيارتكم ورؤيتكم في مدينتنا.

ثم ذكر أنه حج في عام ١٩٨٣م، وأنه حل ضيفاً على رابطة العالم الإسلامي ضمن بعثة الحج الصينية، ونوه بحفاوة الرابطة به، وبالحنو الصيني، وذكر أنه عندما عاد إلى بلدة تيانجين أخبر المسلمين بتلك الحفاوة والضيافة التي لقيها الحجاج من الرابطة، وقال: إن الجميع يشكرونكم ويدعون لكم.



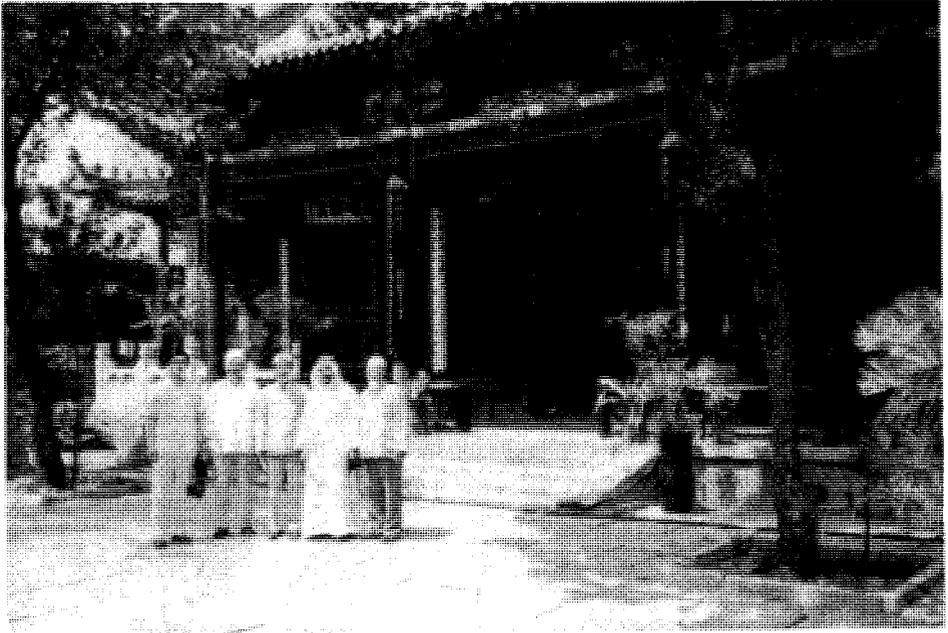
ركن من جامع تيانجين

فرددت عليه بأن ما فعلته الرابطة هو واجبها تجاه إخوة مسلمين من بلاد عريقة مثل بلادكم، وإننا معجبون بتمسك المسلمين في الصين بدينهم، رغم انقطاع صلتهم الثقافية بالمسلمين في الحواضر الإسلامية منذ مدة.

وقلت له: إنني بهذه المناسبة أرجو من أخينا الشيخ (محمد يوسف)، وهو إمام هذا المسجد الجامع الكبير أن يحث المصلين على تربية أولادهم تربية إسلامية؛ لأن ذلك هو أهم شيء لاتصال المسلمين بدينهم، والتمسك به، كما طلبت منه أن ينصح إخوانه وزملاءه من أئمة المساجد بهذا أيضاً.

ثم تحدث الشيخ (محمد يوسف) بالصينية؛ لأنه لا يحسن الحديث بالعربية، وإن كان يفهم قدرأ منها عن المسجد فقال: يبلغ عدد المصلين يومياً في المسجد حوالي المائة، وفي يوم الجمعة يصلي معنا نحو خمسمائة شخص.

جولة في المسجد:



في حديقة جامع تيانجين

بعد تناول الفاكهة والشاي تجولنا في أركان المسجد وأبائه، فكان أول شيء فيه كتابة صينية على هيئة لوحة فنية كتب عليها اسمه (تشن جن دا سي) أي: المسجد الإسلامي الكبير، فتشن جن تعني الإسلام أو الإسلامي كما تقدم، و(دا): كبير، وسي: مسجد. وهو مصبوغ بأصباغ فاقعة الألوان أظهرها الأحمر والذهبي، وتلك عادة صينية قديمة بأن يدهنوا

المحلات المهمة بألوان فاقعة، وربما كان السبب في ذلك، غير محبة الصينيين الألوان الصارخة، أن المباني القديمة المهمة هي من نوع الخشب القوي الذي يحتاج دائماً إلى طلاء يقيه تأثير العوارض الجوية.

وفد رمم المسجد أكثر من مرة؛ غير أن هيكله هو القديم الذي هو عليه الآن كما أخبرونا بذلك، وهو بحالته الحاضرة يعتبر تحفة من تحف البناء الصيني القديم التي لا تزال سليمة على حالتها الأولى.

وأعمدته من الخشب السميك الذي إذا رأيته، أو حتى لمستته لم تشك في أنها من الحجارة المساء القوية؛ لأن طلائها يخفي حقيقتها، وسقوفه من الخشب الصيني العجيب الذي جعل السقف كأنه السنام، أو هو مسنم مسترخ، أي ليس سناماً مشدوداً واقفاً، وفوق السطح يصفون صفاً من الأخشاب غير المقشورة الواحدة بجانب الأخرى من أجل وقاية السقف، وأفاريز السقف المتدلّية على الحيطان خارجة عنها لكي تقيها الأمطار والتلوج، ولكن هذه الأفاريز تكون ذات أشكال معقدة من الخشب المزين المحفور.

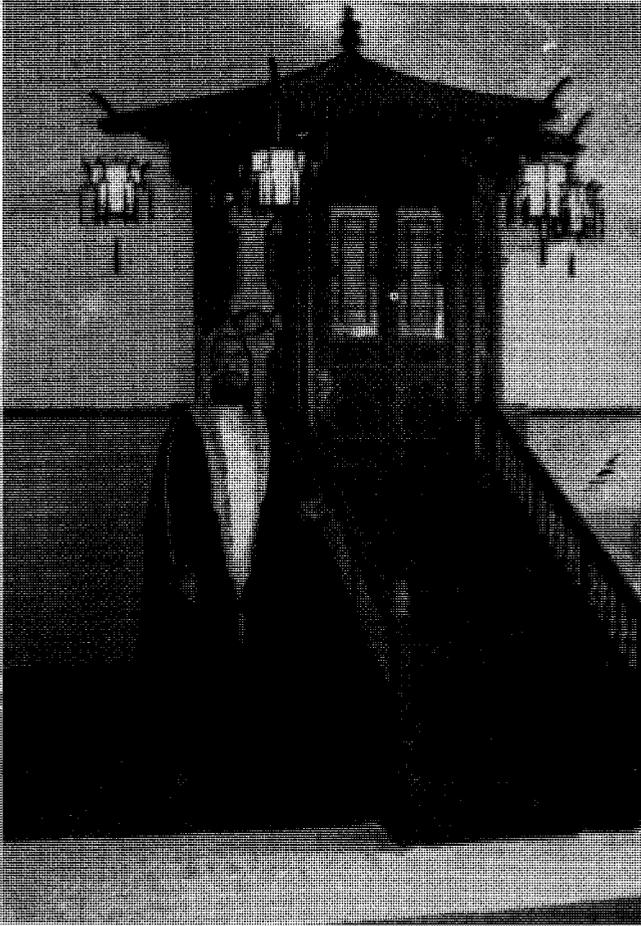
ويبدو سقف المسجد من داخله وكأنه سطح؛ لأنه ذو سقفين، وهو مدهون بلون سكري.

وزينوا محراب المسجد وحيطانه بلوحات عربية جميلة بالخط العربي الصيني المميز الذي لا يستطيع الواحد منا أن يقرأه بسهولة لكون كاتبه قد تأنق في كتابته متخذاً أشكالاً تزيينية معقدة؛ إلا إذا أكثر من تأمله، وألف قراءته.

وتلك اللوحات أكثرها آيات قرآنية وأدعية، ومنها الآية الكريمة: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾، والآية الكريمة الأخرى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾، وآية: ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾،

ولوحة أخرى: ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾.

وفيه قناديل صينية قديمة معلقة على الشكل المميز للقناديل الصينية التي تكون في القصور والمعابد القديمة، وهي سداسية الشكل، ضخمة، للقناديل منها باب يفتح من بين الأضلاع الستة التي هي كلها من الزجاج بطبيعة الحال.



بجانب منبر المسجد في مدينة تيانجين

ومحراب صيني تقليدي، وهو الذي يشبه العقد، وتكتب في داخله لوحات تزيينية وآيات قرآنية مثل آية الكرسي في المعتاد.

أما فراشه فإنه بالحصر اللينة لأرض المسجد كله، وخصوصاً الصفوف التي يكون عليها المصلون بطراحات بيض بينها قطن أو صوف لين لوقاية المصلين من برد الأرض في الشتاء الذي قد تهبط درجة الحرارة فيه إلى خمس عشرة درجة مئوية تحت الصفر.

وهذه التي تحت المصلين أشبه ما تكون بالحشايا الوثيرة.

حديث عن المساجد في المنطقة:

حدثونا أولاً عن هذا المسجد الأثري الكبير، فذكروا أنه أغلق أيام الثورة الثقافية، وذكروا ما هو أهم من ذلك، وهو أن العمال المسلمين قد تمكنوا بصفتهم تلك أي كونهم عمالاً تدعى الثورة الشيوعية الثقافية أنها قامت من أجلهم من نقل اللوحات والموجودات الأثرية الخاصة بالمسجد، وإخفائها في منازلهم، ثم أعادوها إلى المسجد سالمة بعد أن زال طغيان عصابة الأربعة الذين أشعلوا الثورة الثقافية على توجيه من زعيم الثورة الهالك (ماوتسي تونغ)، والقصد من الثورة الثقافية، كما يزعمون، هو تدمير كل ما هو تقليدي أو قديم للصين من ثقافة أو حضارة من أجل إقامة الثورة الشيوعية وحدها على قاعدة خالية من الشوائب، وذكر إخواننا أن موجودات المسجد الأثرية الثمينة سلمت من التخريب والضياع بسبب وجود العمال المسلمين، لأنه لم يكن يستطيع أحد غيرهم من المسلمين الدخول إلى المسجد، أو أن يمس شيئاً،

وبخاصة إذا كان من المعروفين بأنه يعمل في الميدان الإسلامي.

ثم أعيد للمسلمين في عام ١٩٧٩م بعد أن قضى على الثورة الثقافية وسجن طغاتها من عصابة الأربعة الذين هم: (جن ياي تشين) زوجة الزعيم الهالك ماوتسي تونغ، وهي عضو في المكتب السياسي للجنة الحزب الشيوعي، و(وانغ هون ون) نائب رئيس لجنة الحزب الشيوعي المركزية، و(تشانغ شون جياو) عضو المكتب السياسي للجنة الحزب الشيوعي المركزية، ونائب رئيس مجلس الدولة، و(ناو ون يوان) عضو المكتب السياسي للجنة الحزب، ونائب رئيس مجلس الدولة.

ولا يزال الناس هنا، وبخاصة الإدارات الحكومية، تذكر عصابة الأربعة بأقبح النعوت، وقد حاكمتهم السلطة، وقضت على بعضهم بالسجن، ومات أحدهم فيه، وذلك لما ألحقوه بالصين وثقافتها العريقة من أضرار، ولما نال رجالها حتى من الشيوعيين الذين لا يشاركونهم آراءهم من إهانات.

ومن المعلوم أن الحكومة الصينية الحاضرة هي حكومة شيوعية لا تخفي ذلك، ولكنها تعد نفسها متساهلة في تطبيق الشيوعية، لأن مصلحة الصين تقتضي ذلك حسبما يقولون.

والواقع أن الأمر ليس كذلك، وإن كان في كلامهم عن مصلحة الصين في عدم التشدد في الأخذ بالنظام الشيوعي صحة، فإن السبب الذي يجعلهم متمسكين بالشيوعية هو الخوف من أن يفلت زمام الأمر من يد الحزب الشيوعي الذي يتزعمونه، وهو الذي يحكمون الصين

باسمه.



الزقاق الضيق قرب جامع تيانجين

وأما ما يتعلق بالمساجد في منطقة مدينة تيانجين وما يتبعها من قرى وأرياف فقد ذكروا أن عددها فيها جميعاً هو ثلاثة وثلاثون مسجداً، أعيدت كلها للمسلمين، كما قالوا، وإن كنت أعتقد أن هذه المساجد

الثلاثة والثلاثين هي التي أعيدت بالفعل للمسلمين، وأن هناك غيرها لم تتم إعادته إليهم، وإن كانوا يؤكدون على خلاف ذلك، وهم أعلم بأمورهم، ولكنني أخشى أن يكون في الحديث في بعض الحالات مجاملة لحكومتهم، أو تحسناً لسمعة قادتهم عندنا نحن المسلمين، أو مدحاً لهم على اعتبار أنهم الذين كان خلاص الشعب الصيني من طغيان الثورة الثقافية الشيوعية العمياء على أيديهم.

وذكروا أن في مدينة تيانجين نفسها ستة مساجد، كلها تحت الترميم والإصلاح بعد أن كانت الشيوعية قد استولت عليها، ثم أعادتها الحكومة الصينية الحاضرة للمسلمين، وهي في حالة من التخريب تحتاج معه إلى الترميم.

ومن طريف ما لاحظناه في المسجد وجود جرتين ضخمتين من الخزف القوي المزين بالأصباغ والنقوش، وهما مليئتان بالماء، ذكروا أنهما تكونان مليئتين دائماً بالماء من أجل مكافحة الحريق إن حدث في المسجد.

وقد كنت رأيت في زيارتي السابقة لقصر الشتاء الإمبراطوري قدراً ضخمة، ذكر الدليل أنها كانت تملأ ماء لتكون جاهزة عند حدوث أي حريق في القصر.

وقال الأخوة هنا إننا نبقى هاتين الجرتين مليئتين بالمياه، ونسقي منهما الزهور القريبة من باب المسجد، وهي كثيرة ظاهرة.

والفناء الخارجي للمسجد مفروش بحجارة البلاط، أي الحجارة المهذبة التي جعلت تبدو كأنها بلاط غير متلاصق، وهذه عادة قديمة في تبليط أرض الأماكن المهمة.

كما أن حيطان المسجد مبنية من الآجر، وإن كان الطلاء يخفيها، لأن الذي لم يخفه الطلاء هو الحجارة التي بنيت بها أركان المسجد وزواياه من أجل القوة.

غرفة تدريب الأئمة:

هكذا أسماها المرافقون كما كانوا يفعلون في تعريف أمثالها قبل ثلاث سنين عندما كان فتح المعاهد الدينية محظوراً في الصين.

وهي فصل دراسي في جهة من فناء المسجد يدرس فيه عدد من الشبان والرجال، كلهم عليه القلانيس (الطواقي) البيض والعمائم البيض أيضاً؛ بل هي ناصعة البياض مثل ثيابهم في هذا الفصل الصيفي مما يعطي منظرهم إشراقاً وبهاء لمن ينظره أول مرة.

ولكن الأهم من ذلك هو الكتب التي وجدناهم يدرسونها، وقد وقعوها أمامهم على مقاعد الدراسة، وهي نسخ من كتاب (شرح الوقاية) في الفقه الحنفي، وقد طبع في بكين.

أما الدرس الذي كتبه الشيخ المدرس على السبورة بخط عربي واضح فهو:

اعلم أن الأدلة السمعية أنواعها أربعة: قطعي الثبوت... إلخ.

وهذا أمر مفرح؛ بل حدث سار له معناه أن تعود دراسة الدين الإسلامي واللغة العربية إلى المسلمين الصينيين، أو يعودون إليها.

ولم يقتصر الأمر على هذا المظهر السار؛ بل إن اسم الدورة هذه قد كتبها بالعربية على بابها في لوحة قديمة لا تخلو من الركاكة، وذلك تحت اسمها باللغة الصينية التي لا أفهمها.



في فصل تدريب الأئمة في تيانجين

وهذا نص الاسم: « فرقة من المدرسة اللغة العربية الدين الإسلامي
تشن جن ».

وفي داخل الفصل خريطة للجزيرة العربية وحولها بعض البلدان
الإسلامية.

أرأيت معنى تمسك إخواننا المسلمين في بلاد الأقليات المسلمة
بدينهم، وأن معناه التعلق بلغتنا أيضاً، بل وحتى إظهار موقع بلادنا من
نفوسهم، إذ لم يعلقوا في هذه الغرفة مثلاً خريطة للصين، أو لمنطقة
تيانجين التي يسكنون فيها.

وهذا يوجب على العرب أن يتضامنوا جميعاً في نشر الدين الإسلامي، وتشجيع المسلمين في بلاد الأقليات المسلمة، ومساعدتهم على أمور دينهم، لأن في ذلك، فضلاً عن كونه قياماً بالواجب تجاه نشر الدين الإسلامي، نشرًا للثقافة العربية، وتوسعاً لرقعة اللغة العربية.

وقد استمر مدرس الفصل، والدورة كلها في هذا الفصل الواحد، وأظن أن فيه ما بين عشرين إلى خمسة وعشرين درساً، وهو يشرح الدرس بلغة عربية جيدة، وهو صيني مسن من أهل البلاد.

أما الدارسون فإنهم كلهم من الشبان.

ثم أطلعونا على مكان خاص للنساء يصلين فيه منفصلات عن الرجال في قاعة منفصلة عن المصلى الرئيسي للرجال، يفصل بينهما فناء مكشوف من فناء المسجد، وهي خلف المسجد من جهة الشمال الشرقي، لأن القبلة هنا إلى الجنوب الغربي كما هو معروف.

ومما يجدر ذكره أن مذهب المسلمين في أغلب أنحاء الصين هو المذهب الحنفي.

المطعم الجميل:

حان وقت الغداء، ولا بد من تناوله في مطعم من مطاعم المسلمين، فليس أي مطعم يصلح لذلك، كما تقدم.

وكان المطعم الذي سنتغدى فيه للمسلمين من قومية (خوي)، كما كتب عليه، والمراد أنهم الذين أقاموه بالتعاون مع إحدى المؤسسات الحكومية، أو هو أقيم لهم.



شارع واسع فيه السيارات في تيانجين

وجماعة (خوي) هم أكبر الجماعات الإسلامية في الصين، ويسمونهم قومية (خوي)، وهم المسلمون الذين يتكلمون الصينية، وهم قديمو الإسلام، ويقولون: إنهم ليسوا من المسلمين الذين ينتمون إلى جنس غير الجنس الصيني من ناحية اللغة، مثل الأيغور والقازاق وغيرهم من سكان تركستان الذين ينتمون إلى أصول تركية قديمة، أو تركستانية كما يقال الآن حين ينسبهم الناس إلى بلادهم المنسوبة إليهم، ومثل المغول والتبتيين.

وكلمة (خوي) - بإسكان الخاء في أولها، ثم واو مكسورة، ثم ياء كياء النسب، رجحت أن أصلها عربي، هو (أخوي) من الأخوة التي

تربط بين المسلمين، وليس هذا موضع الكلام على هؤلاء الإخوة المسلمين الصينيين، وإنما قد يأتي في موضعه عند الكلام على المسلمين في الصين إذا لم نكتف بما ذكرناه عنهم وعن غيرهم من المسلمين في الصين بما شرحناه في كتابنا: « داخل أسوار الصين ».

أول ما رأيناه من المطعم على البعد لافتة كبيرة كتب عليها اسمه بالصينية: « خوي فانغ لو » أي مطعم خوي الجميل أو اللطيف؛ إذ (خوي) هو ما شرحناه، وفانغ جميل أو لطيف، ولو: بناء. وعليه أيضاً كتابة عربية واضحة: (مطعم إسلامي)، وهي عبارة لا يكاد يخلو منها مطعم من مطاعم المسلمين، ولو كان صغيراً، وهي رمزية أكثر منها حقيقة؛ إذ لا يعرف المسلمون معناها، لأن الذي يعرف العربية منهم نادر، ولكنهم يعرفون إذا رأوا الحروف العربية أنه مطعم للمسلمين، بل إنها تجعلهم يطمئنون إلى ذلك أكثر مما تجعلهم الكتابة الصينية التي يفهمونها يطمئنون، وقد رأيت ذلك تقليداً لهم في كل مكان وصلنا إليه في الصين، وبعضهم إذا كان مطعمه صغيراً كالذي يبيع الطعام على عربة متقلة، يرسم عليه شعار المسلمين الهلال الذي تتوسطه نجمة، أو يكتب عليه البسمة ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ أو آية أو جملة صغيرة بالحروف العربية.

وهو مطعم كبير سعدنا إلى الطابق الثالث منه حيث وجدنا المائدة قد أعدت، ونحن سبعة، وهي من الموائد الصينية التي يوضع عليها مقدمات المائدة التي تكون باردة في أكثر الأحيان، أو تكون مما لا يضره البرد.

ويكون فوق مائدة الطعام المستديرة عادة قسم زجاجي أسود في

وسطها يستدير إذا حرك، وذلك لكي يتمكن الأكل إذا كان يريد الأخذ من صحن بعيد عنه من إدارة هذا القرص من المائدة الذي يكون عليه الصحن، حتى يصل الصحن إلى قربه، ويأخذ منه، وهكذا.

كما كان الطعام صينياً أصيلاً منوعاً؛ بل غريب الأنواع اشتمل على بضعة عشر نوعاً من الطعام، ولكن معظم الأنواع يأتون بها قليلة؛ لأنه لا يؤكل منها إلا قليل، إذ لا يستطيع الأكل أن يكثر من خمسة عشر نوعاً من الطعام مثلاً، مع أن المائدة قد تشتمل في العادة على أكثر من هذا العدد من الأطعمة.

سوق التينات التسع:

اللغة الصينية لغة شاعرة، أو لنقل: إن أهلها يعشقون الكنايات، والمجازات، وعبارات المجاملة، ذكرت ذلك عندما أخبرني الإخوة باسم سوق عام دخلناه بعد الغداء بينما كان السائقون يتناولون غداءهم في غير المكان الذي أكلنا فيه، وهو سوق عام، وإن لم يكن كبيراً قد جملوه بأن سقفوه على سعته بزجاج على هيئة غطاء الطبق في شكل جميل، وذلك لكونه واقعاً بجانب فندق ضخم مبني على الطراز التقليدي الصيني القديم الذي بنيت به قصور الأباطرة والملوك عندهم، وصبغوه بالأصبغة الفاقعة الألوان من أحمر إلى أصفر ذهبي.

واعتنوا بالمنطقة كلها فجملوها تجميلاً، لأنها معتبرة منطقة سياحية يحل فيها السياح من الأجانب، من ضيوف الدولة وغيرهم.

وهي تضم من بين ما تضمه مطعم المسلمين ذا المظهر الجميل الذي تناولنا فيه غداءنا؛ لأنه لا بد للمنطقة السياحية من مطعم إسلامي نظيف يأكل فيه المسلمون، ومن يتقززون من الطعام الصيني الذي يأكله

الكافرون منهم، ولو كانوا من غير المسلمين كأوروبيين.



سوق التينات التسع في مدينة تيانجين

وقد أخبرونا باسمه بأنه يقع على شارع التينات التسع، والتينات: تينة واحدة التين أخي الزيتون، ونطق ذلك بالصينية: (سيو لونغ).

نزهة في تيانجين:

كان البرنامج يشتمل على جولة في متزهات المدينة بعد الغداء مباشرة.

فكانت الفقرة الأولى فيها هي الوقوف على ضفة نهر (خوا هو) أحد الأنهار الخمسة التي تقع عليها تيانجين، ومعنى اسمه فيما أخبرونا

به: النهر البحري، وذلك أن مياهه تختلط بمياه البحر قبل أن تصل إلى الشاطئ فتذوب فيها.

وكنا قد سرنا في الطريق المحاذي له بالسيارة قبل أن نقف على ضفته، فكانت المناظر كلها تدل على مجد تجاري كان لهذه المدينة في من الأوقات، تدل على ذلك الأبنية العالية القديمة المتعددة الطوابق، وأكثرها إن لم تكن كلها على أطرزة غربية أوروبية، وليست على الطراز الصيني.



على ضفة النهر البحري في تيانجين

والسبب في ذلك أن المدينة كانت محتلة من تسع دول أوروبية في الفترة من عام ١٨٦٠ إلى عام ١٩٤٣م، وقد بقي من شواهد ذلك دار

للحكم الأجنبي كانت مقراً للإدارة المحلية الأجنبية في المدينة قبل أن يعود الصينيون إلى إدارتها.

ويمكن تلخيص ذلك فيما يلي حسب نشرة حصلنا عليها من المدينة:

لقد عانت مدينة تيانجين، من الاعتداءات الاستعمارية بشكل يكاد يكون متواصلاً، بل يمكن القول بأنها كانت أولى الضحايا للعدوان الأجنبي، وقد فرضت تسع دول ما يسمى « مناطق الامتيازات » في تيانجين ومعاهدات غير متكافئة، وما زال إلى اليوم في تيانجين ما خلفه المستعمرون من المباني الغربية الطراز المختلفة الأشكال، من الطراز القوطي إلى الطراز الروماني، وفن العمارة يتميز بالزخرفة البالغة، وقد راج ذلك في النصف الأول من القرن ١٨. فأطلق عليها «معرض المباني الدولية».

يعود تاريخ « مناطق الامتيازات » التي فرضها المستعمرون في تيانجين إلى ما قبل مائة سنة... آنذاك اعتدت القوات المتحالفة: إنجلترا وفرنسا، عام ١٨٩٠ على بكين، واضطرت حكومة أسرة تشينغ إلى فتح ميناء تجاري في تيانجين.

وفي نفس السنة، أقامت إنجلترا وفرنسا وأمريكا في تيانجين مناطق امتيازات خاصة لها، كانت في البداية محدودة لم تتعد مساحتها عشرات الهكتارات.

وفي عام ١٨٩٤م بعد الحرب الصينية اليابانية فتحت اليابان وألمانيا في تيانجين أيضاً مناطق امتيازات، كما وسعت إنجلترا، مستغلة هذه الفرصة، مناطق امتيازاتها حتى بلغت مساحتها حوالي ١٠٠ هكتار.



ضفة النهر البحري في تيانجين

ثم بعد دخول القوات المتحالفة للدول الاستعمارية الثماني عام ١٩٠٠م فتحت كل من روسيا وإيطاليا والنمسا وبلجيكا في تيانجين مناطق امتيازات، ووسعت إنجلترا وفرنسا واليابان في نفس الوقت مناطق امتيازاتها، وخاصة أن إنجلترا قد ضمت حينذاك ما كان تابعاً لأمريكا إليها، وتعدت مناطق امتيازاتها ٤٠٠ هكتار أوسع من غيرها، وهكذا أصبحت الأراضي الصينية على جنبي نهر هاخه الذي يخترق تيانجين مناطق متميزة للدول الثماني... الجانب الغربي من النهر لإنجلترا وفرنسا، واليابان وألمانيا، والجانب الشرقي من النهر لروسيا وبلجيكا وإيطاليا والنمسا، كانت هذه الدول تشتري الأراضي في مناطق

امتيازاتها، وتشيد المباني، وتقيم المتاجر والمخازن والبنوك، وتتشىء الموانئ والكنائس، كما أقامت فيها القنصليات، ومؤسسات الصناعة والتجارة والشرطة والمساكن والفنادق والأندية، ومعظم المباني تم تصميمها على يد المهندسين الأوروبيين، ومعالم المباني في المدن الأوروبية المختلفة.

ومنذ الأربعينات من هذا القرن، ونتيجة لأسباب متعددة، لم يجر ما يلزم من أعمال الترميم لهذه المباني، فأخذت تفقد ملامحها، وتتعرض للخراب، ولا سيما في غضون العشر سنوات من الاضطراب، «الثورة الثقافية» (عام ١٩٦٦ - ١٩٧٦م)، والهزة الأرضية في سنة ١٩٧٦م وتلوث البيئة.

ويمكن الاستفادة منها لتكون شاهداً لحقبة من التاريخ الصيني. نظراً لذلك، ولحفظ حضارة المدينة التاريخية، قررت حكومة مدينة تيانجين عام ١٩٨٤م إعادة ترميم هذه المباني الغربية الطراز. وفي بداية عام ١٩٨٤م شرعت حكومة تيانجين في عمليات الترميم الشامل للمباني الغربية الطراز الواقعة في عشر طرق داخل مناطق الامتيازات، منها خمس طرق مشهورة في تيانجين.

وبعد انتهاء هذه العمليات رمت ٤٠ شارعاً، وبلغ عدد المباني التي تم ترميمها حوالي ألفي بناء، فتغيرت بذلك معالم المدينة تغيراً كاملاً.

فمن المباني الغربية الطراز التي تم ترميمها محطة السكك الحديدية في غربي تيانجين، التي بنيت في عام ١٩٢٠م، وتتميز بأسلوب العمارة الألماني في العصور القديمة والوسطى، أما العمارات الغربية الطراز في جوانب الطرق الخمسة المذكورة، فهي متنوعة الأشكال،

تجسد خصائص المباني في تيانجين قبل قيام الصين الشعبية عام ١٩٤٩م، وبالإضافة إلى ذلك هناك نوع من المباني يعكس ما تتميز به الدول الغربية التي بنتها من خصائص الفن المعماري، والتكنولوجيا، مثل شارع التحرير الشمالي شارع وول ستريت في تيانجين، طوله كيلو مترين، وفيه ٧٨ مبنى، تم بناؤها في الفترة ما بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكانت للمتاجر والبنوك، وقد أصبحت اليوم مقر البنك الشعبي في تيانجين وفرع البنك الصيني في تيانجين ونقابات عموم تيانجين.

هذه المباني تتميز بأساساتها المبنية بالأحجار الكبيرة الحجم، وتكون حجرها واسعة، وذات أعمدة أيونية الطراز - نسبة إلى أيونيا على الساحل الغربي -، وكذلك المكتبة الشعبية في تيانجين التي كانت مقر أحد أجهزة فرنسا في مناطق امتيازاتها في المدينة يتميز بالفن المعماري ومواد البناء المناسبة.

وقد وقع الغزاة اليابانيون على الاعتراف بالاستسلام عام ١٩٤٥م أمام بابها، لذلك صارت لها مكانة خاصة في نفوس الصينيين.

هذه المباني الغربية الطراز، علاوة على مظهرها الجميل، تحمل مغزى حضارياً وتاريخياً لما ذكرناه، وقد ظلت سليمة تمكن الاستفادة منها حتى اليوم.

تاريخ تيانجين:

كانت (تيانجين) بقعة من الأراضي الساحلية البحرية قبل عهد أسرة (يوان) الحاكمة من عام ١٢٧١م حتى عام ١٣٨٦م، وكان اسمها (تشيقو).

ثم بعد أن اتخذت أسرة (يوان) عاصمتها في « دادو » (بكين الحالية) أصبحت « تشيقو » محطة لتفريغ وتخزين حمولة السفن التي تنقل الحبوب من جنوب الصين عن طريق البحر إلى هذا المكان مفرق نهر هايبو والقناة الكبرى، ثم تنقل الحبوب من الجزء الشمالي من القناة إلى العاصمة.

وفي عام ١٣٢٦م بنت حكومة أسرة يوان في «تشيقو» قصر « حورية البحر » التي تدعو بزعمهم للسفن بالسفر الميمون، وكانت تقام مظاهرات وتعرض مسرحيات أيام تقديم القرابين، فيتردد الناس إلى «تشيقو» من مناطق بعيدة لمشاهدة المسرحيات، أو القيام بالتجارة، فأصبحت « تشيقو » تدريجياً مدينة بشكلها الأولى.

وفي عام ١٤٠٠م في أوائل عهد أسرة كينغ مر تشودي أمير « يان » بمنطقة شمالي الصين مع جيشه من هذا المكان إلى نانجينغ؛ حيث أقام السلطة من أسرة مينغ، فأطلق على هذا المكان « تيانجين » بمعنى المكان الذي مر به «ابن السماء» بدلا من اسمه القديم « تشيقو ».

وبعد أربع سنوات من ذلك، أقامت أسرة مينغ مدينة تيانجين ووضعتها تحت الحراسة لدعم هذا المدخل من البحر إلى بكين. كانت المدينة تقع في غرب قصر «حورية البحر»، ومنذ مئات السنين كان الشارع الضيق أمام القصر مركز بيع الأعمال اليدوية الفنية، مثل التماثيل الصلصالية، والطائرات الورقية، ورسوم العام الجديد، ولعب الأطفال، وميدان تبادل البضائع، وسكان تيانجين يرون أنه من المؤسف ألا يزوروا قصر حورية البحر في عيد رأس السنة الجديدة.

وبعد قيام الصين الشعبية عام ١٩٤٩، لقي القصر عناية خاصة من

قبل الحكومة الشعبية، ولكن انتهت فيه النشاطات الشعبية المختلفة، وفي « الثورة الثقافية الكبرى » انهدمت قاعة القصر كما كسر تمثال الحورية إلى أن قررت الحكومة في السنوات الأخيرة إعادة بناء القصر والنشاطات الشعبية المختلفة فيه.

وفي رأس السنة الجديدة لعام ١٩٨٦، تمت إعادة بناء قصر « حورية البحر »، وشارع الثقافة الشعبية الذي طوله ٦٨٠ متراً، وعرضه ٧ أمتار، وبجانبه نحو مائة حانوت مبنية على شكل بناء شعبي صغير من عهد أسرة تشينغ، هذه المباني تتكون من الجدران الرمادية والأعمدة الحمراء، وعلى أفاريزها رسوم ملونة عن قصص الشخصيات القديمة، والجدران مزينة بحوالي ٥٠٠ من الطوب المنحوت المشهور، كما تعلق على واجهاتها لافتات كتبت عليها أسماء الحوانيت التي غالباً ما تكون كلاسيكية، وعلى بعض واجهاتها مقطوعات شعرية تصف أحوال تيانجين في الزمن القديم، وتباع في هذه الحوانيت، إضافة إلى الأعمال اليدوية الفنية، أدوات الكتابة والتحف ولوحات الرسوم والخط والخزفيات ومنتجات الأحجار الكريمة إلخ. ولكن معظم ما يباع فيها من الحاجيات اليومية.

ومع إعادة بناء القصر صنع تمثال « الحورية » من جديد، وأصبحت القاعات الملحقة متحف عادات أهل تيانجين، وأمام القصر الجديد عمودان قديمان للعلم وجوسق « تشانغ شيان » الذي يعود إلى ٢٠٠ سنة، ومسرح جديد.

كلها زادت من الملامح المحلية لشارع الثقافة، وبعد الخروج من المسرح، وعبر الشارع يمتد نهر هايشه حيث تمخر السفن السياحية

سطح المياه التي تتعكس فيها صور الأبنية الشاهقة بجانب النهر.
انتهى.

فيضان الدراجات:

والدراجات الكثيرة التي تسير بهدوء على جانبي الشارع لا تقترب
من وسطه لأنه مخصص لسير السيارات القليلة؛ مثلما هو عليه الحال في
شوارع بكين الواسعة.



موقف الدراجات في حي راق في تيانجين

وكنا نرتدي الملابس العربية، لذلك عندما سرنا على ضفة النهر
بعد أن نزلنا من السيارات، كان الناس يلتفون حولنا، وبلغت بعضهم
أبصار الذين لم يلاحظوا وجودنا إلى ذلك المنظر الغريب على أبصارهم،
وربما كان غريباً أيضاً على بصائرهم، بمعنى أنهم لم يكونوا

يتصورون اللباس العربي الكامل، لأن العرب الذين يأتون إلى بلادهم يرتدون في الأغلب الملابس العالمية المسماة بالإفريقية.

وسبب آخر، وهو قلة الأجانب بوجه عام الذين يأتون إلى بلادهم، وأغلبهم إنما يأتون جماعات جماعات من السياح، قد رسم لهم خط يقودهم إليه دليل من أهل البلاد ولا يختلطون بالناس.

ومن الطبيعي أن نقول إن اللباس العربي على غرابته لم يكن وحده الذي يشد أبصار الناس إلينا، ويجعلهم يعرفون أننا غرباء، وإنما ذلك في تقاسيم الوجوه، إذ لاحظت أيضاً أننا حتى إذا كنا نلبس اللباس الأفريقي نرى طوائف من الناس وبخاصة من النساء يحملون فينا، ويستغربون اللحن في وجوهنا.

ونحن نتفرح برؤيتهم أيضاً، وبخاصة في المتزهات.

مقياس الجمال:

كان من بين المتزهين متزهات كثيرات، وكان المجال مفتوحاً لرؤية ظاهر أمرهن، فرأنا بعض الإخوة الصينيين المرافقين لا تقتصر في نظرنا إلى الأمور المصنوعة أو المطبوعة مما هو خارج عن خلقة بني آدم، وإنما ننظر أيضاً إلى وجوه الناس بدافع الفضول الذي يكون لدى السائح عادة، فظن أننا نخص الجمال بالنظرات الفاحصة، فقال: إن مقياس الجمال في الصين هي: سعة العين، وضيق الفم، والخصر النحيف، ولم يقل النحيل.

وقلنا له: إننا لم نر عيوناً واسعة في الصين، إلا ما يعده الصينيون أنفسهم واسعاً منها، ونحن لا نعهده كذلك، وإنما يختلف ضيق العيون

فيها من شديد إلى أشد.

وأما ضيق الفم فإنه هو الغالب في الصين، ولا أذكر أنني رأيت شخصاً في الصين أقول: إنه واسع الفم بالمقياس الذي نعرفه للفم الواسع في بلادنا وما أشبهها من بلدان السمر، وإنما يختلف الضيق أيضاً عندهم من ضيق شديد محبوب إلى ضيق يسمونه سعة في الفم، ونحن لا نسميه كذلك.

وأما النحافة أو الخصر النحيل، فإنه الغالب على الجيل الشاب في الوقت الحاضر في الصين، وذلك بسبب الوعي الصحي، والغذاء المتوازن والشعور بأن الثقل في الأجسام يورث الأسقام، ويبعد رفيق الأحلام.

ولكن هناك في الصين أشياء، أو لنقل بصراحة في بعض الصينيات أشياء لا يراها أمثالنا من الجمال، مثل بروز الفم، أو نتوء الوجنتين، أو عدم التناسب بين طول الوجه وعرضه.

وشيء مهم آخر لم يذكره الأخ الصيني الذي تكلم على مقاييس الجمال في بلادهم، وهو الأنف المرتفع، أو الأذن كما كان أسلافنا يعبرون عنه، وحتى العوام في بلادنا كانوا إذا وصفوا غانية بالجمال ذكروا أن أنفها واقف كأنه سلة سيف، أي دقيق واقف مستقيم.

فهذا عزيز في الصين، بل يكاد يكون معدوماً في الأصلاء والأصيلات منهم.

على أن الجمال، أو عدم الجمال هو من الأمور النسبية التي تختلف عندها أذواق الشعوب، فيرى شعب أن ما هو جميل عنده هو غير جميل عند غيره.

وما دمننا في الصين، فإنه يمكننا أن نأخذ منها مثلاً نعرفه لهذا الأمر، وهو ما كان شائعاً في الصين في الزمن الماضي، وتلاشى الآن، من تفضيل القدم الصغيرة على القدم المعتادة للفتاة إلى أن الأمهات كن يجعلن أقدام بناتهن في قوالب من الحديد وهن صغيرات حتى لا تأخذ أقدامهن حجمها الطبيعي، فلا يرغب فيهن الأزواج؛ إذ الأزواج يرون أن من أهم الجمال في أقدام المرأة أن تكون صغيرة.

وكانت وقفة النهر للترحج برؤيته ورؤية من يمرون حوله، وأذكر أنني رأيت كناسة، وهي فتاة تكنس الشارع، لكنها متأنقة، وقد أوقفت دراجتها بجانبها، وعلى رأسها قبعة بيضاء عريضة جميلة، تحتها ثوب من قماش أبيض في غاية النظافة؛ بل والأناقة، وفي يديها قفازات من قماش أبيض أيضاً. ويدها مكنسة طويلة من القش، عندما فرغت من كنس جزء من الشارع أخذت الكناسة - بضم الكاف وتخفيف النون - وهي القمامة بيدها فجمعتها في صندوق صغير من الورق المقوى، ثم أردفتها على دراجتها ومضت.

وهذا من عجائب الصين، يضاف إلى ما لاحظته في الزيارة الأولى، وفي هذه الزيارة أيضاً من كون الفلاحين العمال تبدو ملابسهم في نظافة ملابس سائر الناس، ولا تكاد تجد فيهم من ثوبه متسخ، أو مهلهل أو ذو مظهر رديء، بل لا تجد حتى ولو تطلبت ذلك في الصينيين كلهم من يكون متسخ الثوب، أو زري المظهر على فقرهم ورقة أحوالهم.

ولاحظت ونحن نقف عند إشارة للمرور في الشارع أن الشارع قد امتلأ بالدراجات الواقفة، ولم يكن بينها سيارة واحدة، وركابها من سائر الأعمار، فلما فتحت لهم الإشارة اندفعوا بدراجاتهم كالسيل، إلا

أن ذلك تم بهدوء ودون أن يزعج بعضهم بعضاً، أو يزعجوا المارة؛ لأنه لا أصوات ولا أدخنة لهذا السيل من الدراجات.

حديقة فوق البحيرات:

ذهبنا إلى حديقة اسمها (شوي شانغ) ذكروا أن ذلك يمكن أن يترجم إلى: (الحديقة فوق البحيرات)، أو الحديقة المعلقة فوق البحيرات، وقلت أنا لماذا الإكثار من الكلمات في تفسير كلمتين اثنتين، فلا نجعلها (حديقة البحيرات)؟

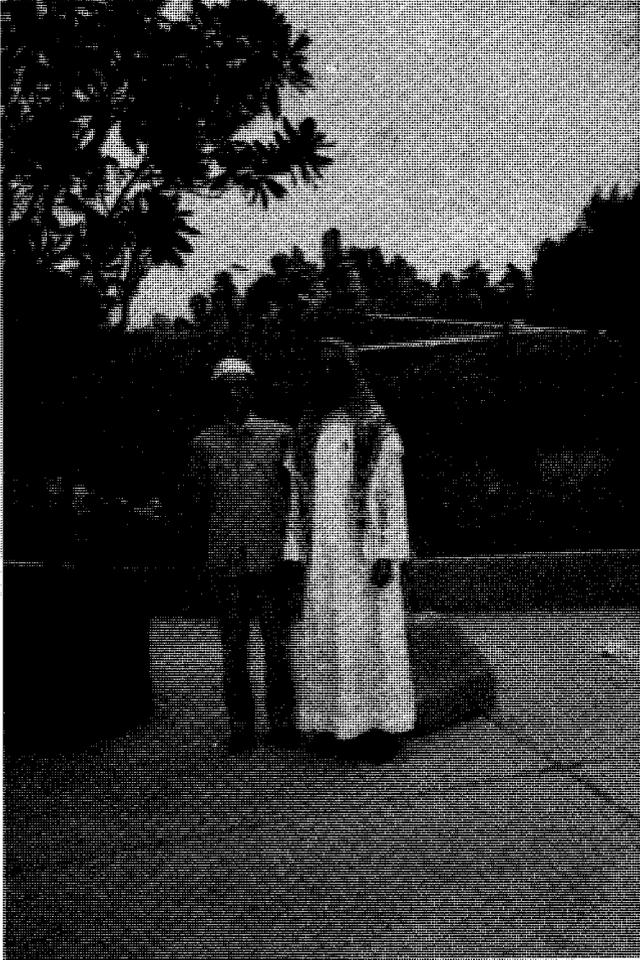
فقالوا: لأن الأمر مختلف هنا، فهي فوق البحيرات، بمعنى أنها تطل عليها.

ودخلنا الحديقة فرأينا أول ما رأيناه فيها طوائف من الناس يصطادون السمك من إحدى البحيرات التي تقع عليها الحديقة، ويقولون: إن إدارة الحديقة تتقاضى رسماً معيناً على من يصطاد مقداراً من السمك، فإذا اصطاد مثلاً سمكة كبيرة لا بد من أن يدفع مقابل ذلك جزءاً مما يعتبر ثمناً لها فيما لو اشتراها، ولكن لا يبلغ ثمنها الذي تباع به في السوق.

وقد استغلوا وجود هذه البحيرات، فنظموها على أشكال مختلفة، وفي الحديقة أبراج مختلفة قد أقاموها على الطراز الصيني من البناء الذين يتفننون في تزيينه وترتيب سقوفه، وما يكون منها على الحيطان ضافياً، وهي أي السقوف من أخشاب البامبو، وهو القصب الضخم الذي ينمو في البلدان الاستوائية، والبلدان المطيرة الرطبة غير البعيدة من خط الاستواء، وهو الذي يأكل الصينيون من جذوره، يستعملون ذلك لما تستعمل له الخضرات كالبااميا والقرع، إلا أن أعمدة هذه الأبراج

الصينية من الحديد.

وهناك زهور محدودة العدد مع أنهم لو أرادوا زيادتها وتوسعها
لكان لهم من طبيعة الأرض ورطوبة الجو واعتداله في هذا الفصل من
السنة ما يمكنهم من ذلك.



أمام ساعة الزهور في حديقة تيانجين مع نعمان ماشي أن

وفيما يتعلق بالبحيرات التي سميت الحديقة على اسمها، فإنهم ذكروا أنها أربع كبيرة.

ومن الطريف في هذا الأمر تمثال من الأسد الصيني المشهور، وهو لأسد مشوه الخلق طبقاً لأساطير صينية قديمة، وكان القدماء يضعون تماثيلهم لهذا الأسد عند مداخل الأبنية المهمة كالقصور والمعابد يزعمون أنها تحرسها، ولكن الصينيين المتأخرين الذين لا يؤمنون بهذه الخرافات قد جعلوا هذه التماثيل الأسدية التقليدية على أوعية القمامة، وهي فاتحة أفواهاها يلقي الناس النفايات فيها بديلة عن أن تحرس الأشياء من أن يأخذها الناس.

وأهم ما يلاحظ هنا في مياه البحيرات أن أجزاء منها مليئة بأعشاب مائية ذات زهور قليلة، أخبرني إخواني أنهم يستفيدون منها زهوراً جميلة، وبذوراً من بذورها يأكلونها، إذ يضعون معها السكر ويقدمونها على المائدة تكون بمثابة الحلوى، وهي مع ذلك تقوي الجسم، وتعين الشيخ على تذكر صباه، كما قالوا.

وهذا عجب من أمر الصينيين أن يهتدوا إلى الانتفاع بما لا ينتفع منه غيرهم نتيجة لتجارب أوائلهم التي يستفيد منها أو آخرهم.

وفي الحديقة أزقة طويلة مسقوفة، مقامة من أخشاب البامبو، وفيها مقاعد على هيئة صف من أخشاب البامبو كأخشاب الدقيقة يجلس عليها الناس، ويستظلون بها، ولكنها أيضاً تضيء على الحديقة مسحة فنية وطنية؛ إذ نقشوها بنقوش صينية تقليدية.

وقد تجولنا في هذه الحديقة الواسعة التي هي حديقة نباتية، وليس فيها حيوان أو غيره، وإنما يمضي الناس فيها أوقات فراغهم في جو

أخضر جميل منسق، وإن كان التسسيق دون ما رأينا أنها تستحقه بمباهجها وأشجارها ونباتها.

العودة إلى جامع تيانجين:

لم نطل المكث في هذه الحديقة، وإنما عدنا أدراجنا إلى المسجد الجامع لأداء صلاة الظهر والعصر، وكان الإخوة قد سبقونا إلى ذلك لكوننا قوماً سافراً، فوجدناهم قد نصبوا موائد الشاي الصيني والفاكهة في القاعة التي كنا فيها قبل ذلك فشرينا الشاي، وكانت بنا إليه حاجة، ثم صلينا الظهر والعصر جمعاً وقصراً، وقدمنا هدية رمزية لإمام المسجد الشيخ محمد يوسف، والأخ محمد كانغ ده شو الذي رافقنا معه، وهي مصحف مذهب كريم من طباعة المدينة المنورة، وسجاد للصلاة من صنع المملكة العربية السعودية.

ثم ودعنا أهل تيانجين من الإخوة المسلمين، ومعهم طوائف من أبناء هذه المدينة تجمهروا على سياراتنا عند التوديع؛ لأنهم رأوا ثيابنا العربية الغربية فجذبتهم، فأخذوا يتفرجون برؤيتها، ونحن نتفرج برؤيتهم؛ بل أخذنا نصورهم ونصور الشارع العريض الذي يفضي الزقاق المتفرع منه إلى المسجد، كما صورنا بصفة خاصة قباب المسجد اللاطئة التي يصح أن تسمى سقوفاً لا قباباً؛ لأنها على الطراز الصيني القديم الذي لا يعني بالقباب الكاملة التقريب، كما صورنا برج رؤية الهلال في جامع تيانجين، وذلك لكونه كان عند بناء المسجد أعلى بناء موجود في المنطقة؛ لأن معظم البيوت فيها كانت تتألف من طابق واحد، فكان القوم يصعدون إليه لتحري الهلال عند دخول رمضان أو خروجه، وأما الآن فإن ذلك أصبح مجرد ماضٍ مائل للعيان، إذ ارتفعت الأبنية في

المنطقة، وإن تكن لحسن الحظ لم تصل إلى المسجد، ولم تخف معالمه؛ بل لم تقترب منه.

ثم غادرنا مدينة تيانجين في نحو الخامسة عصراً عائدين إلى بكين.

يوم الجمعة: ١٦/١٠/١٤٠٧هـ

مقابلة وزير الأديان:

وقد يسمونه رئيس مصلحة شئون الأديان، وهو على أية حال بمرتبة وزير في الحكومة المركزية للصين، وسبق أن قابلناه في زيارتنا الأولى، وأقام لنا حفلة عشاء في قاعة الشعب في بكين، وذكرت ذلك عند الكلام عليه في كتاب: « داخل أسوار الصين ».

واليوم أزيد الأمر إيضاحاً في سبب وجود وزارات للشئون الدينية، أو لشئون الأديان كما يعبر عنها بعضهم، وإن كان الفرق بين التعبيرين طفيفاً في البلدان الشيوعية خاصة.

فمثلاً لا توجد في البلدان الديمقراطية الغربية الحرة وزارات لشئون الأديان، مع أن تلك البلدان لا تعادي الأديان بحكم نظامها، بمعنى أنها لا تتبنى سياسة الإلحاد التي تتبناها الحكومة الشيوعية، ولكنها أيضاً لا تقوم على مساعدة الأديان.

بخلاف البلدان الشيوعية الملحدة، ففيها وزارات لشئون الأديان، تتفق عليها الدولة النفقات، وتجعل على رأسها من هو كفاء ضدها من رجالاتها في الإدارة، و ضبط الأمور، وتكون له رتبة الوزير حتى وإن لم يسم وزيراً في بعض البلدان كما في الاتحاد السوفيتي.



مع وزير الشؤون الدينية أثناء الاجتماع في مكتبه في بكين

والسبب في ذلك هو حرص الحكومات الشيوعية على السيطرة على الأديان في البلاد، ومراقبة القائمين عليها عن طريق الاعتراف بوجودهم وجذبهم إلى جانب الدولة من أجل أن يؤيدوها في سياستها، أو على الأقل ألا يعارضوها في ذلك.

والقائمون على شئون الأديان يقولون: إنهم مضطرون لمسيرة الدولة الشيوعية؛ لأنهم بدون ذلك لا يستطيعون القيام بأي عمل إسلامي لأن طبيعة النظام الشيوعي أن يحصر كل نشاط في البلاد بأتباعه، أو بمن يتعاونون معه على اختلاف بين الدول الشيوعية في هذا الأمر، مثل غيره من كثير من الشئون.

والصين الشعبية من هذه الدول الشيوعية التي أنشأت وزارة مهمة لشئون الأديان من أجل السيطرة على الحركات الدينية في البلاد، ولكنها - والحق يقال - هي من أخف الدول الشيوعية قبضة على الدين انسجاماً مع سياسة التراخي الشيوعي العامة في البلاد، ومن أجل كسب الدول والشعوب الإسلامية في خارج الصين التي تحتاج الصين إلى التعامل معها في التجارة والصناعة والعلاقات الاقتصادية.

ذهبنا إلى وزير شئون الأديان في الثامنة والربع من هذا الصباح، والعمل في الدوائر الحكومية في الصين يبدأ في الثامنة، ووصلنا إليه مع حلول الثامنة والنصف الذي هو الموعد المحدد للمقابلة في الأصل.

استقبلنا الوزير عند مدخل قاعة متوسطة للاجتماعات في مقر الوزارة قد صفت أمام مقاعدها موائد عليها الفاكهة المتنوعة من البطيخ الأخضر الذي هو الجح أو الحجب عندنا، والموز والتفاح، وأنواع من الحلويات، والكمكات اللينة (الكيك)، ومع ذلك كله الشاي الصيني التقليدي الذي صفوا أكوابه الخزفية الثقيلة على الموائد مغطاة بأغطيتها الصينية - أي الخزفية - المعروفة.

استقبلنا الوزير (رين وو جي) بمظهره المتواضع المعروف لنا قبل ثلاث سنوات، وجسمه النحيل، ووجهه المعروق، وإن كان تحت ذلك الدواهي من الذكاء الخارق، والعقل المدبر.

وعندما اطمأن بنا المجلس في القاعة، وكان مصورو الصحافة والتلفزة يصورون اللقاء كله، تكلم الوزير، فذكر لنا كل ما كان قد دار بيننا وبين إخوتنا في الجمعية الإسلامية الصينية، وحتى ما كان بيننا وبينهم من مراسلات قبل ذلك، وتبين أنهم يطلعونه على كل شيء،

إن لم نقل إنهم يستوحون موافقته على الأشياء قبل أن يوافقوا عليها، حتى ما دار بيننا وبينهم بالأمس، وقال من بين ما قاله: لقد أوعزنا للجمعية الإسلامية بتوثيق العلاقات مع رابطة العالم الإسلامي بشكل أوسع؛ لأن ذلك من شأنه أن يساهم في توثيق العلاقات بين الشعب الصيني وبين شعوب العالم الإسلامي عامة، وبين شعب المملكة العربية السعودية خاصة.

وهذه خلاصة حديثه، وما رددت به عليه:

رحب الوزير بزيارتنا الثانية لمسلمي الصين بعد الزيارة الأولى التي كانت في عام ١٩٨٤، وقال: يسعدني أن أسمع بأنكم اجتمعتم بمسؤولي الجمعية الإسلامية الصينية لمناقشة بعض المواضيع، وأنكم تسافرون إلى خارج بكين لزيارة بعض المناطق الإسلامية، ولا شك أنكم تجدون الحفاوة والترحيب من الإخوة المسلمين في كل مكان.

فأجبت بالشكر على الترحيب، ثم أشرت إلى تحسن أوضاع المسلمين، وعودة بعض المساجد التي صودرت قديماً إلى المسلمين، والسماح ببناء مساجد جديدة، كما أن أعداد الحجاج الصينيين تتزايد سنوياً، فقد وصل عددهم إلى أكثر من ٢٢٠٠ حاج في العام الماضي، وكذلك سررنا عندما علمنا بأن ستة أو ثمانية معاهد إسلامية تم افتتاحها لإعداد جيل جديد من الأئمة يحل محل الشيوخ في إمامة المساجد عندما يتقاعدون، وهذه أخبار طيبة ليس لنا فقط؛ بل لجميع المسلمين في العالم تنقلها الرابطة إليهم عبر الجمعيات والهيئات التي تتمثل فيها، وتساعدنا على ذلك العلاقة الوثيقة بين الرابطة والجمعية الإسلامية الصينية.

إن بعض الناس يظنون أن الدين الإسلامي يقتصر مفهومه على العلاقة بين الإنسان وخالقه، ولكنه أيضاً ثقافتنا وتاريخنا الذي نعتز به، وأي معاملة طيبة وعلاقة ود تجاه الدين الإسلامي وتجاه المسلمين في بلدان غير إسلامية نعتقد أنها علاقة ود وصداقة لكل المسلمين، ونحو الرابطة والمملكة العربية السعودية.

لذلك كنا نتابع الخطوات التي قامت حكومة الصين بها نحو تحسين معاملة المسلمين، والإسهام في ترميم بعض المساجد الأثرية، وهذا يدل على الاهتمام بالمآثر التاريخية التي تدل على قدم صلوات المسلمين بالصين، وقد أخبرنا الإخوة الصينيون بأن الحكومة الصينية والشعب الصيني، ينظرون إلى الدين الإسلامي على أنه دين عريق دخل الصين منذ أكثر من ١٢٠٠ سنة، وتأسل في المجتمع الصيني من خلال العلاقات التجارية والثقافية مع العالم الإسلامي، وعاش المسلمون بحرية وتسامح ومساواة مع الشعب الصيني على مدى القرون.

وقد علمنا أن تعاون الرابطة مع الجمعية الإسلامية الصينية في النطاق الثقافى أمر تريده وتوافق عليه الحكومة الصينية، فنأمل أن نصل إلى تفاهم واتفاق مع المسؤولين في الجمعية الإسلامية في موضوع الدورة التدريبية لأئمة المساجد الذي جئنا لأجله، ونحن نشكر المسؤولين والجمعية على الترحيب الذي لقيناه هذه المرة، وفي المرة السابقة.

فردّ وزير شؤون الأديان قائلاً: يسرني كل السرور أن أستمع إلى كلمات الشيخ محمد بن ناصر العبودي هذه الكلمات الطيبة، ومن خلال الزيارتين فقد عرفتم واطلعتم على سياسة الحكومة الصينية نحو الأديان، كما عرفتم أحوال المسلمين.

وأعتقد أن التفاهم والزيارات المتبادلة أساس لتطويع علاقات الصداقة والأخوة بين الشعوب والبلدان، ويسرني أن نرى في هذه السنوات الأخيرة أن علاقة الرابطة والجمعية الإسلامية الصينية تطورت تطوراً كبيراً، كما أن العلاقات الودية بين الشعب الصيني والشعب السعودي توثقت، والجدير بالذكر أن الرابطة لعبت دوراً بارزاً في توطيد علاقة الشعب الصيني مع الشعوب الإسلامية والعربية.

ويسعدنا أن نعرف أن الحجاج الصينيين يجدون الحفاوة والمساعدة من الرابطة والحكومة السعودية، كما أن الرابطة تستضيف سنوياً بعثة الحج الصينية، وتجد الحفاوة والترحيب من الرابطة والحكومة السعودية.

وأفدكم على ما ذكرتم بأن التعاون والتبادل بين المسلمين الصينيين والرابطة جزء من الاتصالات الثقافية بين الشعب الصيني والشعوب المسلمة، وأود أن أنتهز هذه الفرصة لأعبر لكم عن شكري لحكومة المملكة العربية السعودية والرابطة لما تقدمه من مساعدات عظيمة للحجاج الصينيين في موسم الحج.

وأظن أن هذه العلاقة الطيبة بين الشعبين: السعودي والصيني، والرابطة والجمعية لا بد أن تتطور وتوثق أكثر في المستقبل، وخاصة أن الصين والبلدان العربية هي من ضمن دول العالم الثالث التي تناضل ضد الإمبريالية، ونعمل جميعاً لبناء أوطاننا.

من المؤكد أن سياسة التسامح نحو الأديان هي سياسة ثابتة لحكومتنا، ولن تتغير على المدى الطويل، ويتمتع بها مسلمون ينتمون إلى عشر قوميات أقلية، ونساعدهم على ترميم وبناء مساجدهم ومعاهدهم،

ونساعدهم على تطوير التعليم والثقافة، ورفع المستوى الاقتصادي لهم ولأقاليمهم المسلمة.

ثم قال: من المعروف أن حكومة الصين الشعبية تتبنى سياسة الانفتاح على الخارج، وإصلاح النظم الداخلية بهدف تحقيق التحديث وازدهار الدولة، ورفع مستوى معيشة الشعب، ومنهم المسلمون، وعدد سكان الصين كبير، ولا تزال دولة نامية، وتحقيق تلك الأهداف يحتاج إلى مزيد من الجهد والوقت، وربما في بداية القرن القادم تصل الصين إلى مستوى متوسط، وفي سبيل تحقيق ذلك نريد أن نبدأ بوضع أسس التضامن والاتحاد بين أفراد الشعب الصيني والأقليات القومية والمؤمنين وغيرهم لبناء الوطن.

وتعمل الحكومة على تحقيق سياسة الاعتماد على النفس والسيادة، كما توصى بتطوير التعاون مع مختلف البلدان والهيئات العالمية، وقد شجعت الحكومة الصينية الجمعية الإسلامية الصينية على توثيق وتطوير علاقاتها مع رابطة العالم الإسلامي لما تتمتع بها هيئتكم من مكانة عالمية بارزة.

وأعتقد أن قدوم الشيخ محمد بن ناصر العبودي للتباحث مع الإخوة في الجمعية حول إقامة ملتقى الدعوة والدعاة في الصين يدل على التقدم المستمر في التعاون بين الرابطة والجمعية، ونرجو أن تتوصلوا إلى تفاهم كامل لإقامة الملتقى بصورة حسنة.

إن مصلحة شؤون الأديان هي إدارة حكومية مسئولة عن شؤون الأديان، وهدفها الرئيسي مساعدة الحكومة على تنفيذ سياسة حرية العقيدة كما نص عليها الدستور.

وهي مسؤولة عن تنفيذ وتطبيق مشاريع الدولة في مجالات النشاط الديني، وتقدم المصلحة الخدمات المطلوبة للمسلمين الصينيين، وبالنسبة لإقامة الملتقى ستقدم المصلحة التسهيلات والمساعدات اللازمة.

وأعتقد أن زيارة الشيخ محمد بن ناصر العبودي هذه المرة ستدفع بعملية العلاقة إلى المساهمة الفعلية لإقامة ملتقى الدعوة والدعاة بالتعاون والتنسيق بين الرابطة والجمعية، وسيوثق هذا العمل الصلة بين مسلمي الصين والمسلمين في المملكة العربية السعودية وفي العالم.



**المؤلف يقدم إلى رين ووجي رئيس الشؤون الدينية التابعة لمجلس
الدولة الصيني عباءة عربية هدية**

وقد رددت عليه مرة أخرى بالشكر على شرحه وإيضاحه، وعلى ما جاء في حديثه بأن مصلحة شؤون الأديان بالنيابة عن الدولة تؤيد إقامة

ملتقى الدعوة والدعاة بالتعاون مع الرابطة.

ثم قلت: لقد سبق أن عقد اتفاق، وجرت مكاتبة بخصوص عقد دورة تدريب للأئمة والدعاة، وذلك جرياً على عادة الرابطة في إقامة دورات تدريب للأئمة يتم تعريفهم بأمور الصلاة وأحكام صلاة الجنازة، وإرشاد الكبار بمبادئ الإسلام، وتلقين الأبناء تعاليم الدين، ولا يعني هذا أنه لا يوجد لهم معاهد أو دورات هنا، كما لا يدل على أنهم لا يعرفون شيئاً، ولكن طبعاً للمزيد، كما تعمل جميع المؤسسات والهيئات على توسعة مدارك منتسبيها، ونحن مثلاً نرى الأطباء يتلقون دورات علمية فترة بعد فترة لمواكبة تطور العلم ومنجزاته الحديثة، ويسعدنا أن نتعاون مع الجمعية الإسلامية الصينية لإقامة الملتقى والدورة، ولكن إذا رأيت مصلحة شئون الأديان والجمعية الإسلامية الصينية أن ملتقى الدعوة والدعاة يحقق المصلحة، ويحقق التعاون المنشود لخدمة المسلمين، فإننا نرى أن نتفق مع الجمعية الإسلامية على كافة تفاصيل الملتقى وموعد عقده.

وقد علق وزير شئون الأديان على كلامي بقوله: إن إقامة الملتقى أو الدورة يمكن أن يتم الحديث فيهما مع الجمعية الإسلامية الصينية، وإتمام المحادثات معها، ونرجو أن تنمو العلاقات الودية بين الجمعية والرابطة دوماً وباستمرار، وهناك أعمال كثيرة يمكن أن تتعاون الجمعية والرابطة على تحقيقها، ويمكن تحقيق كل ذلك خطوة بعد خطوة، فقد يمكن بعضها الآن، وأمور تتحقق في المستقبل، ومصلحة شئون الأديان تعمل على تطوير الأمور بالتدرج.

وكان قد حضر الالتقاء معنا بالوزير من المسلمين الشيخ (نعمان ما

شيان)، والأستاذ (مصطفى يانغ جن بوه) سكرتير العلاقات الخارجية بالجمعية، وهو المترجم الرئيسي لنا في الصين، والأستاذ (عبد الرحيم أمين) سكرتير العلاقات الخارجية بالجمعية الإسلامية، واثنان آخران من المسلمين، وترجم الحديث الأستاذ مصطفى حيث كان ينقله من العربية إلى الصينية وبالعكس.

وقد استمرت المقابلة وقتاً أكثر مما حدد لها في الأصل؛ لأن الوزير انسجم في الحديث معي في أشياء لم تكن متعلقة بصفة كاملة بالشئون الدينية، وإنما بشئون من الشئون الدولية مما يتعلق بالأقطار الأخرى التي عرف أنني قد زرتها، كما عرف أنني زرت كثيراً من أقطار العالم، وأطلعت على أحوال الشعوب فيها.

ثم أهديت إليه عباءة عربية مقصبة ألبسته إياها، فأعجب بها، والتقط صوراً لذلك.

هدية الرابطة للجمعية الإسلامية:

وخرجنا بعد ذلك مسرعين إلى الشركة التي تبيع أجهزة البرقيات (التلكس)، وذلك بناء على موعد معهم أمس، فوجدناهم قد أحضروا الجهازين من (هونغ كونغ)، فتسلمناهما من الشركة، ودفعنا ثمن كل مبرقة واحدة، وهي جهاز التلكس، أربعة آلاف ومائتي دولار أمريكي نقداً بالعملة الأمريكية؛ لأنهم لا يقبلون بيع مثل هذه الأجهزة المستوردة من الخارج بدونها.

ودفعناهما للجمعية الإسلامية، وهما اثنتان: مبرقة واحدة للجمعية الإسلامية المركزية في بكين، والثانية للجمعية الإسلامية في تركستان الشرقية التي يسمونها (تشنجك)، وهي (سنكيانغ) بالإنكليزية، ومقر

الجمعية مدينة (أرومسي).

في سوق شعبية :

دخلنا سوقاً شعبية عامة لشراء أقمشة حريرية صينية خالصة مما تنتجه الصين، وكنا اشترينا مثلها من قبل مما تسميه الحكومة الصينية (مخازن الصداقة)، وهي محلات حكومية كسائر المحلات التجارية؛ إلا أنها لا تتبع إلا بالعملة الصعبة، فلا يقبل فيها البيع بالعملة المحلية، وعندهم عملة خاصة يصرفونها لمن يصرف عندهم عملة أجنبية صعبة كالدولار تبيع لحاملها أن يشتري بها من تلك المحلات.

ولكنه على أية حال سيكون هو الخاسر إذا قارن أسعارها بالسعر الذي سيشتري به في الأسواق الشعبية، وهي حكومية، أو في المحلات الصغيرة التي تقبل البيع بالعملة المحلية، لأن صرف مائة الدولار بالسعر الرسمي يساوي (٢٧١) يناً، وبالصرف الحر يساوي (٥٥٠) يناً، وهذا فرق كبير.

إضافة إلى أن السعر في محلات الصداقة التي هي صداقة ثمنها الدولارات يكون السعر أعلى من الأسواق الشعبية بحكم كون الذين يشترون من محلات الصداقة هم من الأجانب الذين يعتبرون تلك البضائع رخيصة إذا قورنت بأسعارها في بلادهم.

وقد رأينا من إقبال الناس، وبخاصة من النساء، على هذه المحلات التي تبيع الأقمشة، وبخاصة الأقمشة الحريرية الصينية الأصلية، حتى إنه كان يصعب مزاحمتهم، والاقتراب من الباعة من خلالهن.

إلا أننا وجدنا في أحد المحلات فتاتين من تركستان الشرقية، أو

من الإيغوريين، وهم سكان تركستان كما يسمون الأغلبية من سكانها، فكلمهما المرافق باللغة الإيغورية التي هي فرع من اللغة التركية القديمة، فساعدتا على اختيار القماش الجيد، وعلى مزاحمة النساء.

ولمناسبة الحديث عن ازدحام النساء على هذه المحلات، فقد أتيت لكاتب هذه السطور مشاهدة معارض كاملة لوجوه نسائية صينية، ربما لا تجتمع في غير هذه المحلات، وكانت هذه فرصة أخرى سانحة لإصدار حكم على نسبة الجمال فيهن.

غير أن ذلك الحكم من وجهة نظر الكاتب ونظراته ليس في صالح الصينيات عنده، وربما اختلف الأمر عند غيره.

فالجميلات من الصينيات قليلات في نظر السائح العربي الذي لا يرى مثلنا إلا مظاهر الزينة، والسبب في ذلك ليس هو اللون، فالألوان في الصين لا تبعد كثيراً عن الألوان في البلدان العربية، ما عدا صفرة خفيفة مبالغ في وصفها في الصحف والمجلات، وهي موجودة بشكل خفيف على الوجوه.

والأجسام تغلب عليها الرشاقة، والذوق في الهندام جيد لا يبعد كثيراً عن الذوق العربي، ولكن يأتي الاختلاف في تقدير الجمال ما بين العربي وغيره، وربما يكون غيره هو الصيني عند مشاهدة الوجوه، ومقارنة تقاسيمها بتقاسيم وجوه العربيات.

فالصينيات من هذا الاعتبار دون العربيات بمراحل لأسباب سبق شرحها.

وتأكد ذلك للنظر عندما قارن الفتاتين التركستانيتين بالفتيات

الموجودات في السوق، فكانتا أجمل من الصينيات بكثير في نظر السائح العربي.

وتبين أنهما قد جاءتا إلى بكين للدراسة، فإحدهما تخرجت طبيبة في فن التجميل، وذكرت أنها حصلت على منحة للدراسة في اليابان لزيادة معرفتها بهذا الأمر، والثانية تدرس التاريخ في جامعة في بكين.

المعرض الدولي للسجاد:

هكذا يسمونه، مع أنه سوق معتاد فيه محل كبير للسجاد الصيني بأنواعه المختلفة، وكان القصد من زيارته الاطلاع على سجاد الحرير الذي اشتهرت به الصين، وهو ثمين وقليل في العالم.

وتبين أنه غالي الثمن بالنسبة إلى ما كان عليه في الماضي، فقد ارتفع ثمنه عما كان عليه في الماضي، حتى إننا وجدنا سجادة صغيرة فاخرة لا يزيد طولها على نصف متر في عرض ٣٠ سنتيم قد كتبوا ثمنها عليها ألف دولار أمريكي، فهم لا يبيعون إلا بالدولار الأمريكي، أو بعملة عالمية يعرفونها قابلة للتحويل إلى الدولار عندهم.

مع أننا نعتقد أن استعمال السجاد الحريري في الفرش ونحوها لا يجوز للرجال؛ لأنه من استعمال الحريري المنهي عن لبسه للرجال إلا في حالات معينة، فإنه يباح فيها إباحة تزول بزوال سببها، وإنما كان قصدنا أن نشترى منه واحدة صغيرة تعلق على الحائط بمثابة النموذج لولا أنني رأيت أن شراءها بهذا الثمن الغالي قد يدخل في باب الإسراف المنهي عنه.

الجمعة في جامع الشرقي :

كان موعد صلاة الجمعة في جامع الحي الشرقي كما يسمى بالصينية (دونغ سي)، فدونغ تعني الشرق، وسي: اسم لهذا الحي، أصله من كون بكين، وقيل: بل قصر الإمبراطور كانت له بوابات متعددة، لكل بوابة وظيفة يدخل منها قوم من الناس، لا يدخل منها غيرهم، وكان مكان هذا الحي هو البوابة الشرقية، فنسب الحي إليها.

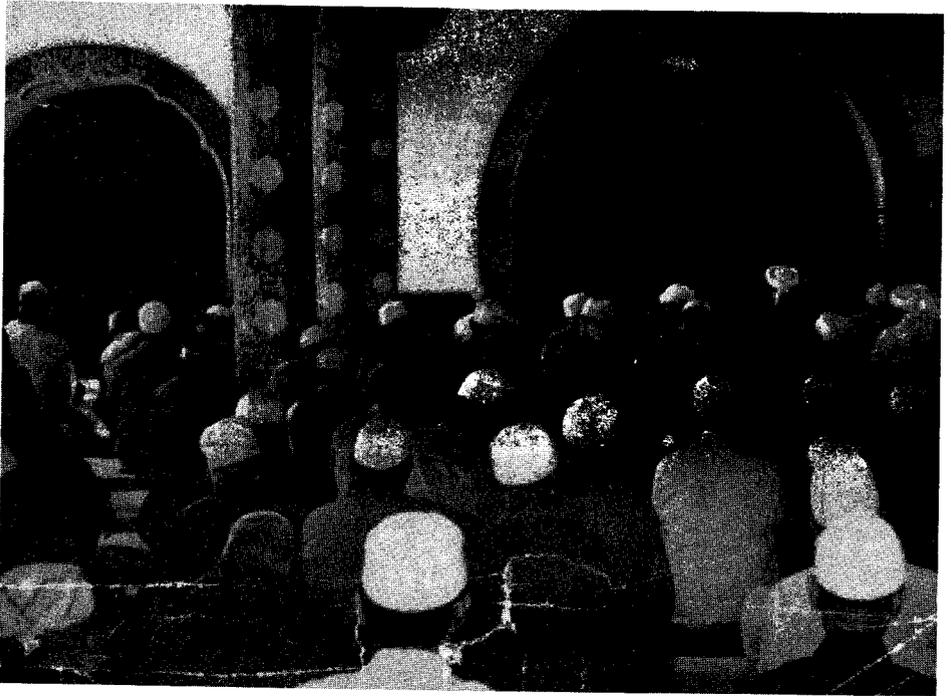
وأضيف المسجد إلى الحي، وهو الذي اشتهر في وقت من الأوقات بجامع بكين، دون ذكر شرق أو غرب، لأن جميع المساجد في بكين كانت قد أغلقت، وبعضها صادرتها الحكومة إبان الثورة الثقافية الشيوعية المتعصبة ما عداه.

والسبب في ذلك أن رئيس حكومة الصين الشعبية آنذاك، وحتى قبل الثورة الثقافية وهو (شو إن لاي) المعروف، قد طلب من الحكومة أن تترك هذا الجامع مفتوحاً من أجل أن يؤدي فيه سفراء الدول الإسلامية وغيرهم من المسلمين الذين يزورون بكين الصلاة، وذلك بمثابة المظهر، بل الدليل الملموس على أن حكومة الصين الشيوعية لا تعادي الدين، أو تتعصب ضد المسلمين في بلادها على حسب ظنه.

وقد استمر هذا المسجد هو الوحيد الذي تقام فيه الصلاة، حتى غير صلاة الجمعة في حين أن سائر المساجد غيره كانت قد أغلقت، أو استولى عليها الشيوعيون فحولوها إلى مصانع، أو مساكن لبعض الفئات الشيوعية كالعمال والطلاب.

لأن المساجد في الصين هي، كما في بلاد التركستان وجنوب ما يسمى الآن الاتحاد السوفيتي، يكون المسجد منها أشبه بالمركز

الواسع الذي لا يقتصر على مجرد إيجاد مكان للصلاة، وإنما يشتمل على أفنية واسعة، وحدائق ومنازل ملحقة به، يكون بعضها أسس في الأصل ليكون مدرسة إسلامية يلقن فيها الصغار، أو يعلم فيها الكبار أمور دينهم، كما مر بنا القول في جامع تيانجين بأن مساحته مع ملحقاته هي خمسة آلاف متر مربع من حي قديم كان قلب مدينة تيانجين القديم.



داخل جامع دونغ سي أثناء صلاة الجمعة

وكان موعد إقامة صلاة الجمعة في الثانية والنصف، فتناولنا الغداء في مطعم الفندق الإسلامي، والإسلامي صفة للمطعم، وليس للفندق، وحتى هذه الصفة مما اضطر إليها الكاتب في مجال التعريف

بالمطعم، وإلا فإن الأصح أن يقال فيه: إنه مطعم المسلمين بدلاً من المطعم الإسلامي.

وقد وصلنا المسجد متأخرين ثلاث دقائق عن الموعد المحدد، فوجدنا إمام المسجد، وهو أخونا وصديقنا الذي كان قد رافقنا في الرحلة السابقة أكثر من شهر كامل في أنحاء الصين، الشيخ (صالح إن شي وي) نائب رئيس الجمعية الإسلامية الصينية، موجوداً في المسجد جالساً قرب المحراب، فأمر المؤذن أن يؤذن لصلاة الجمعة، فأذن المؤذن بصوت شجي، ولكنه ليس كامل الفصاحة من حيث إخراج الحروف العربية من مخارجها المألوفة لها في أداء الأذان عندنا.

وهو معذور في ذلك لبعث القوم عن البلدان العربية، وانقطاع صلتهم بالتعليم الإسلامي منذ أن سيطرت الشيوعية الملحدة على بلادهم إلى ما قبل سنوات قليلة.

وكان المسجد مزدحماً بالمصلين، كما كانت المواقف مزدحمة بسيارات المصلين الذين كانوا قد حضروا قبلنا.

وقال الإخوة المرافقون: إنها سيارة (دبلوماسية) تابعة لبعض سفارات الدول المسلمة في الصين، فرأينا من الأجانب المصلين في المسجد سفير إيران، ومعه ثلاثة أو أربعة من أعضاء السفارة الإيرانية، وسفير إحدى الدول الإفريقية المسلمة، أظنها غينيا، وبعض الإخوة الباكستانيين.

وكان في مقدمة المسجد صفوف من الشبان الصينيين الذين يلبسون الملابس البيض الناصعة، ويضعون على رؤوسهم القلانس (الطواقي) البيض أيضاً، وهي علامة من علامات طالب العلم، أو المسلم المتمسك بإسلامه.

وعندما انتهى المؤذن طلب مني الإمام الشيخ صالح أن أخطب لهم، وأن أؤمهم في الصلاة، فاعتذرت عن ذلك وقلت له: أنت أحق بذلك من غيرك، فأنت الإمام الراتب، وأنت أسن مني.

وكنت أعتذر عن إمامة الناس وإلقاء الخطبة فيهم في مثل هذه الحالة لما ذكرته له؛ ولأنني أريد أن أطلع على كيفية أدائهم للصلاة وقيامهم بالخطبة دون تغيير.

فخطب الشيخ خطبتين قصيرتين باللغة العربية دون أن يتكلم بشيء من اللغة الصينية.

ولا شك في أن الذين يفهمون فحوى الخطبتين هاتين ليسوا كثيراً في المسجد، فالصينيون لا يعرفون العربية إلا أولئك الذين هم الآن في مقدمة الصفوف، وهم طلاب دورة تدريب الأئمة الذين لا بد لهم من المعرفة باللغة العربية.

وعندما فرغ من خطبة الجمعة جاء إلى مكانه الذي يؤم فيه الناس، وهو ليس داخل المحراب، وإنما خارجه مباشرة.

وهذه من عادات أهل الصين، ومن عاداتهم أيضاً إلا يضعوا المنبر بجانب المحراب مباشرة كما نفعل نحن وأكثر البلدان الإسلامية، وإنما يبعدونه عنه.

وقد جلس الإمام صالح فوق سجاده متخذاً جلسة التشهد والمؤذن يقيم الصلاة مع أن الوقت بين الانتهاء من إقامة الصلاة وانتهاء الخطبة قصير كما هو معروف، ولكن تبين أن هذه عادة لهم أيضاً أن يأتي الإمام بعد الخطبة فيجلس على مصلاه حتى يصل المؤذن في إقامته إلى جملة: (قد قامت الصلاة)، أو قريباً منها من الإقامة، فيقوم ويبدأ

الصلاة.

وقد قرأ قراءة خفيفة في الصلاة، ولكن تلاوته جيدة، ثم لما سلم من الجمعة نهض الناس جميعاً بدون تمهل يصلون، والتفت إلي جليسي في الصف الأول، وهو أحد أئمة المساجد هنا، ويتكلم العربية قائلًا: لنكمل الصلاة الباقية، وكان يقصد بذلك أن يصلي كل منهم منفرداً صلاة الظهر أربعاً بعد صلاة الجمعة، ولكنني قلت للأخ رحمة الله وكان عن يساري: لنقم نصلي صلاة السنة الراتبة ركعتين بعد الصلاة.

أما بقية المصلين، وعلى رأسهم الإمام الشيخ صالح، فإنهم صلوا صلاة الظهر أربعاً، ثم صلوا بعدها السنة الراتبة ركعتين.

الاجتماع بالأئمة وطلاب العلم:

وبعد الصلاة كان سلام ومصافحة، وكنا نسترعي انتباه الحاضرين بملابسنا العربية، ثم كان هناك اجتماع مقرر بأئمة المساجد وطلاب العلم الذين يدرسون دورة تدريبية لأئمة المساجد كما عبروا عن ذلك، ويريدون بها الدراسة لإعداد أئمة المساجد.

وقد عقد الاجتماع في قاعة كبيرة ملحقة بالمسجد من قاعات متعددة فيه، ومرافق واسعة طبقاً لما ذكرته عند الكلام على جامع (تيانجين).

وقد امتلأت القاعة بالحاضرين، وأكثرهم من طلبة العلم الشبان الذين يلبسون ثياباً بيضاً فوقها قلانس بيض، وتلك الثياب ليست قمصاناً مثل قمصنا، وإنما هي جباب - جمع جبة - طويلة تضرب إلى أسفل من الركبة تحتها سراويل واسعة.



مع الشيخ (صالح ان شي وي) وأئمة المساجد وطلاب الدورة التدريبية في جامع (يانغ سي) في بكين

وبعضهم عليه عمامة قد أرخى ذؤابتها خلف ظهره في مظهر جميل.

وألقى الإمام الشيخ (صالح أن شي وي) كلمة رحب فيها بضيفه، وقال يخاطبني: لقد صحبتكم في جولتكم خلال زيارتكم الأولى للصين قبل أكثر من ثلاث سنوات، وها نحن نراكم الآن بيننا، وهذا من دواعي سرورنا، وإن كل المسلمين يعبرون عن الترحيب بقدمكم إليهم مرة ثانية لتفقد أحوالهم، وأشار إلى أن النشاط الإسلامي قد تحسن في السنوات الأخيرة، وزاد عدد الطلاب المسلمين الدارسين في برنامج المسجد لإعداد الأئمة، وقد بلغ عددهم أربعة عشر طالباً يتوقع

تخرجهم مع نهاية العام القادم.

كذلك أنشأ المسلمون في بكين شركة إسلامية تعاونية لممارسة بعض النشاطات الاقتصادية والتجارية، وتعمل حالياً لإقامة مطعم وفندق إسلامي في بكين، كما تتطلع الشركة إلى أن تجد فرصة عمل لها في الخارج.

وقال: وقد نظمت الجمعية الإسلامية لمدينة بكين بعثة حج لها في عام ١٩٨٥م بمساعدة مالية من سمو الأمير فيصل بن تركي آل سعود، كما قام بعض المسلمين بأداء مناسك العمرة في عام ١٩٨٦م.

والشيخ محمد بن ناصر العبودي صديق قديم، وعزيز علينا، يقدر ظروفنا وأحوالنا؛ لذا نلتمس منه ما يلي:

- ١- مساعدة شركتنا الإسلامية في عقد اتصالات عمل مع المسلمين في المملكة العربية السعودية حتى نستطيع تطوير اقتصادنا، وتوفير المال لأنشطتنا الإسلامية.
- ٢- إتاحة الفرصة لي لأداء مناسك العمرة مع ستة أشخاص، وزيارة الرياض العاصمة لمقابلة الأمير فيصل بن تركي الذي أكرمنا بتذاكر السفر.
- ٣- توفير بعض المنح الدراسية لأبنائنا الطلاب الذين يجلسون أمامكم في بعض الجامعات الإسلامية حتى يتم تعليمهم وتربيتهم بما يؤهلهم لإمامة المسلمين في المستقبل.

وفي نهاية اللقاء تحدثت معهم عما لاحظته من كثرة المصلين في المسجد مع وجود مساجد أخرى عديدة في مدينة بكين مما أعيد إلى

المسلمين في السنوات الأخيرة.

فقالوا: إن هذا هو مثار عجبنا، فقد كان المسجد يمتلئ بالمصلين يوم الجمعة عندما كان هو المسجد الوحيد المفتوح في بكين، أما الآن ومع وجود مساجد عديدة في بكين تقام فيها صلاة الجمعة، فإن المسجد لا يزال يمتلئ كما رأيتهم بالمصلين.

والسبب في ذلك هو تزايد أعداد المصلين، وبخاصة من الشبان.

ثم اختلفوا في عدد المساجد في بكين، فقال أحدهم: إنها في بكين والمحافظات الملحق بها تبلغ خمسين مسجداً، وقال آخر: إنها في بكين وحدها خمسة وثلاثون مسجداً، وقال غيره: هذا يعني عدد المساجد في مدينة بكين وضواحيها.

زيارة الرئيس الفخري للجمعية الإسلامية:

وفي الثالثة والثلاث حان الذهاب لزيارة (برهان شهيدي) الرئيس الفخري للجمعية الإسلامية الصينية كما نعتوه، وهو معروف لنا جيداً، إذ كنت جلست بجانبه أثناء مأدبة حافلة كانت الجمعية الإسلامية الصينية أقامتها لنا عند زيارتنا الأولى إلى الصين.

كما أنه معروف بمواقفه التاريخية تجاه تأييد الثورة الشيوعية بقيادة (ماو تسي تونغ)، ثم موقفه من طغيان الثورة الثقافية، فكان مع زعماء البلاد الذين عارضوها، وعملوا على التخلص منها.

وهو إيغوري، أي من أهل تركستان، هاجر وهو صغير إلى روسيا، وسكن في قازان عاصمة ما يسمى الآن بجمهورية تتارستان في الاتحاد السوفيتي، فدرس هناك في الاتحاد السوفيتي.



مع برهان شهيدي في منزله في بكين وابنته خلفه وعلى يساره (إلياس شن شيا شي) رئيس الجمعية الإسلامية

ثم عاد إلى تركستان، وكان رئيساً لحكومتها إبان حركة (ماو تسي تونغ)، فسلم البلاد إلى الحكم الشيوعي، وكانت قبل ذلك قد ضعفت قبضة الحكومة الوطنية المسماة بالكومنتاج التي كان يتزعمها آنذاك (كان تشاي شيك)، وأصبح بعد ذلك من رجال الحكومة الصينية الشعبية، فكان النائب الأول لرئيس وزراء الصين (شو إن لاي)، ويشغل الآن عدة وظائف أكثرها فخري بسبب تقدمه في السن، وهي:

عضو مجلس الرئاسة للجنة الوطنية الصينية العامة.

نائب رئيس اللجنة الوطنية السادسة.

رئيس جمعية دراسة ثقافة آسيا الوسطى.

رئيس جمعية دراسة اللغة التركية.

تولى رئاسة حكومة تركستان الشرقية عام ١٩٤٨م.

وقد رأس أول بعثة للحج من الصين في عام ١٩٥٦م، وذلك بعد أن توقف الحج من الصين الشيوعية لعدة سنوات.

كان موعد زيارته التي وضعتها الجمعية الإسلامية الصينية في البرنامج بسبب رئاسته الفخرية لها هو الثالثة والنصف ظهراً.

وقد وصلنا إليه في ذلك الموعد بالضبط، فدخلنا إلى بيته الذي كان عليه حرس مدجج بالسلاح، وهو في قصر على هيئة (فيلا) واسعة الحدائق جداً، تدخل إليها السيارات فتقف مباشرة عند مدخل المنزل الكبير.

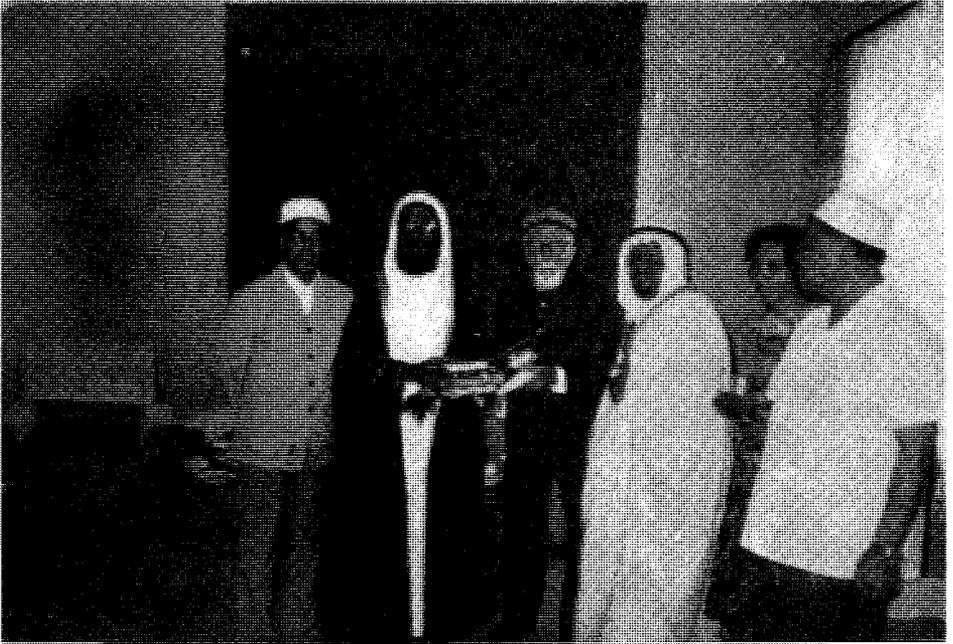
فاستقبلتنا عند الباب الخارجي للمنزل، وهو موقف السيارة، ابنته الكبرى التي هي في الوقت نفسه سكرتيرة له تأخذ أجرها على ذلك من الجمعية الإسلامية الصينية، ومعها بعض الأعوان، وفرقة من مصوري التلفزة والصحافة.

ثم دخلنا إلى غرفة الجلوس حيث وجدناه واقفاً عند بابها تمسك بعضه ابنة له أخرى، هي أيضاً موظفة بالجمعية الإسلامية الصينية.

سلم علينا بتأثر بالغ، وهو يرتعش من الكبر، وقد ثقل سمعه، وكان من المقرر أن تتم الترجمة ما بيننا وبينه على مرحلتين، وهي أن تترجم ابنته من اللغة الإيغورية، التي هي لغة أهل تركستان، إلى

الصينية، ثم يترجم الأخ (مصطفى يانغ بوه)، الذي كان هو مترجمنا وملازماً لنا طول الوقت، إلى العربية، وهكذا يترجم كلامنا أيضاً.

مع أن المعروف أن (برهان شهيدي) يعرف عدداً من اللغات، منها: العربية، والصينية، والروسية، والألمانية إلى جانب لغته الأصلية، (الإيغورية)؛ غير أنه وابنته تبلغ كلامه إلى غيره، كما أنه وهو في هذه السن من الكبر قد صار يستعمل لغته الإيغورية الأصلية وحدها ما عدا كلمات مجاملة قالها لنا بالعربية.



مع برهان شهيدي في منزله في بكين أثناء إهداء المصحف والسجادة

ونظراً إلى أن الترجمة وفق ما قرروه تطول، فقد كان مرافقي الأخ (رحمة الله) يعرف الإيغورية؛ لأنه تركستاني الأصل، فصار يترجم من

الإيغورية وإليها مباشرة من العربية، فكان في هذا اختصار للوقت والجهد، إلا أنه حرم الحاضرين الصينيين الذين لا يعرفون العربية ولا الإيغورية من متابعة الحديث، ومنهم الشيخ (إلياس شن شياشي) رئيس الجمعية الإسلامية، وعدد من نوابه فيها.

أول ما تكلم به (برهان شهيدي) أن اعتذر بكبر سنه، وقال: إنني أبلغ الثالثة والتسعين من العمر، وكان قال لي في عام ١٩٨٤م، أي منذ أكثر من ثلاث سنوات، أن عمره هو ٩١، فعلى هذا يكون عمره ٩٤، وليس كما قاله.

وقلت في أول الحديث بيننا: إنه سرنا أن نقابل اليوم رجلاً ممن تركوا أثراً بارزاً في تاريخ بلاده. فرد بالترحيب.

ثم تناولنا حديثاً قصيراً عن تاريخ هذه البلاد القريب الذي أسهم في صنعه، ولكن ثقل سمعه منع من طول الحديث معه.

واستغرقت زيارته أكثر مما قدرناه؛ لأنه كان يستبقيني كلما أردت أن أغادره، وقد أخبرني إخواني الذين شاهدوا التلفاز في مساء هذا اليوم أن مقابلتنا له أذيعت من التلفاز، بخلاف مقابلة وزير الأديان، فلم تدع هذا اليوم رغم كونها قد صورت للتلفاز، وذلك لكبر مقامه وأهميته عندهم، فهو أكبر مرتبة من وزير في الحكومة المركزية الصينية.

قصر الصيف:

كنت زرت قصر الشتاء في المرة السالفة، ولم أزر قصر الصيف لضيق الوقت، لذلك اقتضى الأمر زيارة قصر الصيف، لا سيما أننا الآن

في فصل الصيف، وأنا حينما زرنا قصر الشتاء كان الفصل ربيعاً شاتياً، أي أنه فصل الربيع عندهم، ولكنه كفصل الشتاء عندنا، لأن الأشجار كانت هامدة، والريح كانت تهب باردة.



رحمة الله في مدخل قصر الصيف

حدثونا عن سبب بنائه، وهو أن أحد ملوك الصين الكبار ممن يسمون بالأباطرة، كان قد اعتاد على قضاء فصل الصيف في بلدة (خانجو) الجبلية الجميلة، وكان يذهب إلى تلك المدينة من القناة المائية العظيمة التي يبلغ طولها نحو ١٥٠٠ كم أو تزيد، فعرف مرة من المرات أن أحد عماله يتآمر لاغتياله بتأييد من أحد أقارب الإمبراطور الذي أراد أن يحل محله في العرش، فعدل عن الذهاب إلى (خانجو)، وبنى هذا القصر ليقضي فيه فصل الصيف كما كان يفعل في (خانجو)، وسماه:

« قصر الصيف ».

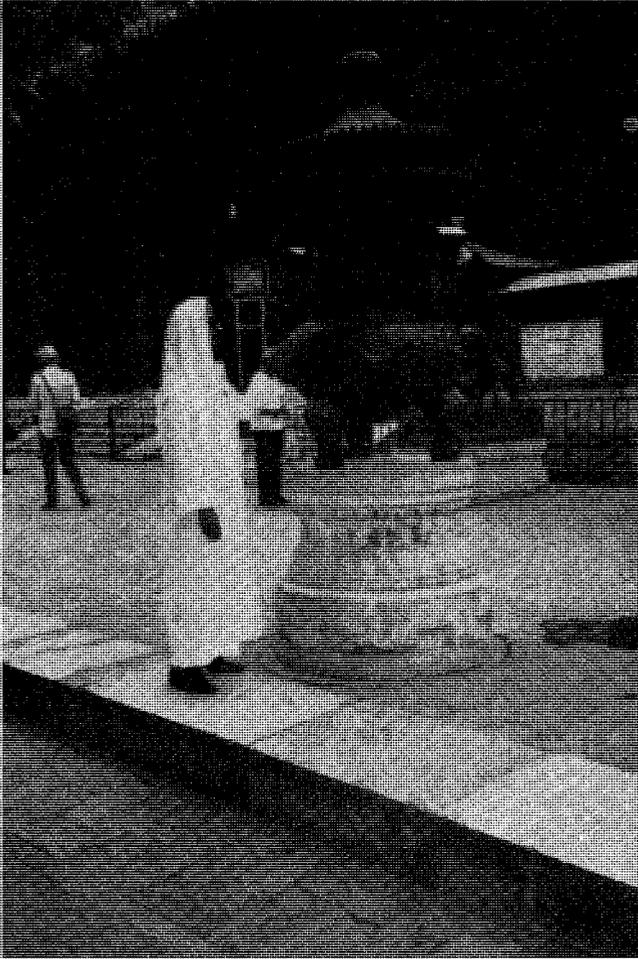
ويقال: إن سير الإمبراطور من بكين إلى (خانجو) كان يقترن في كثير من الأحيان بمآسٍ ومشاق للناس، وللولاة والموظفين، إذ يكون على كل والٍ على مدينة أو ناحية أن يضيف الإمبراطور مع من يكون بصحبته من الخدم والحشم والجنود، وذلك أمر مكلف جداً، وفي مرة من المرات كان عامل ليس عنده ما يكفي لضيافة السلطان، فكان أن حل المشكلة بطريقته الخاصة، وذلك بأن انتحر تاركاً جثته للسلطان إن أراد أن ينتقم منها، وما هو بفاعل.



جانب من قصر الصيف

دخلنا إليه من البوابة الخارجية للقصر، وهي كبيرة حولها طوائف

من الناس أكثرهم من ذوي الطابع الصيني، وربما كانوا ممن يسكنون خارج الصين، وهم يدخلون ويخرجون مما يدل على أهمية زيارة القصر عندهم.



عند المبخرة في قصر الصيف على المدخل

واسترعى انتباهي أول الأمر كثرة التلال الصخرية الاصطناعية التي أقاموها في أفنية القصر، وتلك عادة لهم واسعة الانتشار حتى في

القصور الصغيرة، والحدائق غير الواسعة، أن يقيموا فيها أحجاراً تتقل من جهة أو جهات، وتشكل بهيئة جبال صغيرة، أو تلال جبلية غير متساوية حتى تبدو وكأنها التلال الحقيقية.

وعند المدخل الثاني للقصر، وليس هو بالذي يدخل منه إلى أبنية القصر، وإنما يدخل منه إلى حديقة واسعة؛ بل بالغة السعة، وممرات طويلة جداً على ضفاف بحيرات واسعة، أقاموا نصباً ذكروا فيه باللغة الصينية ما ترجمه لنا إخواننا المرافقون بأنه يذكر أن تاريخ بناء هذا القصر هو عام ١٧٥٠م، وأنه اتخذ ليكون مسكناً لزوجة الإمبراطور.

وعند هذه اللوحة قبل الدخول للبوابة الثانية أقاموا مبخرتين ضخمتين من الفخار، أو من الحجر المنحوت، كأنها الآنية الضخمة التي يمكن أن يطبخ فيها خروف، وهي معدة لإحراق البخور فيها أمام هذه البوابة المهمة من القصر.

ولا أدري أذلك جزء من تقليد ديني بوذي، أم أنه من باب نشر الرائحة الطيبة حول القصر، والتقطنا صوراً تذكارية عند هذه المبخرة، مثلما التقطنا صوراً عند غيرها من الأماكن المهمة في القصر.

ثم مررنا بغرف عدة من القصر منفصلة عن غيرها أحالوها إلى ما أسموه متحف الرسوم والتحف والأعمال الفنية الصينية، وهو يبيع ذلك كله للمشتريين، ومن أهم ما فيها مزهريات صينية جميلة من الخزف، ولا أقول من الصيني الذي يراد به الخزف في بعض التعبيرات في بلادنا، لئلا يشتهب الأمر، وفيها قلائد وأساور وتحف أخرى.

الممر الطويل :



ممر الاستراحة الطويل في حديقة تيانجين

سرنا مع ممر مكشوف طويل يتجه إلى داخل فناء القصر الواسع، وعجبت من طوله؛ غير أن عجبي زال عندما وصلنا إلى ممر مسقوف مزخرف أطول منه، ذكروا أن طوله يبلغ سبعمائة وعشرين متراً، أي على من يقطعه في الذهاب والإياب مثلنا أن يقطع كيلو متراً ونصفاً

داخل هذا الممر المكشوف وحده ماشياً على قدميه، مع أن أنحاء القصر الأخرى وأبهاؤه المكشوفة هي أوسع من ذلك بكثير.

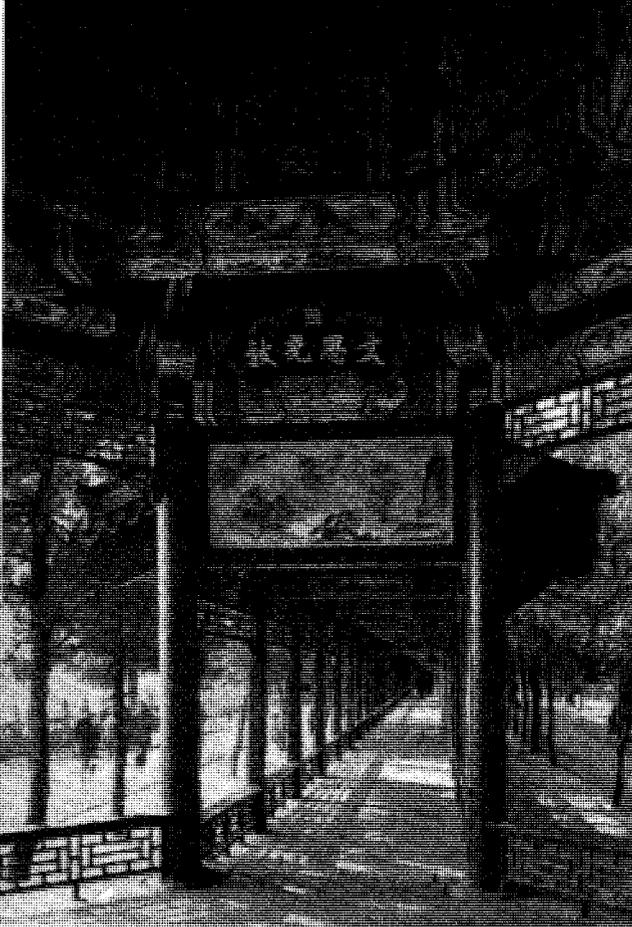
وذكروا أن الإمبراطور أقام هذا الممر المسقوف الذي يبلغ طوله ٧٢٠ متراً من أجل أن يتمشى مع زوجته، فيريان تفتح الأزهار على ضفة البحيرة الواسعة التي يقع القصر على ضفتها، ولا يفصل بينها وبين الممر إلا فاصل يسير، وذلك دون أن يشعر بحرارة الشمس، أو أن تؤذي بأشعتها أبشارهما أو أبصارهما.

وقد زين الممر المكشوف بلوحات ورسوم فنية بأقلام فنانيين كبار مشهورين، ذكروا أن عدد الرسوم التي على سقفه يبلغ مائتين وتسعة وسبعين رسماً، كل رسم منها مختلف عن الرسم الآخر، وبعد مسافة عدة أمتار من الممر يبنون قبة على مكان يكون متسعاً مستديراً فيه كما كان عليه الحال بالنسبة إلى ظهر سور الصين العظيم، غير أن السائر في هذا الممر يكون مستتراً بسقف الممر وقبابه من شمس الصيف الحارة نسبياً، وقد زينوا سقوف هذه القباب الصغيرة برسوم مختلفة، ووضعوا في أسفل القباب مقاعد للاستراحة.

وقد ذكرني هذا الممر في فصل الصيف بما عملته في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عندما كنت في وظيفة الأمين العام للجامعة، فقررنا أن ننشئ فيها ممرات مسقوفة تقي من يسير داخل الجامعة في الصيف حرارة الشمس المحرقة.

وذلك وفق تخطيط اتفقت عليه مع مهندس مصلحة الأشغال العامة في المملكة العربية السعودية آنذاك المهندس محمد وهبي الحريري من سوريا، وتم بناء أكثر من نصف كيلو متر من هذه الممرات التي لا تزال

موجودة حتى الآن، وكان من المقرر أن تزداد مع زيادة الأبنية في الجامعة التي كنا قد خططنا لها مشروعاً لمدة عشر سنوات.



الممر المغطى في قصر الصيف

ولا أدري الآن أقامت إدارة الجامعة الإسلامية بعد أن تركتها

بتنفيذ ما كنا قد رسمناه، أم تركته؟

البحيرة التي انقلبت جبلاً:

كنت قرأت في أخبار الحمقى والمغفلين أن ثلاثة من المغفلين رأوا منارة طويلة، فقال أحدهم للآخر: ما أطول البنائين في الزمن الأول حتى استطاعوا أن يصلوا إلى رأس هذه المنارة فيبنوه! فقال الثاني: يا مغفل، لقد بنوها على الأرض ثم أقاموها، وقال: زميلهم الثالث، وكان أكثر منهم تغفياً: يا مغفلين هذه كانت بئراً فانقلبت منارة!.



قرب البحيرة في حديقة قصر الصيف في بكين

والأمر هنا في هذا القصر عن بحيرة انقلبت جبلاً، أو العكس هو صحيح، لا مجال لحديث التغفيل والمغفلين فيه فيما ذكره المرافقون لنا. فقد كانت في مدينة (خانجو) التي كان الإمبراطور يقضي

الصيف فيها تلال جبلية تعجب السلطان، فأراد أن يكون في قصر الصيف هذا جبلاً مثل تلك الجبال، وطلب من وزرائه المختصين أن يحققوا له ذلك. كما طلب أن تكون في قصره الصيفي بحيرة مثل بحيرة كانت له في (خانجو).

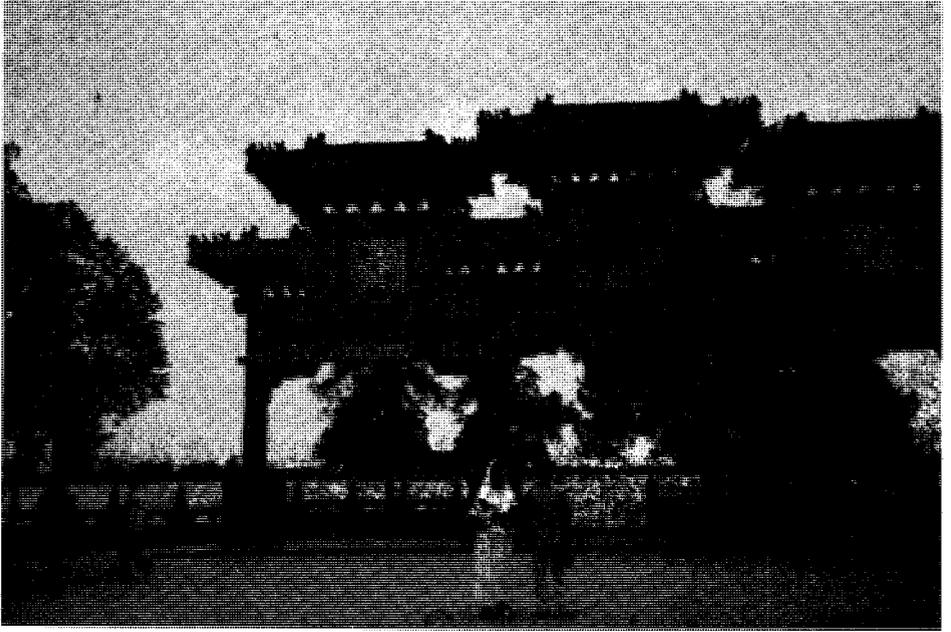
وتفتقت أذهانهم عن فكرة سرعان ما نفذوها، وهي أن يحضروا الأرض بجانب القصر حفرة واسعة وينقلوا ترابها ويجعلوه جبلاً بينون فوقه قصرًا للسلطان، ويكون من الحفرة التي يؤخذ ترابها للجبل بحيرة واسعة يجلبون لها المياه العذبة، فيحققون بذلك رغبة السلطان، ويصطادون عصفورين بحجر، وإن شئت قلت بجهد عدة آلاف أو عشرات من الألوف من العمال مع مقدار لا بأس به من النقود.

ثم نقلوا إلى التراب الذي جعلوا منه ما يشبه الجبل حجارة ضخمة من مقالع حجرية من خارج المكان، وجعلوها كالحوائط الخارجية لهذا التراب تمنعه من الانجراف، وتعطي الناظر إليها شعوراً بأنه ينظر بالفعل إلى جبل حقيقي وليس إلى تلة مصطنعة.

وحتى اليوم لا يشك الناظر إلى القصر والجبل الذي تحته، وإلى البحيرة الواسعة التي بجانب قصر الصيف كله في أنهما طبيعيان، وليسا مصطنعين.

ومما يسجل هنا ما قرأه الإخوة الصينيون على مدخل ذلك القصر الخاص داخل قصر الصيف الكبير، وهو الذي بنى فوق الجبل الاصطناعي من أنهم أسموه (قصر العمر المديد)، ولم يعرفوا كم عاش ذلك الإمبراطور الذي انقلبت له البحيرة إلى جبل، أو انقلب تراب الجبل إلى بحيرة، وذلك عندما سألتهم عن تفاؤله بتسمية القصر بقصر العمر

المديد.



تحت بوابة صينية رمزية مع مصطفى يانغ بوه في قصر الصيف (بكين)

ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة أن مدينة (خانجو) التي بني قصر الصيف هذا ليعوض الإمبراطور عنها يعني اسمها (ولاية السلطان)، فخان: ملك أو سلطان، و(جو) تعني: ولاية، وذلك لكون السلطان أو الإمبراطور كان مختصاً بها في القديم.

هذا وقد لاحظنا أن أكثر الأبنية والسقوف في هذا القصر هي من الخشب الصيني القوي الذي ظلوه حتى صار لا يفرق المرء بينه وبين البناء بالإسمنت أو الحجارة القوية ما عدا أركان البناء والأفاريز الخارجية

فهي من الحجارة المنحوتة.

جلسة المباحثات:

في التاسعة من مساء هذا اليوم عقدت بيننا وبين الجانب الصيني الذي يمثل الجمعية الإسلامية الصينية برئاسة الشيخ (نعمان ما شي آن) نائب رئيس الجمعية والأمين العام لها جلسة مباحثات في الفندق استمرت حتى الثانية عشرة والنصف ليلاً، وذلك لازدحام برنامجنا قبل هذا الموعد.

وقد اتفقنا مبدئياً في هذه الجلسة على ما تبقى من أمور، وتفصيل أمور أخرى كان تم الاتفاق عليها مجملتها، وتبين أن الوفد الصيني كان يراجع من بيدهم الأمر؛ لأنه عاد إلى تعديل بعض الأمور التي كان وافق عليها من قبل.

واتفقنا على عقد اجتماع رابع في إحدى البلدان التي نجد فيها فراغاً، لأن الأخ نعمان والأخ (مصطفى يانغ بوه) سكرتير العلاقات الخارجية بالجمعية، وهو المترجم لنا سيكونان معنا في السفر إلى بعض المقاطعات الصينية الذي تقرر أن يكون ظهر الغد إلى مدينة (خوخا خوت)، عاصمة مقاطعة منغوليا الداخلية.

يوم السبت ١٧ شوال ١٤٠٧هـ

تمشية في سوق شعبية:

لم يبق إلا بياض الضحى من هذا اليوم على بقائنا المقرر في مدينة بكين، حيث سنسافر منها اليوم، ولن نعود إلا عود مرور مؤقت بعد زيارة مقاطعة (منغوليا) الداخلية.

لذلك زغبت في أن أرى بعض الأحياء الداخلية القديمة من مدينة بكين، لأنها التي تعطي صورة حقيقية عما كانت عليه المدينة من قبل، بخلاف الأجزاء الحديثة من المدينة التي تكرر رؤيتها في أكثر الأحياء العصرية من المدن الكبيرة الحديثة، وإن كان ذلك على تفاوت بين تلك المدن في هذا الأمر.

وكنت في الزيارة السابقة للصين مررت ببعض تلك الأحياء التي لا تزال بيوتها الطينية باقية، وأزقتها الضيقة لم يفارقها طابعها الصيني المميز؛ غير أنني لم أستطع تصويرها في ذلك الحين بسبب طول الموكب المرافق لنا، وصعوبة إيقافه للتصوير، بخاصة أن الرقابة علينا كانت أشد مما هي عليه الآن، والمرافقين ذوي العيون الفاحصة كانوا أكثر مما هم عليه الآن.

فطلبنا من أحد الإخوة الصينيين أن نستأجر سيارة أجرة نجول بها في أحد هذه الأحياء، ونصور ما نريد تصويره منها، وبخاصة أن سيارات الأجرة أصبحت موجودة بل متوفرة بكثرة في بكين، خلاف ما كان عليه الأمر في الماضي؛ حيث لم تكن توجد فيها سيارة أجرة واحدة، وإنما كانت هناك سيارات مخصصة للإيجار على الأجانب يطلبها لهم الفندق الذي ينزلون فيه، وهي سيارات خاصة مراقبة من الحكومة.

ولكن المشكلة أن الأخ الذي طلبنا منه ذلك ربما كان لم يجرؤ على فعل هذا الأمر دون الرجوع إلى رؤسائه، ولكنه صدنا بطريقة مهذبة قائلاً: إنه توجد هنا سوق شعبية غير بعيدة من الفندق يمكننا أن نسير إليها مشياً على الأقدام، وننال فيها ما نريد.

فخرجنا نمشي مع الشارع الحديث الواسع الذي يقع عليه فندقنا

(شي يوان شي)، وسرنا حوالي الألف متردون أن نرى فيه جديداً ، ثم عطفنا مع شارع فرعي غير واسع؛ حيث وجدنا منطقة شعبية قديمة قد هدموا جزءاً منها، وأقاموا مقام البيوت فيها أبنية حديثة متعددة الطوابق (عمارات)، وبقي جزء منها على حاله فيه البيوت الأصيلة ذات الطابق الواحد، إلا أن مستواها فوق مستوى الأحياء القديمة التي كنا نود الوصول إليها وتصويرها.

فحتى الأزقة في هذا الحي هي أوسع من الأزقة في تلك الأحياء.

ولذلك اكتفينا بالتجول في سوق شعبية كل ما فيها من المعروض للبيع هو شخصي، كما كانوا يقولون في تعريف ما ليس للحكومة.

وأكثر ذلك خضرات، ويقول، وحبوب مما ينتجه الفلاحون الذين حضروا بمنتجاتهم الخاصة يبيعونها بأنفسهم على الناس طبقاً للعرف المتبع هنا منعاً للاستغلال، كما قالوا فيما لو باعوها على تجار صغار لا يبيعونها على الناس إلا بثمن أغلى.

البيض يوزن وزناً:

من الغرائب التي صادفناها ونحن نتجول في هذا السوق، ونسأل عن أقيام البضائع فيه أننا وجدناهم يبيعون الأشياء الموزونة بمقياس يسمونه (جنغ)، ويساوي نصف الكيلو، أي وزن خمسمائة غرام.

ولكنك إذا سألتهم عن الكيلو ذكروا هذا (الجنغ).

ومن ذلك أننا وقفنا على بيض طازج، فسألنا البائعة عن قيمة البيض فقالت: إنه ينان ونصف للجنغ، أي خمسة ينان للكيلو الواحد من البيض، ولا أدري كم يساوي من البيض عدداً، وإنما الذي أعرفه أن

هذا المبلغ من الينات يساوي دولاراً أمريكياً بالسعر الحر للعملة تقريباً، كما يساوي دولاراً ونصفاً بالصرف الرسمي على وجه التقريب أيضاً.



متاجر شخصية في بكين

و (الجنغ) من الطماطم الذي هو نصف كيلو كما قدمت باثين وأربعين سنتاً، أي أن الكيلو يساوي أقل قليلاً من الين الواحد، وقال الأخ المرافق: إن هذه الطماطم مجلوبة من الجنوب، لأن وقت نضجها في منطقة بكين لم يحن بعد، وإذا حان كانت رخيصة جداً.

وفي السوق من الخضرات والبقول الأخرى لوبيا كالوجود عندنا تماماً، وهم يحرصون عليه ويدخلونه في عددٍ من أكالاتهم المعروفة،

وثوم أخضر، وهم يحبون الثوم، وقلما تخلو مائدة من موائدهم منه، إلا أنهم أقل استهلاكاً للثوم من أهل كوريا وتايلند، اللتين يعاني الغريب إذا كان قوي الشم مثلي من رائحته في المصاعد والمداخل المغلقة.

وكذلك رأيناهم عرضوا الكرنب، وما يسميه المصريون بالشبت ونسميه في منطقة القصيم بالحلوة، وهو الذي تعمل الكراوية من حبه.

وهو هنا أخضر، وعندهم بطيخ أخضر، وهو الحجب، غير جيد، فهو من النوع الكروي المخطط ذي البزر المنقط، وكان النوع الوحيد الموجود عندنا في القصيم في القديم، ولكننا استبدلنا به في السنوات الأخيرة أنواعاً من البطيخ جيدة البذور، كبيرة الثمار، جلبناها من بلدان مختلفة، منها الولايات المتحدة الأمريكية.

كما رأينا باذنجاناً أسود كالذي نعرفه، غير أن هذا الصيني متجعّد الجلد، وليس أملس كالباذنجان الموجود عندنا.

ومن طريف الأدلة على اهتمام الصينيين بالخضرات والبقول في الأكل رغم دخولهم المحدودة أننا رأينا دراجة واقفة قد ربط صاحبها على ظهرها خلف مركبه حزمة من بصل أخضر لا تساوي أكثر من نصف ريال عندنا ليس على دراجته غيرها.

وكان الجو في هذا اليوم، وفي هذه الساعة من الضحى حيث كانت الشمس مشرقة لطيفاً، يشبه الجو في مدينة دمشق في فصل الصيف، أو يشبه الأيام الباردة من أيام الصيف في الطائف.

وذلك أنهم يقولون: إن شدة الحر لا تكون عندهم إلا في شهر أغسطس، ومع ذلك هي شدة نسبية، فدرجة الحرارة إذا اشتد الحر عندهم تكون في حدود الخامسة والثلاثين أو الثامنة والثلاثين، ولكن

هذه الدرجة إذا صحبتها رطوبة صارت مضايقة للإنسان.

يوم الإثنين ١٩ شوال ١٤٠٧ هـ

من بكين إلى شنغهاي:

قضينا يومي السبت والأحد وبعض هذا اليوم في مقاطعة منغوليا الداخلية حين غادرنا بكين ظهر السبت كما تقدم.

وسوف نتجه الآن بإذن الله من بكين إلى مدينة شنغهاي، وبعدها إلى مقاطعة (يونان)، ومن بعد ذلك نتوجه إلى مدينة (غوانتشو) التي كنا نعرفها في القديم باسم (كانتون).

فغادرنا مطار بكين في الثامنة إلا الربع من مساء هذا اليوم، والشمس حية؛ بل هي صاحية، وتكرر في المطار قبل المغادرة حرص الموظفين على الاطلاع على جوازات السفر، والبطاقات الشخصية للمواطنين الصينيين، فكانوا يقارنون في وسواس ظاهر بين صورة المسافر على جوازه وبين صورة وجهه مع أن الرحلة داخلية وبين مدينتين صينيتين.

وقد صعدنا على الطائرة التي تتبع الشركة الصينية المعهودة للطيران التي يرمز باسمها اختصاراً بالحروف الأربعة (CAAC).

وهي طائرة كبيرة نفاثة من طراز (أير باص) أو الحافلة الجوية.

وقد تعودنا على ركوب مثل هذه الطائرة في البلدان المتقدمة في خدمة المسافرين كبلادنا والبلدان الأوروبية التي صنعت هذه الطائرة بالفعل، فكانت المضيفات يساعدن الركاب على معرفة أماكنهم في الطائرة؛ لأن المقاعد فيها مرقمة.

أما هؤلاء المضيفات في هذه الطائرة الكبيرة، فإنهن لم يفعلن أكثر من أن وقفن عند باب الطائرة من الداخل، ومن سأل من الركاب عن جهة مقعده أشرن إليها، ومن سكت سكتن عنه، وأذكر أنني كررت على إحداهن الاستفسار عن مكان الكرسي الذي سأجلس فيه، فأشارت إلى جهة معاكسة للجهة الصحيحة إذ قالت: هو في اليمين، وتركتني أذهب مع الممر المؤدي له، وتبين لي بعد ذلك بمساعدة بعض الركاب والمرافقين أنه في اليسار، ولم يكن هذا ناتجاً عن خطأ مني أو سوء فهم لما قالته لأن ذلك تكرر منها.

ومما يجدر ذكره أن بطاقات الصعود إلى الطائرة في داخل الصين كلها مكتوبة بالصينية حتى اسم المدينة التي يقصدها المسافر، وليس فيها مما يفهمه أمثالنا إلا الأرقام، ذلك بأن الأرقام الصينية هي الأرقام العربية التي يسميها عوام الكتاب عندنا بالإفرنجية، مع أن الإفرنج أنفسهم يسمونها (الأرقام العربية) لأنها جاءتهم من العرب.

ولا يزال أهل المغرب العربي: (تونس والجزائر والمغرب) يستعملونها وحدها في كتاباتهم وتاريخهم، والصينيون ليس لهم في لغتهم أرقام مثل هذه الأرقام العربية، ولذلك يكتبون لوحات الأرقام على السيارات والمنازل والدراجات بها.

وقد أعلنت المضيضة المعلومات عن الرحلة بثلاث لغات، أولاها: الصينية، والثانية الإنكليزية، والثالثة اليابانية، مع أن هذه الرحلة داخلية، ولكن الخط نفسه خط مطروق من الأجانب الذين يسافرون بين بكين وهذه المدينة، وقد يتخذون من إحداها ممراً إلى ما يقصدونه من غرب الصين وشرقها.

وعادتهم التي عرفناها منهم ألا يعلنوا إلا باللغة الصينية وحدها إذا كانت المدينة التي تطير إليها الطائرة غير معروفة بأنها مقصد للأجانب كما حدث بالنسبة لرحلتنا التي جئنا منها اليوم، وهي من (خوخا خوت) عاصمة جمهورية منغوليا الداخلية إلى بكين.

ذكروا في الإعلان بالإنكليزية أن المسافة من بكين إلى شنغهاي تستغرق ساعة ونصفاً من الطيران.

ومن لطائف ما عملوه أنهم وزعوا قبل إقلاع الطائرة على الركاب كيساً من الورق فيه شيكولاتة وآيس كريم، فأكله الناس أو شربوه لأنه جامد إذا زايه البرد صار ماء سائلاً

ولكنهم نسوا و تناسوا أن يجعلوا معه منديلاً من الورق يمسح به الراكب ما قد يصيب يديه وفمه منه.

ومن الطريف في الأمر أن نذكر عادات المضيفات الصينيات على طائراتهم، وهي أنهن لا يوزعن ما يعطين الركاب على الركاب أنفسهم كل واحد منهم تضع المضيفات ما يخصه من يدها ليده كما هو المعتاد في أكثر البلدان، وإنما كن يعطين من يليهن من الركاب أي الراكب الذي يكون بجانب الممر كل ما يخصه وما يخص من بعده، ويذهبن فيوزع هو ذلك على جليسه، وجليس جليسه إذا كان في الصف أكثر من راكبين.

بل إن إحداهن اليوم نسيتني أنا وجليسي الأستاذ (مصطفى بوه) فناداها بصوت مرتفع بعد أن تجاوزتنا ساهية، فعادت وأعطتنا ما أعطته غيرنا.

وهذا جزء من عدم الاهتمام الذي يوليه الموظفون في أعمالهم في

الصين كما سبق في ذكر شواهد من ذلك في خدمة عمال الفنادق وغيرهم.

والطائرة مليئة بالركاب، وكلهم ذو مظهر صيني، وربما كان بينهم بعض اليابانيين، ولكن يصعب على أمثالنا التفريق بينهم على البعد.

علي أن فيهم قلة من ذوي المظهر الأوروبي، ولا شك في أن بعضهم من الأمريكيين.

وقد شعرت بالضيق في هذه الطائرة كما شعرت بالتي قبلها من رائحة الثوم المنبعثة من أفواه الناس؛ لأنهم لا يخلون طعامهم من الثوم، وحتى في هذا الصباح حيث يكون فطور بعضهم نوعاً من الحساء، وهو الشورية لا يخلو من الثوم أيضاً.

وكانت هدية الطائرة علاقة مفتاح مكتوب عليه شعار الشركة، وهذه عادة من عاداتهم في الطائرات الصينية أن يهدوا للمسافرين معهم هدية تذكارية، ولو صغيرة.

تشنغهاي وشنغهاي:

هذه المدينة التي نحن مقبلون عليها هي مدينة شنغهاي كبرى مدن الصين، وكانت تعد بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة أكبر مدينة في العالم، ولم نضع زيارتها في برنامجنا، ولم نكن نرغب في ذلك، لأننا قد زرناها في المرة الماضية، وتجولنا على مساجدها؛ بل زرنا مسجداً تاريخياً يبعد عنها بنحو ٥٠ كيلو متراً.

ولكن عدم وجود رحلة مناسبة لنا هذا اليوم من بكين إلى مدينة

(كون منغ) عاصمة مقاطعة يونان التي رغبتنا في زيارتها، هو الذي جعل الإخوة يضعون مدينة (شنغهاي) في برنامج الزيارة، وزيارتها هي للمرور بها، وإن كان ذلك يستغرق منا البقاء فيها هذه الليلة وجزءاً من صباح غد، واللقاء بالمسؤولين فيها عن الجمعية الإسلامية.

وضبط اسمها بفتح الشين وإسكان النون، ثم غين عربية صحيحة كالتي تكون في كلمتي: غير، وغلّام مثلاً.

وكنا طلبنا في برنامجنا الأصلي أن نزور مقاطعة (تشنغهاي)، وهي مقاطعة بعيدة عن مدينة (شنغهاي) هذه؛ لأنها تقع في الشمال الغربي من الصين، ومعظمها أراضٍ مرتفعة يسميها الصينيون (سقف الصين) حيث تقع مجاورة لمقاطعة التبت التي يسميها العالم (سقف العالم) لارتفاعها.

وهي مقاطعة مهمة لنا، لأن فيها عدداً من الإخوة المسلمين النشطين، وكانت ممراً لطريق الحرير القديم الذي ربما كان سبباً لدخول المسلمين إليها، وانتشارهم على أرضها.

غير أن مضيفينا أخبرونا بصعوبة الوصول إليها، فهي وإن كانت مقاطعة مهمة، فإنهم لم يخفوا القول بأن الطيران إليها مباشرة ليس متيسراً؛ بل إنهم قالوا: إن الخطوط الصينية للطيران ليست كبلادكم العربية تصل إلى كل مدينة مهمة من بكين، وإنما يكون الوصول إلى بعض المدن بطريق غير مباشرة، ويتم عبر محطة أو محطتين يحتاج الأمر فيهما إلى إنفاق قدر من الوقت، ربما لا نستطيع أن نوفره، وعلى سبيل المثال ذكروا أول الأمر أنهم كانوا حجزوا لنا تذاكر من بكين إلى مدينة (لانجو) عاصمة مقاطعة (كانسو) المجاورة لتشنغهاي، ثم في رحلة في السيارات تستغرق سبع ساعات، وذكروا أنها كلها تكون

على طرق برية غير جيدة، وكرروا هنا ما ذكروه عن الطائرة بأن الخطوط في الصين ليست كالخطوط الإزفلتية في بلادكم العربية حديثة واسعة يستطيع المرء أن يقطع منها المسافة الطويلة في المدة القليلة دون أن يحس بالتعب.

أما إذا أردنا غير هذا الطريق، وهو الطريق الجوي، فإنه يقتضي منا أن نمر بمدينة أخرى لا نريدها، ونقيم فيها وقتاً أطول.

وقررنا إلغاء زيارة مقاطعة (تشنغهاي) مكرهين بسبب ضيق الوقت، وصارت زيارة مدينة شنغهاي بديلة منها.

وضبط النطق بمقاطعة تشنغهاي هو كسر الحرف الأول من اسمها المرسوم له الحرفان، وهو (تش) كالحرف الأول من (تشرشل)، وتشارلز، بخلاف الحرف الأول من اسم مدينة شنغهاي، فهو شين عربية صحيحة.

وهذا الحرف الأول من اسم المقاطعة هو مكسور بخلاف الحرف الأول من اسم المدينة الكبيرة، فهو مفتوح.

وبعد الحرف الأول نون ساكنة، فقاف مضرية بضاد معجمة، وهي المنسوبة إلى مضر، وهي التي يسميها بعض الكتاب الآن بالجيم المصرية بالصاد المهملة، وهي المنسوبة إلى القطر المصري، ثم بقية الاسم كالأول، والاسمان يشتبهان على القارئ غير الملم بأمور الصين، وكثيراً ما يضل بينهما، فلا يعرف مثلاً ما هي شنغهاي ولا ما تعني تشنغهاي.

ورأيي أنه ينبغي لنا أن نصح ذلك بإعادة كتابة اسم المقاطعة الصينية تشنغهاي، فنكتبه بطريقة المقاطع الصينية (تشنغهاي)، وأن ندع رسم مدينة شنغهاي، وهي مدينة عالمية مشهورة على حاله، وبذلك

يزول اللبس في الكتابة لأن النطق بها فيه نوع من المغايرة يوضح الفرق بينهما في الأصل.

المرافقون:

رافقنا في هذه الرحلة إلى مدينة شنغهاي الشيخ الكريم نعمان ما شي آن نائب رئيس الجمعية الإسلامية الصينية، والأمين العام لها، والأستاذ (مصطفى يانغ جي بوه) سكرتير العلاقات الخارجية بالجمعية، وهو مترجم الرحلة؛ مع أن الشيخ نعمان يفهم العربية جيداً، ويتكلم بها بصعوبة لأنه لم يمرن على ذلك.

وسوف يكونان معنا حتى نهاية زيارتنا هذه إلى الصين.

وأما ضيافة الطائرة فإنها كيس من شراب الكمثرى، وعلبة من البسكويت وشاي صيني تعطيه المضيفة للراكب الذي يجلس بجانب الممر فيوزعه على من يليه.

ولم يقدموا عشاء في الطائرة رغم كون الوقت وقت عشاء.

ولو قدموا العشاء لنا ما أكلناه إلا إذا كان طعاماً قد أعد للمسلمين، لأن أكثرية القوم في الصين هم من الذين لا تحل ذبيحتهم، إضافة إلى كونهم يضعون في أطعمتهم أشياء لا نأكلها إطلاقاً كما تقدم.

في مطار شنغهاي:

مدينة شنغهاي هي التي كانت أكبر مدينة في العالم في وقت من الأوقات، إلا أنها تخلت عن هذه المنزلة الآن لمدن أخرى في العالم، منها مدينة مكسيكو عاصمة جمهورية المكسيك، ومدينة (سان باولو)

كبرى مدن البرازيل، ومدينة كلكتا كبرى مدن الهند التي هي أسوأ المدن الكبرى التي يزيد سكانها عن عشرة ملايين نسمة على الإطلاق.

وأشير هنا للقارئ الكريم - رعاه الله - بأنني قد كتبت عن هذه المدن في كتب بعضها مخطوط، ، وبعضها مطبوع منها ما كتبتة عن مدينة (مكسيكو ستي) في كتاب: «رحلات في أمريكا الوسطى»، وهو مطبوع، وكذلك عن مدينة (سان باولو) في كتاب: «الحل والرحيل، في بلاد البرازيل»، وعن (كلكتا) في كتاب: «مقال، عن بلاد البنغال».

ولو كان الأمر مستمر بمدينة شنغهاي كما استمر بالمدن الكبيرة الأخرى، لكان من المحتمل أن تبقى كبرى مدن العالم.

ولكن النظام الشيوعي قيد الحريات في الصناعة والتجارة، وحتى في الولادة؛ إذ أنه حدد لكل أسرة ولداً واحداً، بل وحيداً على حد تعبير ذلك القانون.

كما أن تدخله في التجارة والكسب جعل الناس لا يستطيعون بناء البيوت الشخصية الخاصة بهم في المدن، فتقلص توسع المدينة، واقتصر التوسع في البيوت فيها على الشقق السكنية الضيقة التي تقيم لها الحكومة الأبنية الكبيرة المتعددة الطوابق، وهي على كثرتها النسبية لا تستطيع أن تلبي إلا جزءاً صغيراً من حاجة السكان إلى المساكن.

مما اضطر عدداً من السكان إلى النزوح عن المدن الكبرى، والسكن في الريف إذا تيسرت لهم قطعة من الأرض، أو حتى بيت منفرد، ولو خشبياً.

وقد هبطت الطائرة في مطار (شنغهاي) في التاسعة والربع بعد طيران استمر ساعة ونصفاً.

وأعلنوا أن درجة الحرارة هي ٢٩ درجة، وهذه درجة جيدة إذا كانت مصحوبة بالجفاف، أما في حالة شنغهاي، وهي مدينة ساحلية على مياه نهرين كبيرين هي منهما كأنها على مياه بحر محيط، ولا يبعد البحر الملح عنها كثيراً، فإن الحرارة مصحوبة برطوبة لا سيما إذا عرفنا أن شنغهاي تقع وسط ريف أخضر ندي مشبع بالمياه، ولذلك لا يرتاح القادم لجوها إذا كان قادماً من مدينة بكين مثلنا؛ حيث الجو المعتدل الجاف نسبياً.

ألقموا باب الطائرة دهليزاً متحركاً في المطار وجدنا عند بابه الداخلي جماعة من الإخوة المسلمين على رأسهم الأخ الحاج إبراهيم مادينغ ينغ رئيس الجمعية الإسلامية في شنغهاي الذي كان مضيفنا في الرحلة السابقة قبل ثلاث سنين وشهرين، والحاج محمود عبد الأحد نائب رئيس الجمعية.

والحاج محمد سليم جين زي يوان مدير شركة شنغهاي الإسلامية.

والحاج حسن جانغ زي جن سكرتير الجمعية الإسلامية.

ولكون الرحلة داخلية، فقد وجدناهم أعدوا موكباً من سيارات حديثة فاخرة ركبناها فوراً، وتركوا بعض إخوانهم يحضرون الأمتعة بعد ذلك.

وقد لاحظنا فور وصولنا أن أشياء حسنة المظهر كثيرة قد حدثت في هذه المدينة، فمثلاً أدخلت على المطار تحسينات إضافية جديدة حتى غداً أفخر من مطار العاصمة بكين، كما جرى تحديث كثير من

مرافقه وأبهائه وأثائه.

كما وجدنا مستقبلينا من الإخوة المسلمين في مظهر من اللباس أحسن بكثير مما كانوا عليه في السابق حيث كنا رأيناهم يرتدون الزي شبه الموحد للصينيين في المرة السالفة، أما هذه المرة فإن عليهم بدلاً إفرنجية كاملة فاخرة.

ولا شك في أن هذا كله أثر من آثار نسمة الحرية التجارية التي تهب الآن على الصين، وهي في هذه المدينة الصناعية الكبيرة أكثر ظهوراً لكثرة ارتياد الأجانب لها، والشراء من مصنوعات الصين ومنتجاته الرخيصة التي تصدر منها.

أنزلونا في قصر خاص ملحق بفندق كبير لا يبعد كثيراً عن المطار يسمى فندق (لون باي)، وقال الأخ الحاج إبراهيم رئيس الجمعية الإسلامية في شنغهاي: إن هذا القصر كله لنزولكم، ليس فيه معكم أحد.

وأجلسونا أول الأمر في قاعة اجتماع واسعة في القصر سقفاً يعادل ارتفاع طابقين، إذ غرف النوم في الطابق الأعلى، وقبلها مقدمة بمثابة الشرفة تطل على قاعة الاجتماع هذه.

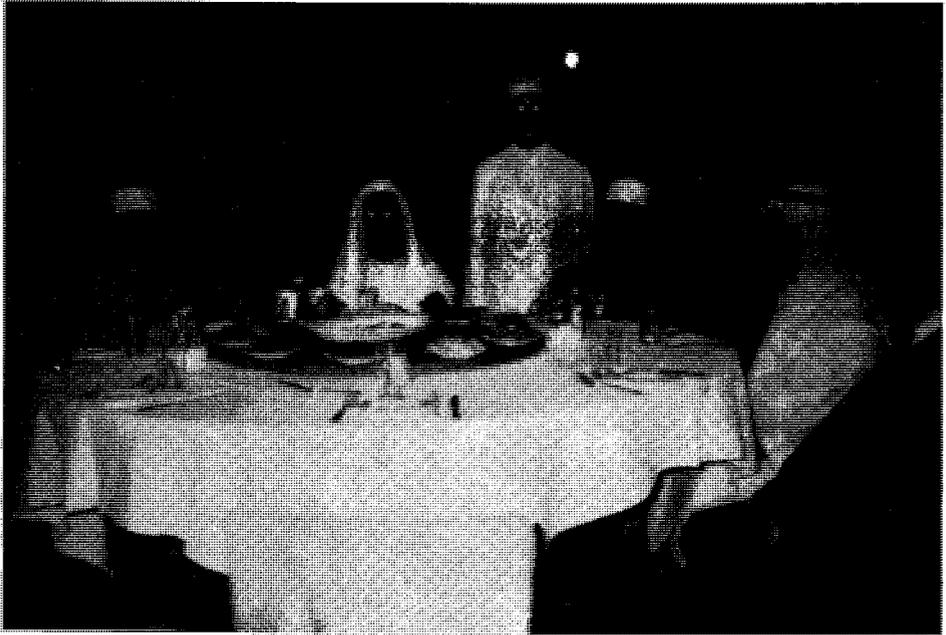
وغرف النوم فيه مثل غرف الفنادق الفاخرة إلا أنها على طراز قديم مثل القصر تفوح منه روائح التاريخ.

وذكروا أنه كان لأحد كبار الإنكليز وأن بناءه كان منذ ستين سنة عندما كان الإنكليز يستعمرون مدينة شنغهاي، وهو الآن ملك الحكومة مثل الفندق الذي يتبعه، ومثل سائر القصور والأبنية الفاخرة.

عشاء شنغهاي:

استرحنا قليلاً بعد أن بحثنا برنامج إقامتنا القصيرة في مدينة شنغهاي التي زرناها في المرة السالفة، ولا غرض لنا بزيارتها هذه المرة، وإنما مررنا بها لعدم وجود طيران مباشر مناسب من بكين إلى مقاطعة يونان.

ثم أحضروا طباًخاً مسلماً سلم علينا وقالوا: هذا الطباخ الذي طبخ عشاءكم، وسيطبخ الفطور، وهو مسلم ماهر.



الطباخ المسلم في قصر الضيافة في شنغهاي واقف على يساره
رئيس الجمعية الإسلامية وعلى يمينه المؤلف

ثم جاؤوا بالعشاء متعدد الأنواع، غريب الصحون كما سبق في غيره من حيث الغرابة، وإلا فإنه ليس من الضروري أن يكون العشاء في الأماكن المختلفة من الصين مماثلاً لغيره.

إلا أن الشيء الذي لم نستسغه أنه أحضر لحمًا محلى بالسكر، ومعه فطر الغابات الذي هو بمثابة الفقع عندنا، فمعتنا حلاوته المصنوعة من الاقتراب منه.

وقد أحصينا أنواع الطعام لأنها جاءت مكتوبة، وأضفنا إليها مقدمات المائدة، فبلغت سبعة وعشرين نوعاً، وختامه حساء أي شوربة وضعوا فيها قليلاً من الخضرات.

ثم كان النوم في الغرفة الفاخرة من هذا القصر الإنكليزي الذي كان بناؤه من الخشب، وكله من الأعمال اليدوية حتى ما جدد فيه، محافظة على أصله، حتى مفاتيح الإضاءة ونحوها الخاصة بالمصاييح كلها من الخشب من عمل الأيدي.

يوم الثلاثاء ٢٠ شوال/١٤٠٧هـ.

حديقة قصر الضيافة:

نزلنا إلى حديقة الفندق مبكرين، وهي حديقة واسعة بني القصر في ركن منها وفيها بحيرة صغيرة طبيعية، كنت أخطط أن يكون في بيتي في مدينة بريدة مثلها؛ إذ مستوى الماء في الأرض في بريدة يقل عن متر واحد، فإذا حفرنا بحيرة في حديقة المنزل التي هي واسعة تبلغ نحو عشرة آلاف متر، فإن الماء يظل فيها، ولا يحتاج إلى إبدال أو تغيير إلا إذا كانت فيها أسماك، فإنها تحتاج إلى تجديد الماء.



حديقة قصر الضيافة في شنغهاي

ورأيتهم في هذا القصر الإنكليزي الصيني حفروا البحيرة بالفعل، لأن مستوى الماء هنا في جوف الأرض قريب من السطح، ولكنهم من أجل أن يمدوا البحيرة بمياه جديدة سلطوا عليها مياه الأمطار التي تهطل على القصر والأنحاء الأخرى، وهذه مزية عندهم لا نستطيع مثلها في بلادنا لكثرة الأمطار هنا، إلا أنها ليست التي تمتد البحيرة بالمياه، وإنما تمدها به الأرض، وتحافظ الرطوبة الشديدة على إبقاء الحشائش والأشجار في البحيرة نضرة قوية.

ورأينا بعض الأشجار فيها بالغة العلو، وبعضها ضخمة جداً،

فأخبرنا الحارس الموجود في القصر أنها غرست قبل ثمانين سنة.

فقلت: وهذا أيضاً يمكننا أن نوجد له منافساً من أشجار بلادنا، فقد كان في بيت لنا في شمال مدينة بريدة، كان جدي قد بناه، نخلة من السكري غرسها في عام ١٢٠٧هـ، وضبط ذلك بأنه قبل وقعة المليدا في القصيم بسنة، وهي وقعة معروفة مؤرخة في عام ١٢٠٨هـ.

وقد بقيت هذه النخلة، أكل منها جدي - رحمه الله - حتى توفي، ثم والدي من بعده، ثم أنا فترة قبل أن أنتقل من ذلك البيت إلى بيت أوسع منه.

وبقيت تثمر وتطول حتى أصابها حريق في عام ١٤٠٦هـ بعد أن عمرت مائة سنة إلا سنة واحدة، وصار طولها مضرب المثل في حارتها.

وهناك نخيل أطول منها في السماء، لا شك في أنه أطول منها عمراً. وقد نشروا مقاعد حول موائد في حديقة هذا القصر، وكلها من الحجارة المنقوشة، مثلها في ذلك مثل أساس البيت وأركانها. ثم كان طعام الإفطار فيه شبه من طعام العشاء؛ حيث قدم فيه الحساء (أي الشورية)، ولحم مشوي.

مغادرة شنغهاي:

بعد جلسة في هذا القصر التاريخي مع الإخوة العاملين في الجمعية الإسلامية في شنغهاي غادرنا قصر الضيافة الضخم التابع لفندق (لون باي) قاصدين مطار شنغهاي القريب، فرأينا صفوف الداخلين لقاعة الترحيل طويلة متراسة، وذلك نتيجة لسياسة الانفتاح التي ساعدت على وصول أعداد من السياح والتجار من أنحاء العالم إلى الصين.

وكان الوقوف في هذه الصفوف متعباً لولا أن الإخوة أروا المسؤولين الجواز (الدبلوماسية) معنا، وأفهموهم أننا وفد رسمي، فقدمونا على غيرنا في الدخول.

ثم أدخلونا إلى غرفة كبار الزوار في المطار، وهي معتادة لم يكن فيها معنا غيرنا أحد، ولم يكن فيها من الموظفين إلا فتاة لم تبال بضيوفها، ولم يقدموا فيها أي ضيافة، وليس فيها حمام خاص.

ولكنها كانت مكاناً مريحاً أحسن من المقاعد الملس المصنوعة من اللدائن في قاعات المغادرة، أو في المطار، وهي رغم كثرتها واتساع القاعة تكاد تمتلئ بالجالسين.

لا سيما أنهم أعلنوا عن تأخر قيام طائرتنا التي تسافر إلى (كون منغ) عاصمة مقاطعة يونان، ثم ودعنا الإخوة الكرام من أهل شنغهاي، وداعاً كريماً كما كان استقبالهم كريماً.

قامت الطائرة في الثانية عشرة والدقيقة الخامسة ظهراً متأخرة نصف ساعة عن الموعد المحدد في الأصل، وهي من طراز بوينغ ٧٣٧ الأمريكي الصنع، وكانت عندهم طائرات سوفيتية الصنع، أو هي كذلك في الأصل، ولكن الصينيين كانوا يصنعون أجزاءها، ولم نرهم في هذه الزيارة استعملوا منها شيئاً؛ بل كانت كل طائراتهم النفثة التي ركبنا بها من صنع الدول الغربية، ما عدا الطائرات المروحية فهي صناعة صينية.

وقد أعلنت المضيعة أن المسافة من شنغهاي إلى (كون منغ) تبلغ ٢٧٦٩ كيلومتراً تقطعها الطائرة في حوالي ثلاث ساعات.

كانت الطائرة مليئة بالركاب وكلهم صيني عريق؛ إلا أن

مناظرهم تقل عن مناظر أهل الشمال الصيني مثل أهل بكين، وتيانجين الذين يتميزون بالنضارة، فهؤلاء أكثرهم من أهل يونان التي هي مقاطعة جنوبية غربية.

ومع ذلك هم صينيون، تجزم بذلك من أول رؤية لهم، وهذا هو شأن هذا الجنس الصيني الذي يتميز عن غيره من أجناس الناس بتقاسيم ظاهرة واضحة، وإن كان توجد داخله فروق يعرفها أهل الصين أنفسهم أكثر من غيرهم، ويعرفها من تأمل الجنس الصيني وعاش بينهم فترة مناسبة.

وتكررت من الطائفة رؤية منطقة شنغهاي الخضراء الندية العامرة بالقنوات المائية الكثيرة التي ترى بعضها كما يرى النهر الصغير.

ثم قدموا الغداء، وكان الإخوة أخبروهم أننا مسلمون لا نريد شيئاً مطبوخاً إطلاقاً، والغداء قدموه في علب من الورق المقوى كما كان مضيفو الطائرات يقدمون الطعام عندنا في طائراتهم قبل ثلاثين سنة.

فأحضروا لنا نحن الأربعة علباً خاصة، في كل واحدة بيضتان، وقطعتان صغيرتان من الخبز، وكيس من سمك متعفن، أظنه قصد منه أن يؤكل وهو كذلك كالفسيح الذي يأكله المصريون في شم النسيم، وكيس صغير فيه مسحوق دجاج حسبما كتبوا عليه، فغضنا ذلك ولم نكن بحاجة إليه، ومع ذلك قطعة من حلوى (الشكولاته)، ولم أستطع استساغتها أيضاً لראءة صنعها.

حتى إنهم جاؤوا بعد ذلك بقهوة صينية خفيفة جداً، وفيها شيء من السكر، وشاي صيني معتاد خالٍ من السكر، ولا يحضرون معه سكرًا، لأنهم لا يضيفون السكر إلى الشاي مطلقاً.

وجاؤوا بكيس من اللدائن فيه شراب من عصير البرتقال، ثم جاؤوا بصحن فيه حبات من الحلوى يأخذ منها الراكب، وعادتهم ألا يخلوا طائراتهم من حبات من الحلوى تهدي للركاب، ولو كانت الرحلة قصيرة، ولاحظت أن الركاب يكثرون من أخذ الحلوى، فلا يقتصر الراكب على حبة واحدة كما هو المعتاد في الطائرات الأخرى، وإنما يأخذ في كفه دفعة منها.

وأما المضيفات، فإنهن هنا كما هن في غير هذه الطائرة، لا يباليين بمجاملة الركاب، فلا ابتسام ولا مجاملة حتى الخدمة، وحتى ما يعطاه الراكب تعطيه المضيفة للذي بجانب الممر، فيوزعه على الذين يلونه، وليس بينهن مضيف؛ بل هن أربع مضيفات.

ويذكر هنا أن جميع مقاعد الطائرة هذه هي سياحية، وليست فيها درجة أولى.

كانت الطائرة تطير فوق سحب كثيف ما لبثت أن تجاوزته، غير أنها كانت قد ارتفعت، فلم نتبين ما تحتنا، ثم ران سحب آخر على الطريق.

وعند الوصول اخترقت سحباً مطبقاً، وهي تتدني إلى الأرض فاتضحت الأرض الصينية في هذا الجزء الغربي أرضاً خصبة تشبه الأرض الاستوائية بخضرتها، وبحمرة التربة فيها، وبالطرق الترابية التي تخترق أرضها.

وفي هذه الطرق يبين لون الأرض أحمر أو أصفر قليلاً، أما ما عدا ذلك، فإن الخضرة الكثيفة قد سترته.

ويغمر الريف تلال خضرة؛ إلا أنها ليست كثيفة الخضرة، وفي

السهول الحقول حقول الأرز ومناطق مياه متعددة.

وقد زرعوا التلال بمدرجات يظهر أن أكثرها لزراعة الخضرات. والبيوت في هذا الريف القريب من المطار يبدو أغلبها مبنياً من الطين، ورأيت في بعضها الثياب المغسولة منشورة فوق الأعشاب على وجه الأرض كما يفعل الأفريقيون في البلدان الاستوائية الخصيبة. وبينما كنا نقبل على المطار بسرعة كانت المضيفة تقول: إن درجة الحرارة في (كون منغ) هي ٢٦ مئوية.

ورأينا المطار وفيه عدد من الطائرات الصغيرة، وفتحت المضيفة مذيع الطائرة على أغان محلية من هذه المقاطعة التي نصل إليها، وهي (يونان)، فاتضح لنا طابعها، وهو يشبه الطابع التايلندي من الغناء الذي ألفنا سماعه من دون أن نفهم معانيه.

ولا شك في أن ذلك صحيح نظراً لقرب المنطقة من حدود تايلند الشمالية، فهذه المقاطعة مجاورة لبورما جارة تايلند في منطقة كانت مثار نزاع وجدال في التاريخ، بل مثار حروب ونزاعات بين تلك الدول.

وقلت في نفسي عندما سمعت لهجتهم في الغناء: ألا يؤكد هذا كون التايلنديين مثل الماليزيين هم في الأصل من أهل جنوبي الصين؟ وقد يأتي شيء من الحديث عن هذا عندما نصل إلى مدينة (قوا نقشو) آخر مدينة لنا في الصين في هذه السفارة.

في مطار كون منغ:

حطت الطائرة في مطار (كون منغ) في الثالثة إلا عشر دقائق ظهراً، ووجدنا في المطار الأخ سليمان ناقو تنغ نائب رئيس الجمعية

الإسلامية في مقاطعة يونان، ومعه اثنان من إخواننا؛ أحدهما (الحاج إسماعيل مو دونغ) رئيس الجمعية الإسلامية لمدينة (كون منغ)، وآخر من العاملين في الجمعية الإسلامية.

بعد الترحيب كان ركوب السيارات مباشرة إلى المدينة، ووكلوا أحدهم باستخلاص الأمتعة، وإحضارها للفندق، ولم نمر بقاعة كبار الزوار ولا غيرها من الأماكن بالمطار.

والأخ (سليمان ناقو تنغ) يعرف قدرأً من العربية، ولكننا ونحن في عجلة من أمرنا حول المعلومات عن المسلمين هنا، وعن البلاد عامة كنا نفضل أن يكون الحديث مترجماً، فذلك أسرع وأوضح.

سارت السيارات مع شارع ملاصق للمطار ضيق، يشق الريف المزروع مباشرة، إذ يقع على جانبه مزارع للخضرات، وهي ظاهرة من معرفة المزروع، ومن صغر أحواضها.

وهناك أحواض صغيرة من القمح أيضاً، فهذه البلاد، وإن كانت واقعة في الجنوب النسبي، فإنها مرتفعة عن سطح البحر ما يجعل القمح يزرع فيها، ولكن الأرز أكثر وأجود.

وعلى الطريق بعض الأحواش والأفنية المبنية بالأجر.

اخترقنا محلة دون المدينة ليست جميلة ولا معتنى بها، ولا يزال رصيف الشارع الممتد حتى بين هذه البيوت ترابياً، والبيوت القديمة من طابق واحد ذات سقوف مماله إلى جهة واحدة، وبينها بعض الأبنية المتعددة الطوابق (عمارات)، وهي غير واسعة ولا كبيرة.

عاد الريف إلى الظهور على جانبي الطريق بعد هذه المحلة التي

أسموها قرية، وظهر خصب الريف من شمول الزراعة له كله، وشاهدنا من المزروعات الذرة وخضروات متعددة كالثوم.

ثمانية أنهار في المدينة:

قال الأخ سليمان عندما أبديت له إعجابي بخصب هذا الريف: إن مدينتنا (كون منغ) فيها ثمانية أنهار.

فقلت له: أهي فروع لنهر واحد أو نهريين، أم هي أنهار مستقلة؟

فأجاب: بل هي ثمانية أنهار منفصلة، كل واحد منها مستقل عن الآخر.



منظر من ريف كون منغ الأخضر

مدينة كون منغ:

وصلنا شارعاً رئيساً فيها، فتغيرت المناظر؛ إذ وجدناه شارعاً جيداً واسعاً تحف به أرصفة مبلطة نظيفة، وتحيط به (عمارات) إسمنتية عالية حسنة المظهر، بينها بعض البيوت القديمة المبنية بالآجر ذات سقوف خشبية صقيلة.

ورأينا فيه عربات تجرها الخيول رغم العناية به، كما رأينا بناء صينياً كبيراً مزوقاً بأصباغ فاقعة أكثر ما فيها ظهوراً للون الأحمر والأصفر، وذكروا أنه مطعم جديد، وهو للصينيين الكفار، وإن بناءه بهذا الشكل يعدونه دالاً على الرواج الاقتصادي في البلاد، ولا شك في أنهم لم يروا البلدان التي يعمها الرواج الاقتصادي من التي يقطنها إخوانهم الصينيون مثل سنغافورة، وتايبيه، وإلا لما عدوا وجود هذا المطعم بهذه العناية في مظهره من علامات الرواج، إلا إذا أرادوا بذلك رواجاً نسبياً لم يكن موجوداً عندهم إبان طفوان الثورة الشيوعية المسماة بالثورة الثقافية الكبرى.

ثم مررنا بميدان واسع، في وسطه تماثيل مزينة، ورأينا السيارات في هذه الشوارع قليلة، أكثرها سيارات نقل كما هو عليه الحال في سائر المدن الصينية.

ثم دخلنا شارعاً واسعاً منسقاً تسير في وسطه السيارات، وتسير الدراجات على جانبيه، وتحف به المحلات التجارية التي هي ملك للحكومة هي وما فيها، وهي محلات للبيع فقط، أي أنها تباع البضائع للناس، وتمدها الحكومة بما تحتاج إليه من المصانع، وما تستورده من خارج المدينة، وربما من خارج المقاطعة، في مقابل ما تصدره المقاطعة إلى

الجهات الأخرى من الصين.

واللافتات هنا كلها بالصينية، لأنها اللغة الوحيدة في مدن هذه المقاطعة، وإنما توجد لغات أخرى محدودة في مناطق ريفية، ولكن حتى أهل هذه المدينة، وهم صينيون، يتكلمون الصينية وحدها، فإن لغتهم تعتبر لهجة غريبة من لهجات اللغة الصينية، ولذلك لم يستطع مرافقانا، وهما من بكين، التفاهم معهم إلا إذا تكلموا بلهجة بكين، وهي اللغة التي تعتبر بمثابة اللغة الفصحى عندنا، يتفاهم بها الصينيون فيما بينهم في طول البلاد وعرضها.



عدد من الدراجات في الشارع الرئيسي الواسع في كون منغ

ثم دخلنا أهم شوارع المدينة، وهو شارع (دون فون)، ومعناه: الريح

الشرقية، هكذا ترجموه لنا، وربما كان معناه: النسيم الشرقي، أو نحوه، فلم يحسنوا ترجمته كما يقول قائل مثلاً في ترجمة جملة: (صبا نجد): بأنها الريح الجنوبية الشرقية، وهذا نقل حرفي لصبا نجد، وليس ترجمة فقهية لهذه الجملة.

وهذا الشارع حافل بالسيارات بالنسبة إلى وجود السيارات في الصين، كذلك يحفل جانبا بهنهرين من الدراجات: أحدهما يمين الشارع، والآخر يساره، يفصل بينهما وسط الشارع الذي تسير فيه السيارات، ويفصل بين كل نهر منهما وبين وسط الشارع حاجز من الرصيف المغروس بأشجار وارفة من أشجار الظل النضرة.

فندق كون منغ:

كون منغ هي عاصمة مقاطعة يونان الشهيرة الواقعة في غرب الصين الجنوبي على حدود بورما، وسوف يأتي تعريف بهذه المقاطعة وشيء من معلومات عنها.

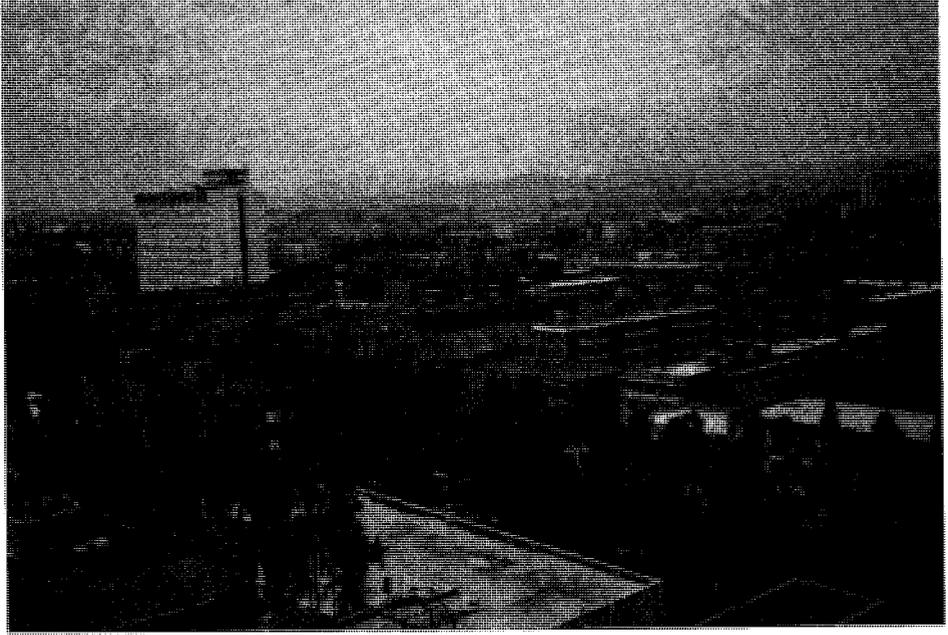
وجدناهم قد حجزوا لنا في فندق رئيسي كبير فيها اسمه (فندق كون منغ) على اسم المدينة.

وكانت غرفتي في الطابق الحادي عشر من الفندق تطل على منظر جميل من جنوب المدينة، كما تطل نافذة أخرى عريضة في قاعة الطابق على الجهة الشمالية.

وقد بدأت بالتقاط صور للمدينة من الجهتين.

تتألف غرفتي من غرفة للنوم، فيها سريران، وحمام، ومن قاعة للجلوس يفصل بينها وبين غرفة النوم باب عليه ستارة من القماش سهلة

الإزاحة.



من نافذة الطابق ١٢ من الفندق لجزء من مدينة كون منغ

وأغرب ما في قاعة الجلوس كثرة التحف، والمقتنيات الصينية فيها، سارع مرافقونا إلى إبعاد التماثيل المجسمة التي ترمز إلى بعض الاعتقادات الخرافية لأهل المنطقة، وبقيت فيها عدة تحف من زهريات حاملات القناديل (شمعدانات).

وفيهما أباريق للشاي على عدة موائد، وحافظات الماء الحار (الزمزميات) موجودة مع علب الشاي الصيني دون سكر.

وكان أول ما عمله الشيخ (سليمان ناغو تنغ) نائب رئيس الجمعية الإسلامية، أن أحضر لنا في غرفنا جدولاً بمواقيت الصلاة باللغة

الصينية ما عدا الأرقام، فهي بالأرقام العربية التي يسميها الإفرنج بهذا الاسم، ونحن نسميها بالأرقام الإفرنجية، كأنما نريد أن نبرأ من شرف هذه الأرقام التي يستعملها الناس، وينسبونها إلينا في العالم الغربي والشرقي أيضاً، فليس للصينيين أرقام مثلها في لغتهم حتى إنهم يكتبونها هي، وليس بالكتابة الصينية.

وقد حملته على إيضاح مواقيت الصلاة غرابة التوقيت في هذه المقاطعة، فهي تبعد عن مدينة بكين بنحو أربعة آلاف كيلو متر جهة الجنوب الغربي، ومع ذلك فإن كل المواعيد هنا هي بتوقيت بكين، فلم نغيّر ساعاتنا عند ما وصلناها، ولذلك بدت أوقات الصلاة غريبة إذا قيست بالتوقيت المألوف، وهو الصحيح في البلدان الأخرى، فمثلاً صلاة الفجر السابعة إلا ثلاثاً، ولو أخذنا بتوقيت البلدان الأخرى المحاذية لمقاطعة يونان هذه، فإن هذه الساعة تكون الخامسة إلا ثلاثاً، والظهر كما كتبوه في الجدول في الثانية والنصف، والعصر في الثامنة وعشر دقائق، والمغرب في التاسعة وعشر دقائق، والعشاء في العاشرة والنصف.

وسبب هذا كله المتابعة لتوقيت بكين رغم الفارق الكبير في خطوط الطول ما بينها وبين هذه المقاطعة، ثم بحثنا برنامج إقامتنا في هذه المقاطعة حتى صباح الخميس موعد مغادرتنا إلى مدينة (قوانقشو) التي كنا نعرفها قديماً باسم (كانتون).

وكان الفندق قد وضع في الغرفة ضيافة من فاكهة هذه البلاد، وهي أصابع الموز الجيد يؤكل قبل شرب الشاي.

جولة كون منغ:

في الخامسة، وبعد استراحة كاملة، خرجنا في نزهة في المدينة

تتضمن المرور ببعض معالمها الرئيسية، فكان من ذلك أن صورنا شارع الريح الشرقية، أو نسيم الشرق، والتيقطت صوراً للدراجات وهي تسير بمدرجها الأيمن والأيسر من هذا الشارع المزدان بأشجار عالية مورقة.

وهذا الشارع بجماله وتنسيقه يمكن أن يمثل جهد البلدية والحكومة المحلية، وليس الشارع الذي سلكناه عندما وصلنا من المطار، فذلك ريفي مهمل حتى يصل إلى المدينة.



الرصيف العريض في شارع الريح الغربي في كون منغ

ثم وصلنا ميداناً واسعاً منسقاً يوصل إليه من شارع الريح الشرقية الذي يقع عليه فندقنا، ويسمى ميدان الثقافة العمالية، وفيه نصب للعمال، ومنه يمتد أو يبدأ شارع آخر اسمه شارع الريح الغربية كما

قالوا، وهو مقابل لشارع الريح الشرقية إن لم يكن النعت بالشرقية والغربية للشارع وليس للريح، فتكون صحة الترجمة: شارع الريح الغربي.

وفي ميدان الثقافة العمالية من الغرائب برج واسع فيه أصص الزهور صفوفاً متناسقة حتى يخيل إليك أن هذه الزهور وما بها من النبات إنما نبتت في الهواء، أو في رفوف في هذا البرج الواسع.

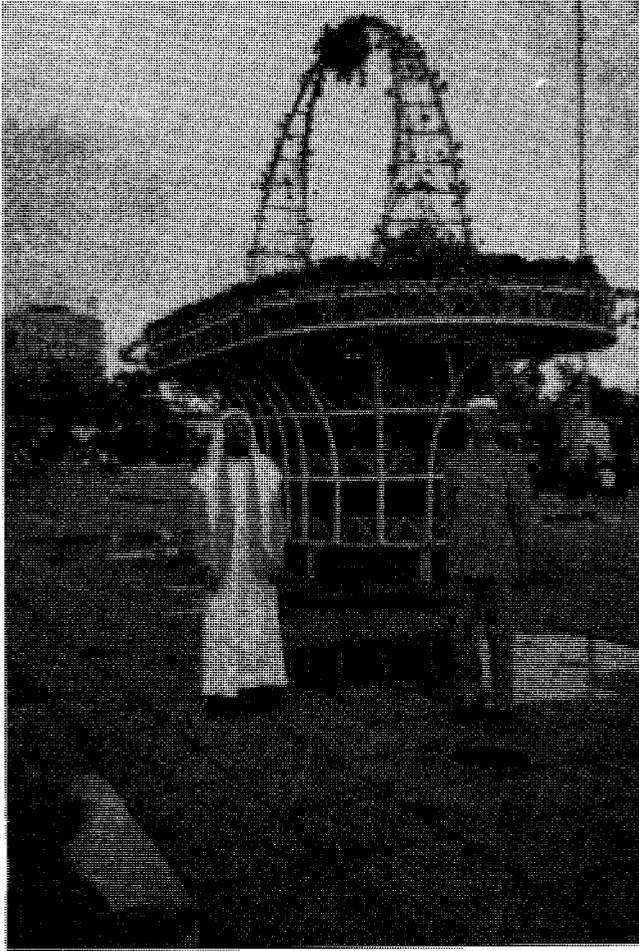
وفيه أيضاً أشجار قديمة ضخمة قد قطعوها بعد ارتفاع ثلاثة أمتار تقريباً، فصارت أشبه ما تكون بالجدوع، أو الأعجاز القائمة من الأشجار، وذلك لينوعوا أشجار الشارع التي هي خضراء مزدهرة، فأرادوا أن يجددوا في منظرها.

والميدان مثل هذا الشارع مزدحم بالناس سواء منهم راكبو الدراجات والمشاة، ومن ملاحظتهم يتبين المرء الفرق ما بينهم وبين أهل الشمال الصيني، كأهل بكين وتيانجين مثلاً، فيرى أن هؤلاء اليونانيين - ونرجو أن لا تشبه نسبتهم بالنسبة إلى اليونان فلا علاقة لهم بهم، وتفرق بينهم شدة في النون الأولى - هم أحسن قامات، أي أحسن استقامة في الأجسام، وإن شئت التعبير الأدبي قلت: إنهم أرشق قامات من الشماليين، إلا أن الصباحة في الوجوه في الشماليين أكثر.

مع أن هؤلاء الجنوبيين لم يؤثر موقع بلادهم الواقع جنوباً سمرة شديدة، فيكادون يكونون في لون بقية أهل الصين، وإنما ذلك في نضارة الوجوه التي يسببها تأثير الجو، وإلا فإن الصينيين على اختلاف مواقع بلادهم لا تكاد تلاحظ بينهم فروقاً واضحة في اللون.

وكذلك التقاسيم تجد أنها هي التقاسيم الصينية لا تكاد تختلف

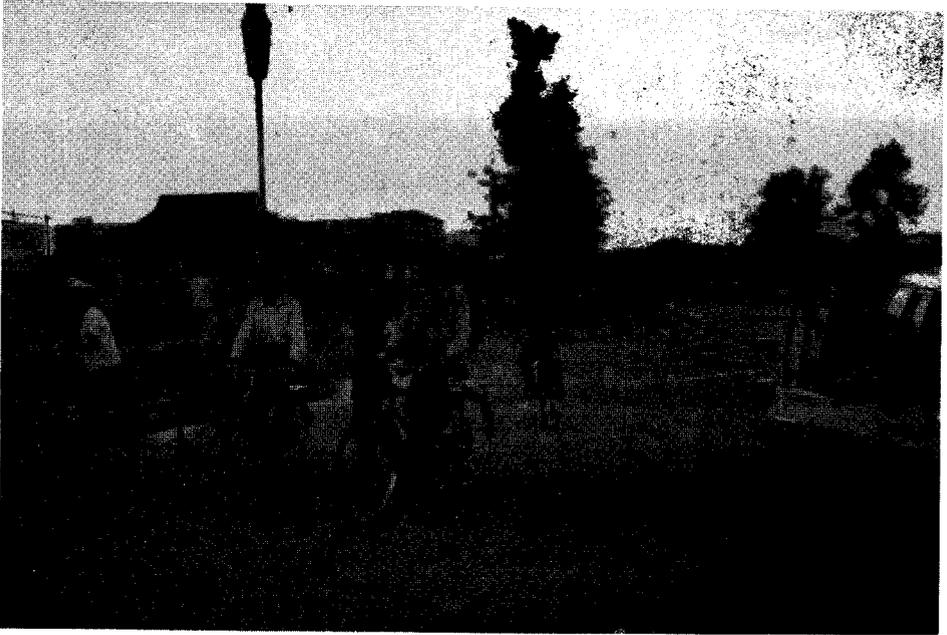
في أية جهة من جهات الصين، مثلها في ذلك مثل الكتابة الصينية التي وإن اختلفت معانيها باختلاف لهجات الصين في المقاطعات المتعددة، فإنها لا تكاد تختلف في الكتابة.



أمام برج الزهريات في ميدان الثقافة العمالية في كون منغ مع
 سليمان نائب رئيس الجمعية الإسلامية في مقاطعة يونان
 وكل هذا الذي ذكرناه عن حالة الوجوه ولون الأجسام إنما هو

فيمن شاهدناهم هنا من أهل المدينة، وربما اختلف الوضع بالنسبة إلى سكان الأرياف، غير أن التجربة علمتني أن الصينيين حتى أهل الريف لا يكادون يختلفون عن أهل المدن بشيء.

وقد امتلأ طريق الدراجات بأعداد ضخمة من الدراجات اعتدت على تسميتها بالفيضان، وذلك أن العمل في بعض المصانع ينتهي في الخامسة، فينصرف العاملون فيها إلى بيوتهم، وإلى قضاء حاجاتهم من أسواق المدينة.



سيل الدراجات في شارع في كون منغ

أما الدوائر الحكومية فإنها تنتهي بعد ذلك، وقد لاحظوا ألا يكون انتهاء العمل ودخوله موحداً في كافة المصانع والدوائر

الحكومية مراعاة لعدم الازدحام في الشوارع والطرق، وبخاصة الازدحام في ركوب الحافلات، أو في مسيرة الدراجات.

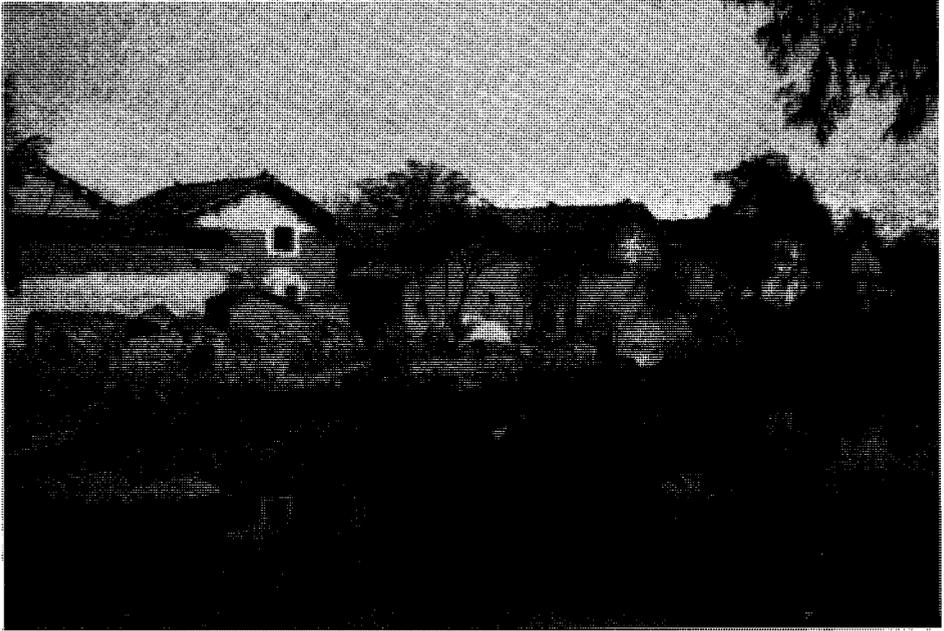
والذين رأينا منهم هنا كلهم نظيف الثوب والبدن، لا ترى عليه علامة من علامات البؤس الظاهرة في بعض البلدان الفقيرة مع أن الشعب هنا يعتبر من الفقراء بالنسبة إلى دخل الفرد من الثروة.

ويستوي في هذه النظافة في الثوب والبدن رجالهم ونساؤهم وأطفالهم، كما أنهم أيضاً على مقدار كبير من الأدب في الشوارع والميادين، فلا مخاصرات بين الشبان والشابات، ولا حملقة خارجة عن نطاق المعقول في الغريب، حتى وإن كان منظره غريباً كمنظرنا في ثيابنا العربية، التي كنت أرى النساء ينظرن إلى مقدار طول الثوب عليّ.

على ضفة المنظر الكبير:

فارقنا وسط المدينة الجيد النظيف وأهله معه، وقبل أن نفارقه رأينا عربة يجرها حصان، وفي شارع بعده كانت هناك عربة يجرها رجل لا حصان له، ولكن زميلاً له يدفعها من الخلف، يعاونه على جرّها وهي محملة بما لم أتبينه بسبب سرعة السيارة.

ثم وصلنا إلى نهر غير واسع، وهو من جملة أنهار موجودة في هذه المدينة الصينية واسمه (دا كوان)، وفسروه لنا بأن معناه: (المنظر الكبير)؛ لأن (دا) في الصينية: كبير، و(كوان): منظر، مع أن منظره في المنطقة التي وقفنا عندها ليس كبيراً، بل هو نهر ضيق المجرى وعليه بيوت قديمة من الطين سيئة المظهر، وضافه متسخة، ولكنه يتسع بعد ذلك.



البيوت القديمة في كون منغ على ضفة نهر المنظر البديع منعكسة أيضاً على مياه النهر

وصورت صورة للبيوت القديمة على ضفتيه، ثم سرنا نواكبه وهو يدخل حديقة كنا نقصدها، فيتسع مجراه عند دخولها.

حديقة داكوان لو:

و(دا كوان) هو اسم النهر الذي وصلناه قبل قليل، و (لو) فسروها بأنها عمارة، أو منظر بديع، كأنما كان ذلك النهر في القديم عاري الضفتين عن العمارة حتى يصل إلى مكان هذه الحديقة، وإن كان هذا غير ظاهر بسبب كون الحديقة أبعد عن مركز المدينة من أول النهر الذي مررنا به، إلا إذا كانت عمارتها منفصلة عن عمارة المدينة من

حيث المسافة.

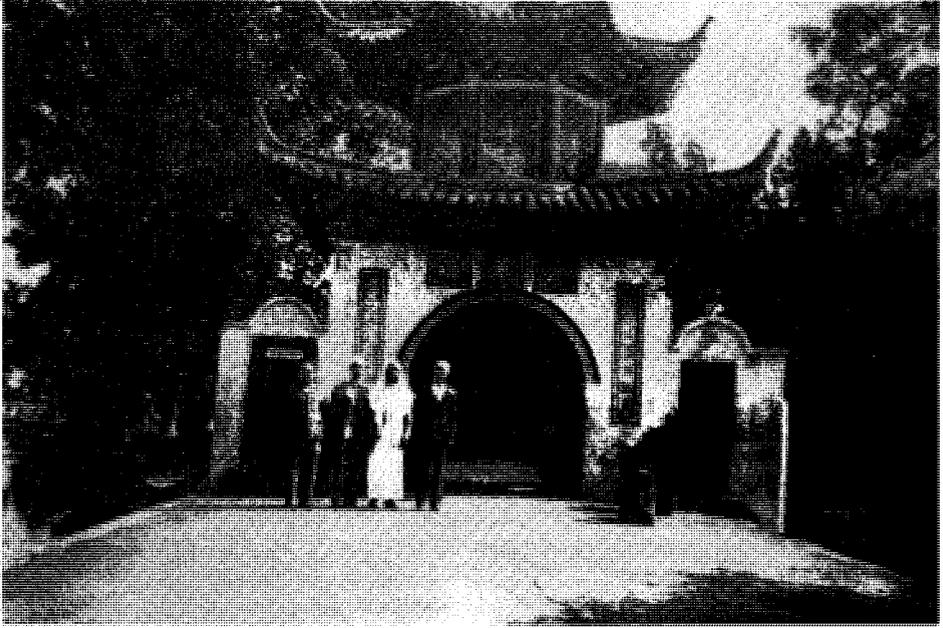
ومن مدخل الحديقة أحاطت بنا نساء عليهن مظهر الفلاحات الخشنات اللاتي اعتمرن قبعات عريضة، وكلهن يبتدرن الداخلين إلى الحديقة يعرضن عليهم الركوب في قواربهن، والتجديف في البحيرة الموجودة في الحديقة.

ويظهر عليهن القشف والخشونة، ولذلك قالوا: إنهن في الأصل من الريفيات.

تركناهن ودخلنا الحديقة فكان أول ما رأيناه فيها جزءاً صغيراً من بحيرة كبيرة متشعبة، وقد نما في هذا الجزء من مياه البحيرة نبات من نبات الماء له زهور جميلة ذكروا أنهم ينتفعون منه بأكل حبوب تشبه حبوب الحمص الكبيرة تتقع في ماء فيه سكر، وذكروا أنها مفيدة لتقوية الجسم.

قبل الدخول إلى الحديقة مباشرة بنوا قوساً صينياً رمزياً، بمعنى أنه مجرد رمز، أو لمجرد إبراز هذا الفن الصيني في البناء، وإلا فإنه ليس بعده ما يدخل إليه منه، لأن ما يليه من يمين أو شمال فراغ في فراغ من الحديقة.

التقط الإخوة صوراً تذكارية، كما قابلنا أربعة رجال وامرأة على صدر كل واحد منهم شارة حديدية كقطعة النقود المعدنية مكتوباً عليها بالعربية وحدها: (المسلم الصيني)، ذكروا أن أحد أئمة المساجد أعطاهم إياها، وذكروا أنهم مسلمون من تركستان الشرقية، وطلبوا صورة تذكارية معنا.



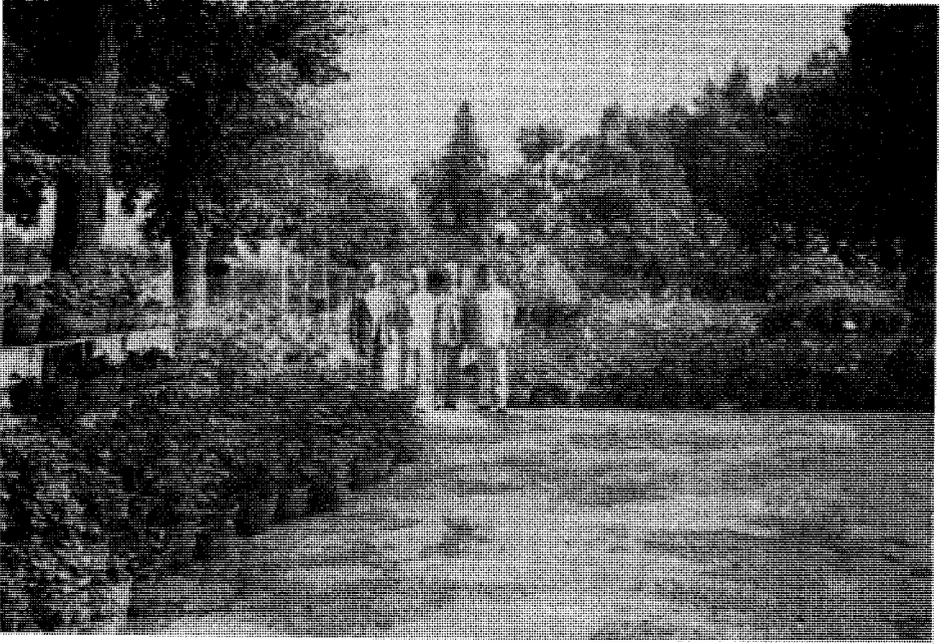
في داخل حديقة (داكون لو) في كون منغ أمام بوابة صينية مع بعض المسلمين الذين التقينا بهم هناك

وقد جعلوا هذه بمثابة الشعار للمسلمين، وإن لم يكن شعاراً عاماً.

فيض من الزهور:

مما يلفت نظر الداخل إلى هذه الحديقة كثرة الزهور فيها، وهي كسابقتها التي زرناها في مدينة تيانجين حديقة نباتية ترفيهية، وليست حديقة للحيوان مثلاً، ومع ذلك رأيت طوائف كبيرة من الناس يزورونها، وبعضهم معهم أطفالهم، مع أن اليوم عمل، ولكن هؤلاء من الزوار، وأهل الأرياف وبعضهم من الصينيين المغتربين الذين جاؤوا إلى هذه البلاد لقضاء الإجازات، أو للأعمال التجارية.

وقد تأنقوا في زراعة الزهور وتسيقها، وساعدهم الجو المعتدل الذي جعل من مدينة (كون منغ) مدينة الربيع الدائم كما يسمونها.



الزهور المتنوعة في حديقة كون منغ

وذلك لكونها لا تشهد برداً قارصاً، ولا حرّاً لافحاً، فموقعها جهة الجنوب من الصين الغربي يمنع عنها البرد، وموقعها المرتفع نسبياً في هضبة عالية وقاها الحر.

وهي إلى ذلك ملتقى لعدة أنهار، وحولها بحيرات من أهمها هذه البحيرة التي نرى طرفها الآن في هذه الحديقة، وطرفها الآخر لا يدرك البصر له حدّاً.

والهضاب الاصطناعية:

كما تأنقوا وأكثروا من التأنق في غرس الزهور وتسيقها، كذلك عملوا في الصخور الاصطناعية - إن صح التعبير - حيث جلبوا صخوراً عظيمة خشنة لم يهذبوها، ولم يشذبوها من أجل أن تبدو طبيعية أو شبه طبيعية، وجعلوا منها أشكالاً متعددة، منها أشكال بهيئة القصور والبيوت القديمة، وكلها حجارة منقولة، ومنها أشكال هضاب مرتفع بعضها إلى ما يعادل الطابقين أو الثلاثة من البناء، ومنها ما هو أصغر من ذلك.



تلال جبلية اصطناعية في كون منغ، والأخ سليمان في الأعلى
وقد أعطى منظرها البحيرة منظراً طبيعياً، بحيث يحس الناظر

إلى هذه الصخور وكأنما هي كانت نابتة هنا ثابتة فيه من قديم الدهر. والمهم في الأمر أن يحس أنه في مكان طبيعي جميل المنظر، كما أنهم جعلوا منها بوابات متعددة يدخل معها المتفرجون، وإن كانت لا تغلق طريقاً، ولا تحبس من لا يريد أن يدخل منها، وداخل البحيرة وجدت طائفة من الدليات ذوات القوارب اللاتي يجدفن في البحيرة، فاستأذنتهن في التقاط صورة بسرعة، وأعطيتهن عشرة ينان، ففرحن بالينان العشرة، وفرحت أنا بالصورة، وهي هذه:

وكلما توغل المرء في الحديقة اتسعت البحيرة أمامه في منظر خلاب يصح معه أن يترجم الاسم (دا كوان لو) بأنه المنظر البديع كما ترجمه لنا الأخ (نعمان ما شي آن).

وشاطئ البحيرة من الحديقة نسقوا أشجاره، وغرسوا أشجاراً مناسبة، منها أشجار كنت رأيته في أماكن متعددة من العالم مثل نيوزلندا والبرازيل، وأسميتها آنذاك (ذات الجدائل)، وهي ذات غصون خضر لدنة غزيرة متدلّية، في تدليها إلى الأرض تشبه الجدائل الغزيرة للفتاة التي نفضت شعرها ونكست رأسها إلى الأرض.

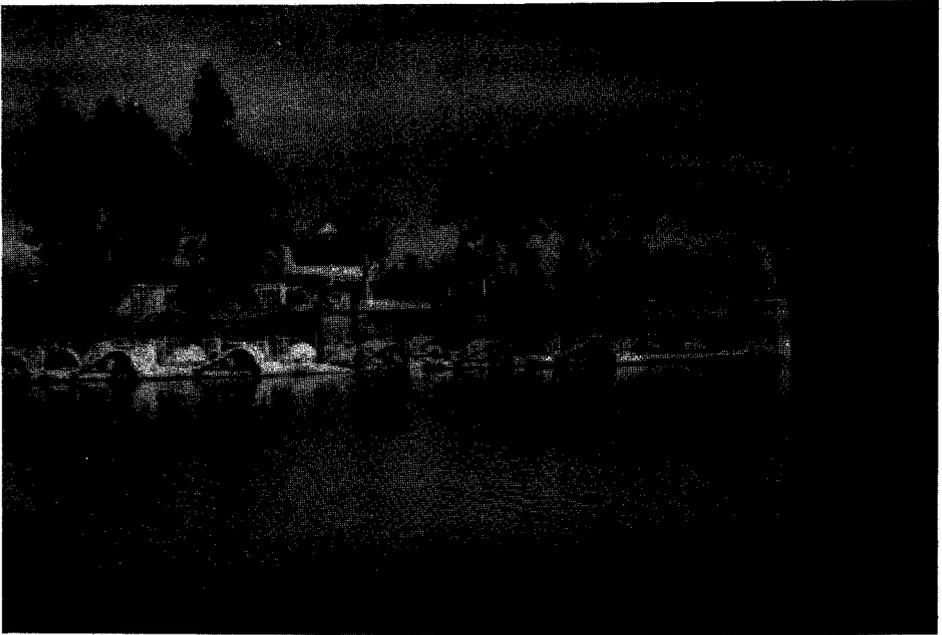
زنانات الأشجار:

كنت رأيت في مدينة (تونغ يانغ) التي تقع إلى الشمال من مدينة (شنغهاي) على مسافة (٤٥) كيلو متراً أشجاراً عملاقة في أعمارها، ولكنها موضوعة في زهريات صغيرة بالنسبة إليها، وقد تعهدوا تلك الأشجار بأن لا تكبر أو تتضخم، لذلك تجدها ذات أعجاز كبيرة تدلك على أنها قديمة الغراس، أما إذا حاولت أن تحملها فأنك تستطيع ذلك، مع أن بعضها ذات أعمار تزيد على مائة سنة.

وقد سميتُ آنذاك الأوص التي وضعت فيها، وحدت من انتشار جذورها بأنها زنانات الأشجار.

واليوم رأينا قسماً صغيراً لمثل هذه الأشجار، ولكنه دون أشجار حديقة (تونغ يانغ) بكثير، وربما كان السبب في ذلك هو حداثة هذه الحديقة بالنسبة إلى الحديقة الأولى.

مع أن حديقة (دا كوان لو) هذه هي قديمة قد أنشئت أو غرست أشجارها قبل الثورة الشيوعية التي استتب لها الأمر في عام ١٩٥٣م.



ركن من بحيرة الحديقة في كون منغ

ووصلنا إلى جزء من البحيرة تجدف فيه الدليلات الخشنات إن لم نقل القبيحات في المنظر، وذلك ينسجم مع الجزء من البحيرة الذي

يدخلن فيه بقواربهن، ثم ينفذن منه بقواربهن إلى جوف البحيرة الواسع، فهذا الجزء تصب فيه مجاري المنازل المجاورة، وهي كذلك تتفث رائحة خبيثة، وأولئك النساء يجدفن بقواربهن التي ليس فيها محركات في هذا الماء العفن.

وقال لي بعضهم: إن هذا البحيرة واسعة، ولا تؤثر فيها مثل هذه المجاري، لا سيما والنهر يمدّها بمياهه.

وقد أقاموا على حافة فيها بعيدة مشاريع واسعة لتربية الأسماك، ومثل هذه المجاري تفيد في وجود بعض الأحياء المائية، التي تتغذى عليها الأسماك.

إلا أنني رأيت بعض الناس، وبعضهم من الأسر، يركبون مع أولئك النساء في قواربهن للنزهة في البحيرة مع تلك الرائحة الخبيثة التي عجبت لتحملهم إياها.

ويلاحظ الغريب مثلي من رؤية المتنزهين في هذه الحديقة وأمثالها من الأمكنة، التي يجتمع فيها الناس من رجال ونساء وأطفال وأسرة كاملة، أن الحياء، أو لنقل عدم البذاء هو الغالب على نسائهم وأطفالهم، والأدب في معاملة الغريب حتى في كيفية النظر إليه هو السائد.

وكان السحاب قد تكاثف بسرعة في هذا الأصيل، وذكروا أن هذه الأيام هو أيام المطر، فتساقط المطر بسرعة، وأسرعنا إلى قوس هناك داخل الحديقة مما يلي البحيرة نرقب المطر الذي يروي هذه البلاد الريانة، ولكنه يغسل أدران زهورها، وأشجارها، وإن كان لا يغسل أدران أهلها.

وحدثونا عن هذه البحيرة الممتدة التي لا نشاهد إلا أولها، وهم يقولون إنها تنطلق مع قفأة فيها تصب في نهر من أنهار المنطقة اسمه (شين شا)، وهذا النهر ينتهي به المطاف في نهر (يانغسي) العظيم أحد النهرين الكبيرين الرئيسيين في الصين: النهر الأصفر، ونهر (يانغسي)...

منظر غريب:

من الأشياء غير المألوفة لنا في الصين أن نرى اثنين يتخاصمان علناً، وربما كان ذلك ناشئاً عن كوننا لم نختلط بالناس، ولم نكن في كل زيارتنا نستطيع أن نذهب دون مرافقين إلى أماكن تجمع الجماهير، وذلك بسبب حاجز اللغة؛ إذ لا بد من مرافق صيني يعرف لغتك، أو يعرف لغة تحسنها؛ لأن الصينيين لا يكادون بأكثرتهم يعرفون غير لغتهم الصينية، حتى بالنسبة للمتعلمين فمعرفة لغتهم باللغات الأجنبية قليلة إلا من درس منهم في معاهد اللغات.

إلا أننا رأينا اليوم في هذه الحديقة شيئاً غير مألوف، وهو امرأة تبكي وتلوم زوجها وهي تجهش بالبكاء، وقد حملت ولداً صغيراً وزوجها معها يمشي، ومعهما ثلاث نساء يظهر أنهن من أقارب الزوج أو الزوجة.

وتلك المرأة تبكي بحرقة وتتكلم بما ترجمه لنا أصحابنا بقولهم: إنها تلوم زوجها، وتتدب حظها، لأنه يدخن ويدخن كثيراً، وهي تقول له: لماذا التدخين الذي يضر بصحتك، ويضايقني، ويذهب بالمال!.

وتقول: إن زوجي هذا مبذر للمال، ولا يهتم بيته، ولا يحمل هم الطفل، حتى إنه لا يحمله عني، والغريب في الأمر أن الزوج لم يرد عليها بكلمة واحدة، وإنما كان يسير قبلها وهو يدخن، وكذلك النساء لا

يعلقن على كلامها إلا بكلمات قليلة لا تكاد تبين، يردن بذلك منها أن تكف عن بكائها، وكلامها المتصل على زوجها بصوت مرتفع سمعه من كان قريباً منها في الحديقة.

ونحن كنا نسمعه لأنها ومن معها كانوا مثلنا صادريين من الحديقة ذاهبين إلى بوابة الخروج، فكنا نمشي وهي تمشي وتتكلم وتتعب، ولم تستطع السيطرة على نفسها أو السكوت عن انتحابها.

وخرجنا من البحيرة ولا تزال قطرات من المطر تداعب الوجوه مما جعلنا نرى فيضان الدراجات في الشوارع قد اكتسى معظمه بأقنعة أو ألبسة من اللدائن يضعها راكب الدراجة فوق رأسه وكتفيه من أجل المطر.

المشابهون في الصين:

من الأمور المذكورة؛ بل المشهورة أن الغربيين ومن في حكمهم مثلنا نحن العرب يشعرون أن الصينيين يتشابهون حتى إن أولئك الغربيين ومن في حكمهم يعجبون كيف يميز الصينيون بعضهم عن بعض.

ومن النكت التي تروى في هذا الصدد أن أحد الأمريكيين قال مثل هذا القول لصيني في الصين فأجابه الصيني: ونحن نعجب منكم أيها الغربيون كيف يعرف بعضكم بعضاً، وأنتم تبدون متشابهين في نظرنا.

أما أنا فإنني جريت الأمر في نفسي، فلم أر الناس في سائر البلدان يتشابهون فيما بينهم مثلما رأيت ذلك في الصين، وقد زرت سائر أنحاء المعمورة واطلعت على سائر الأجناس من الناس.

فالأفارقة - مثلاً - والهنود، والأوروبيون، والهنود الأمريكيون ليس فيهم هذا التشابه العجيب الذي يراه الزائر الغريب في بلاد الصين.

ومع أن الناس في الصين بينهم فروق معروفة ناتجة عن الموقع أو نوع الغذاء، أو حتى عن الحر والبرد مثل الفروق ما بين شمال الصين وجنوبه، وما بين شرقه وغربه، ولكن الطابع الصيني العام هو المسيطر على الصينيين، وهو التشابه فيما بينهم في نظر الغريب.

وكنت إذا سافرت بالطائرة من مدينة إلى مدينة في الصين ثم دخلت تلك المدينة الأخيرة، ورأيت الناس فيها، خيل إلى أنني رأيت بعضهم في المدينة التي فارقتها، مع أن الأمر ليس كذلك، وأن الصينيين أنفسهم من أقل الناس انتقالاً بين المدن بسبب ظروفهم الاقتصادية والنظام الشيوعي المسيطر عليهم.

ولكن الأمر هو كما ذكرت من التشابه العظيم بينهم.

وكان معنى ذلك أن الصينيين كلهم نسخ متعددة من أصل واحد، ولكن الفروق التي بين بعضهم وبعضهم الأخر هي قليلة أو ضئيلة لا يدركها إلا من مرن على ذلك كالصينيين أنفسهم، الذين لا ينظرون إلى هذا الأمر كما ينظر الغربيون إليهم، فهو يبدو لهم أمراً معتاداً لا تشابه فيه.

والمشكون:

هذه الكلمة لمناسبة سؤال سألته في هذه الساعة للإخوة الذين يرافقونني في السيارة، فقد كنت ألاحظ طائفة من الشبان لا أعرف ما إذا كان الواحد منهم فتى أو فتاة، ولا تعرف الذكر من الأنثى فيهم.

وهذا أيضاً أمر لم أجد له مثيلاً فيمن رأيتهم من أجناس الناس،

فالأوروبيون وقد تقارب لباس الفتى ولباس الفتاة عندهم، يرى المرء فروقاً قد تميز الجنس، مثل أنواع الحذاء، أو حتى الأقراط في الأذنين، وأحياناً إذا عدت هذه الفروق فإنك تجدها في الملامح.

أما الصينيون فإن استعمال الحلي عندهم ليس كثيراً، وقد تقارب لباس بعض الفتيان مع لباس بعض الفتيات، فأصبح الغريب لا يستطيع تمييز أحدهما عن الآخر عند الرؤية دون تدقيق.

قال أحد محدثي من الصينيين: إن هذا الأمر الذي ذكرته صحيح، فنحن لا نكاد نميز في بعض الحالات بين البنين والبنات، في أشياء معينة إذا ما كانوا قد لبسوا لباساً متشابهاً، وإن كان ذلك بعد البلوغ.

مطعم المسلمين:



مدخل المطعم الإسلامي في كون منغ

كان موعد العشاء في السادسة والنصف، فأخذنا القوم إلى مطعم للمسلمين كبير مشهور اسمه (شان خو)، ذكروا أن معناها: بحيرة الملائكة، فشان معناها: الملائكة، وخو، أو (هو): بحيرة في الترجمة الحرفية للاسم، وذكروا أنه يترجم ترجمة فقهية ب: (بحيرة السماء).

استقبلنا مدير المطعم الأخ (محمد تساو لويانغ)، وقدم لنا أول ما جلسنا شايًا من شاي يونان هذه الذي تشتهر به، وقالوا إنه لذيذ وجيد، لأنه طازج، فهو حديث عهد بقطف، فلم نر فيه أكثر من الشاي الصيني المعتاد الذي لا طعم له، إلا أننا حمدنا أثره، كما قدمت.

ورأينا لوحة من القماش معلقة في المطعم عليها كتابة بالعربية تحتها الصينية، وتتوجها البسمة تبين أنها لأسماء عدد من الإخوة المغاربة كانوا يترددون على هذا المطعم عندما كانوا في زيارة لمدينة (كون منغ) هذه جاؤوا إليها في حفلة للتزومة ما بينها وبين مدينة شيناوي الغربية كما ذكروا، وكتبوا أسماءهم بالعربية، فعلقها صاحب المطعم حباً في العرب والمسلمين، وهي اللوحة الوحيدة فيه، مع لوحة تحمل صورة للكعبة الشريفة في الحرم المكي.

الطعام المفضل:

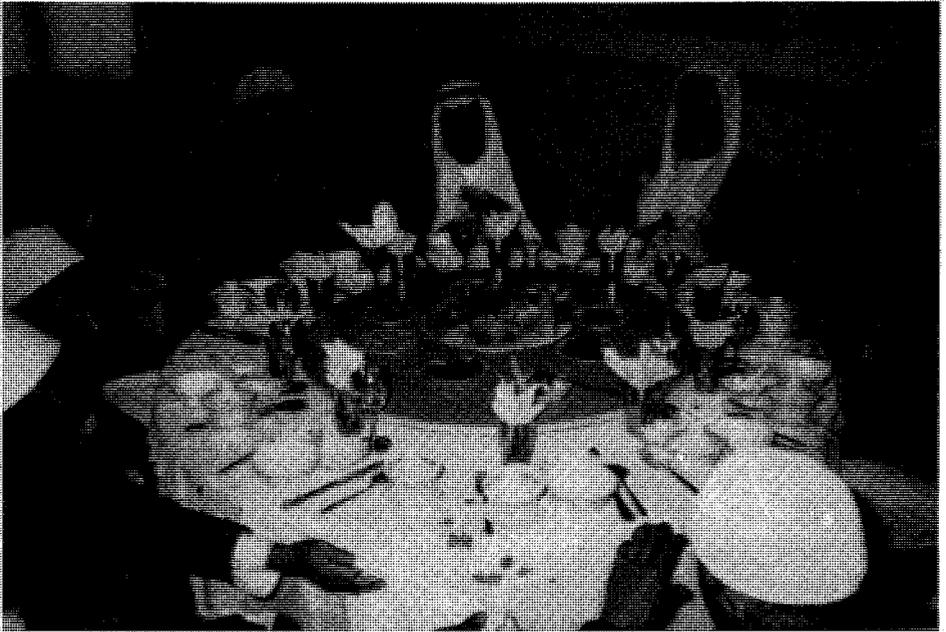
الطعام الصيني ليس مشهوراً بكثرة الفلفل فيه كالطعام الهندي الذي لا يبارى في الإكثار من الفلفل، ونحن نحس أنهم يضعون فيه الفلفل إلى درجة الإسراف.

ولم نلاحظ في الطعام الصيني أنهم يكثرون فيه الفلفل إلا أنواعاً نادرة من الطعام يقولون: حكمها أن يكثر فيها من الفلفل.

هكذا سائر أنحاء الصين التي زرتها أما في هذه المدينة (كون

منغ) فإن الأمر فيها مختلف، إذ وجدنا كل الصحون التي قدمت محتوية على أنواع متنوعة من الطعام كلها أكثرها فيها من الفلفل، والمراد به الأحمر والأخضر، وليس حب الفلفل الأسود الذي هو أقل حرارة وأقل ضرراً من الفلفل الحار الأخضر والأحمر.

وتمثلت رغبتهم في أكل الفلفل الحار عندما جاؤوا به في طبق وحده وهو في قرونه مطبوخاً ليس معه غيره؛ إلا أنهم وضعوه مع دسم، وأخذوا يتناولونه بالأعواد، ويأكلونه كما يؤكل أي شيء آخر، وعندما رأيناه لم نطق حتى تجربيه.



أثناء مأدبة الجمعية الإسلامية في كون منغ في المطعم الإسلامي

يساري رئيس الجمعية الإسلامية في يونان

وهذا من الفروق التافهة ما بينهم وبين المدن الصينية التي زرتها قبل ذلك. ومن الفروق التافهة أيضاً التي لاحظتها هنا أن القوم عند التحية يفعلون ما يفعله التايلنديون، فيضمون أيديهم الواحدة إلى الأخرى ثم يضعونها حذاء الجبهة، وينحنون، وهو أمر يفعله بعض الهنادك في الهند عند التحية.

ولا عجب في هذا الأمر إذا عرفنا أن هذه المقاطعة (يونان) لا تبعد كثيراً عن الهند الصينية؛ بل تلاصقها إذ هي تحد بحدود بورما، وبورما مجاورة لتايلند.



صورة تذكارية مع العاملين في المطعم الإسلامي وبعض المرافقين
من كون منغ

ثم عدنا إلى الفندق مع الشارع الواسع المسمى ريح الغرب، أو النسيم الغربي كما قد تصح تسميته بذلك، كما أنهم يعتنون بطرق الدراجات أكثر من عنايتهم بطرق السيارات، وذلك أنهم يجعلون الدراجات الذاهبة منفصلة عن الآتية، بخلاف السيارات التي يجعلون لها بطن الشارع لا يفصل الذاهبة والآتية منها إلا خط من الطلاء.

ولا شك أن السبب في ذلك هو كثرة الدراجات، وقلّة السيارات كما سبقت الإشارة إليه.

الأربعاء: ٢١/١٠/١٤٠٧هـ

موعد الإفطار:

هذه المقاطعة مثل باقي مقاطعات الصين أو أكثرها تسير على توقيت العاصمة (بكين).

استغربت عندما أعطوني بياناً بأوقات الصلوات كانت أعدته الجمعية الإسلامية في المقاطعة فرأيت فيه أن صلاة الفجر هي في السادسة والنصف.

وفي البرنامج أن تناول طعام الإفطار سيكون في السابعة والنصف. وهذا معناه أن موعد الإفطار قبل طلوع الشمس.

ولم يتحرك الموكب من فندقنا، فندق كون منغ إلا في الثامنة قاصداً المطعم الإسلامي لتناول طعام الإفطار فيه.

ويحرصون على أن يتناول المسلم سواء كان زائراً أو مقيماً طعامه في مطعم من مطاعم المسلمين، لأن مطاعم الكفار من أهل هذه البلاد الذين هم الأغلبية فيها ويسمونهم (الخان) لا تخلو أبداً من شيء غير

حلال، لأنها إما أن تطبخ اللحم الحلال للمسلمين في الأصل، ولكنه يكون قد ذبحه غير المسلمين من الذين لا تحل ذبيحتهم لكونهم ليسوا من أهل الكتاب، أو أن يكون حراماً في الأصل كالكلاب والفئران والزواحف، وحتى الحيات.

إضافة إلى كثرة استعمالهم لحم الخنزير وشحمه، وما اشتق منه.

لكن لم نتناول في مطعم الفندق حتى طعام الإفطار الذي يمكن أن يكون مقتصراً على الجبن أو اللبن والبيض على سبيل المثال غير أن طعام الإفطار يكون في المعتاد عندهم مما مسته النار كالحساء (الشورية) والأرز، وهذا يحتاج إلى إدام لا بد أن يخالطه محرم في مطاعم الصينيين غير المسلمين.

الرياضة في الميدان:

غادرنا الفندق في الثامنة مع شروق الشمس، ووجدنا الشوارع فيها عدد من الدراجات، ولكنها ليست من الكثرة كما كانت عليه وسط النهار.

ورأينا مئات الشبان، أن لم نقل آلافهم - يمارسون الرياضة في ميدان قصر الثقافة العمالية، وأكثرها رياضة (ووشو) التي نشأت عند المسلمين في الشمال الغربي من الصين، ثم انتشرت في أنحاء الصين كلها، وتعتمد على شد الأطراف شداً شديداً كأن يقف الرجل على رجل واحدة وقوفاً مستقيماً مشدوداً جداً، ثم يرفع رجله الأخرى ماداً إياها مداً أفقياً مستقيماً، ثم يفعل بيديه هكذا.

ولما سألت المرافقين عن السبب في وجود هؤلاء المتريضين في هذا

المكان العام مع أن الوقت مبكر، وبإمكان المرء أن يمارس هذه الرياضة في الصباح المبكر في بيته، ذكروا أن البيوت في الصين ضيقة، وليس فيها هواء طلق، لذلك يضطرون إلى الخروج عنها إلى الحدائق.

وصلنا المطعم الإسلامي الذي تغدينا فيه أمس، وبينما كنا جالسين فيه انقطعت الكهرباء عنه خلاف العادة التي عرفتها من الصين، وهي قلة انقطاع الكهرباء، فأخبروني أن السبب في ذلك كثرة المصانع التي تستهلك مقادير كبيرة من الكهرباء في المنطقة.

وأما طعام الإفطار فإنه حساء (شورية) فيه قليل من (المكرونه)، ومع ذلك نوعان من الخبز، وما نتو، وهو شبيه بالسمبوسك إلا أنه يصنع من دقيق أبيض أملس، وينضج على البخار، لذلك يظل لونه أبيض كأنه بياض البيض، ويكون في وسطه لحم مفروم، أو ذو قطع صغيرة.

وجاؤوا بالشاي الصيني المعتاد دون أن يحضروا قهوة.

إلى الجبل الغربي:

خرجنا من المطعم وقد ازدحمت الشوارع بالدراجات والسيارات وحتى المشاة، حتى رأيت عربة حمار في الشارع عليها حمل، وأخرى قد ركبت فيها امرأة نظيفة الثياب والمظهر.

وقد قصد موكبنا جبلاً يسمونه (سي شان)، ومعناها: الجبل الغربي، ف: (سي): غرب، و(شان): جبل، باللغة الصينية.

ولم يطل مكثنا في زحام الشوارع، بل خرجنا بسرعة إلى الريف مع طريق إزفلتي عريض قد غرسوا على جانبيه أشجاراً، وخلفه حقول

من حقول الأرز النضرة، فهذه المقاطعة وفيرة المياه، معتدلة الجو، لذلك تكثر فيها زراعة الأرز.

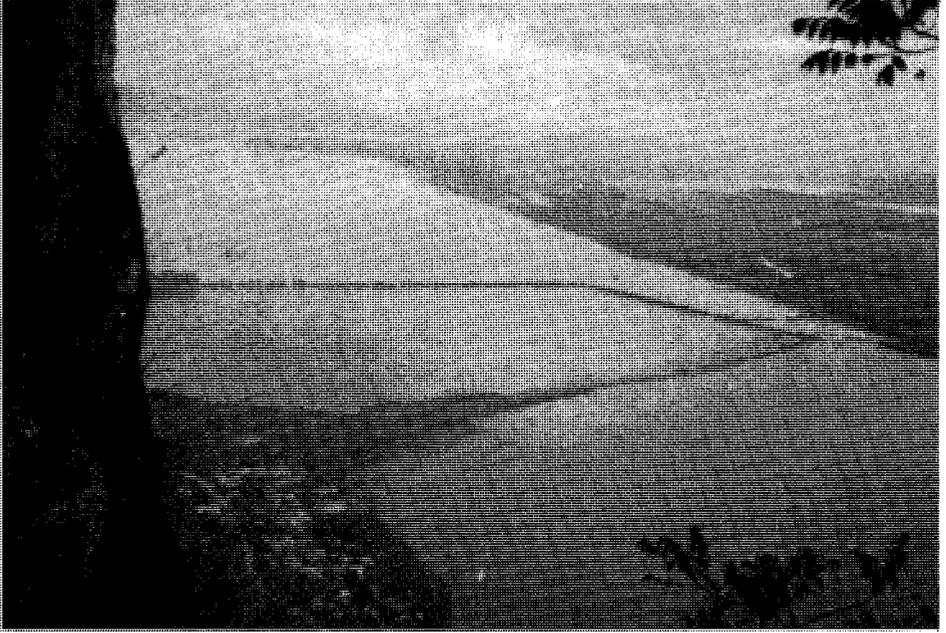
ولاحظت أن هذه الحقول مقسمة إلى أقسام صغيرة، فذكروا أن ذلك لكونها شخصية، أي هي مخصصة للأسر تزرعها، وليست من المزارع الحكومية الواسعة، ولأن المزارع الجماعية تكون واسعة لكونها يعمل فيها في العادة عدد كبير من الناس يديرونها كما تدار المزارع التعاونية.

ورأينا سرباً من البط الذي يتبختر في سيره في الطريق وخلفه صاحبه، وهو فلاح يسايره سيراً وثيداً، ولا أدري أهو ملك له، أم هو لعدد من الناس يرعاه كما يرعى الراعي غنم الآخرين!

وقد ذكر لنا المرافقون أن الفلاحين هؤلاء الذين سموهم شخصيين يدفعون ضرائب ورسوماً للحكومة على ما تنتجه هذه الأراضي الضيقة من حاصلات، مع أنهم لا يملكون الأرض التي تمنحهم الدولة إياها، وإنما هي بمثابة الملك حيث إنها لا تنتزع منهم إلا إذا ثبت للحكومة أنهم تملكوا غيرها، كما أنه لا يجوز لهم بيعها، وإنما يجوز توريثها للورثة طبق نظام خاص بذلك.

وتعطي الدولة للفلاح مع أسرته أرضاً تبلغ مساحتها في المتوسط ألفي متر مربع.

وقد قابلنا بعض الفلاحين راكبين جرارات زراعية، وإن كان ذلك على قلة بالنسبة إلى الجرارات في المناطق الريفية من البلاد غير الشيوعية.



صورة لجانب من بحيرة كون منغ من عرض جبل التين الواقف

وأما السيارات التي في الطريق فإنها كثيرة بالنسبة إلى وجود السيارات في طرق الصين الشيوعية، وكل السيارات التي قابلتنا ذاهبة إلى المدينة.

المنطقة الصناعية:

وصلنا المنطقة الصناعية لمدينة (كون منغ)، وليست من هدفنا، وإنما وصلها طريقنا الذي نحن ذاهبون معه إلى الجبل الغربي. فرأينا فيها مصانع عديدة، منها مصنع للإسمنت، وآخر للنسيج، وثالث للشاي الذي يزرع في المقاطعة، فهم هنا يصنعونه؛ بمعنى يعدونه للتصدير، كما رأينا محطة كبيرة لتوليد الطاقة الكهربائية.

قرية الفرس:

والفرس في الصينية اسمها: (ماه)، أهم ما رأيناه في هذه القرية أكوام من الفحم الحجري الذي أعدوه وقوداً لمصنع فيها. ولم تزل المصانع تماشي الطريق.

قرية فم الحجر:

ووصلنا بسرعة إلى قرية أخرى اسمها (تي ني زوي)، ذكروا أن معنى ذلك (فم الحجر)، وأعجب أن يكون للحجر فم، وإن كان منها ما يشقق منه الماء، ولكن هكذا اللغة الصينية مغرمة بالاستعارات والتشبيهات والمجازات اللغوية.

وتقع هذه القرية قريبة من سفح الجبل، وما زالت المصانع ظاهرة، وإن كان بعضها بعيداً عن الطريق، ولكن مداخنها عالية ترى على البعد.

وأما المنازل في هذا الريف فإن أكثرها مكون من طابق واحد ذي سقف مسنم، وقد طليت مقدماتها بالجص الأبيض، أو بمادة شبيهة بالجص.

والريف بالغ الخضرة، كثير الندى، وقد مررنا بمستقع قد نبتت فوقه الأعشاب المائية لعدم انقطاع الماء عنه.

وقد وصلنا الجبل الذي صار على أيماننا بسفوحه التي تغطيها المدرجات الزراعية، وعلى اليسار ترى بحيرة (كون منغ) التي ذكرتها أمس التي تمتد مسافات بعيدة حتى تصل المدينة.

الصعود الصعب:

بدأت سياراتنا تصعد الجبل، وكلما ارتفعت فيه اتضحت معالم المنطقة خصبة ندية، وظهرت أعشاش اللدائن التي أقاموها في البحيرة لتربية الأسماك، وهي تبدو بأعداد كبيرة تتجاوز الآلاف.

وكلما ارتفع الطريق في الجبل تكاثفت الأشجار فيه حتى أصبح كالغابة الواحدة الملتفة.

ومن الغريب أن الطريق كان فيه أناس كثير يمشون يصعدون الجبل، وقد قلت السيارات الصاعدة فيه، حتى وصلنا محطة للحافلات تقف عندها ولا تتجاوزها؛ بل يكمل من يصلون إليها الصعود إلى الجبل مشياً على الأقدام.

ومن المناظر اللافتة للنظر في هذه المحطة قدر فيه طعام يتطاير بخاره معروض للبيع.

وقد وصلنا السير مع الطريق الذي ضاق، فصار لا يتسع إلا لسيارة واحدة، ولذلك لا تسير فيه إلا سيارات الضيوف والسياح ونحوها، إلى أن صار من الصعب سير السيارات؛ لأن الجبل صار واقفاً ليس فيه متسع للطريق، فنزلنا من السيارات، وسرنا نصعد على أقدامنا مع درج حجري قد صار بعضه أملس من كثرة وقع الأقدام، وكان يصحبنا في السير على هذا الدرج الطويل طوائف من الناس كانوا ممن حضروا مع الحافلات، ولكنها أنزلتهم في المحطة الموجودة في عرض الجبل.

إلى باب التين:

واتجه الجميع إلى قمة الصعود الصعب في الجبل في موضع اسمه

(لونغ من)، أي باب التين، ف: (من): باب، ولونغ: التين بالصينية.

وللتين في الصينية شأن عظيم إذ اتخذوه رمزاً لحضارتهم القديمة،
وتقول خرافاتهم إنه هبط عليهم من السماء.

أما عند قومنا العرب، فإن التين هو الحية العظيمة، هذا قول
الأعراب منهم في القديم والحديث، وإن كان بعض الأخباريين العرب
ذكروا خرافات متعلقة بالتين، ربما كان بعضها مما وصل إليهم من
الصينيين، وإن كان ذلك بطريق غير مباشر، أو من خرافات غيرهم من
الأمم.

ومن ذلك ما ذكره ياقوت الرومي في معجم البلدان، وإن كان
أورده على طريق الحكاية دون الجزم به لمخالفته للمعروف، قال في
معرض كلامه على السد: سد يأجوج ومأجوج:

« وأما ذكر التين فرأينا منه بنواحي حلب ما ذكرته في ترجمة
كلز، وجعلته حجة على ما أورده هنا من خبره وشجعتني على كتابته،
فإن الإنسان شديد التكذيب بخبر ما لم ير مثله. روي عن شداد بن أفلح
المقري أنه قال: عدت عمر البكالي، فذكرنا لون التين فقال عمر
البكالي: أتدرون كيف يكون التين؟ قلنا: لا، قال: يكون في البرحية
متمردة، فتأكل حيات البر، فلا تزال تأكلها وتأكل غيرها من الهوام
وهي تعظم وتكبر، ثم يزيد أمرها فتأكل جميع ما تراه من الحيوان،
فإذا عظم أمرها ضجت دواب البر منها، فيرسل الله تعالى إليها ملكاً
فيحتملها حتى يلقيها في البحر، فتفعل بدواب البحر مثل فعلها بدواب
البر، فتعظم ويزداد جسمها، فتضج دواب البحر منها أيضاً، فيبعث الله
إليها ملكاً حتى يخرج رأسها من البحر فيتدلى إليها سحب فيحتملها

فيحتملها فيلقبها إلى يأجوج ومأجوج.



المؤلف واقفاً في عرض جبل التنين الواقف في الأعلى والبحيرة ممتدة في الأسفل (كون منغ)

وحدث المعلى بن هلال الكوفي قال: كنت بالمصيصة، فسمعتهم يتحدثون أن البحر ربما مكث أياماً وليالي تصطفق أمواجه، ويسمع لها دوي شديد، فيقولون ما هذا إلا بشيء آذى دواب البحر، فهي تضج إلى الله تعالى، قال: فتقبل سحابة حتى تغيب في البحر، ثم تقبل أخرى حتى تعد سبع سحابات، ثم ترتفع جميعاً في السماء وقد حملن شيئاً يرون أنه التنين حتى يغيب عنا ونحن ننظر إليه يضطرب فيها، فربما وقع في البحر فتعود السحابة إلى البحر بالرعد الشديد الهائل والبرق العظيم حتى تغوص في البحر وتستخرجه ثانية فتحمله، فربما اجتاز وهو في

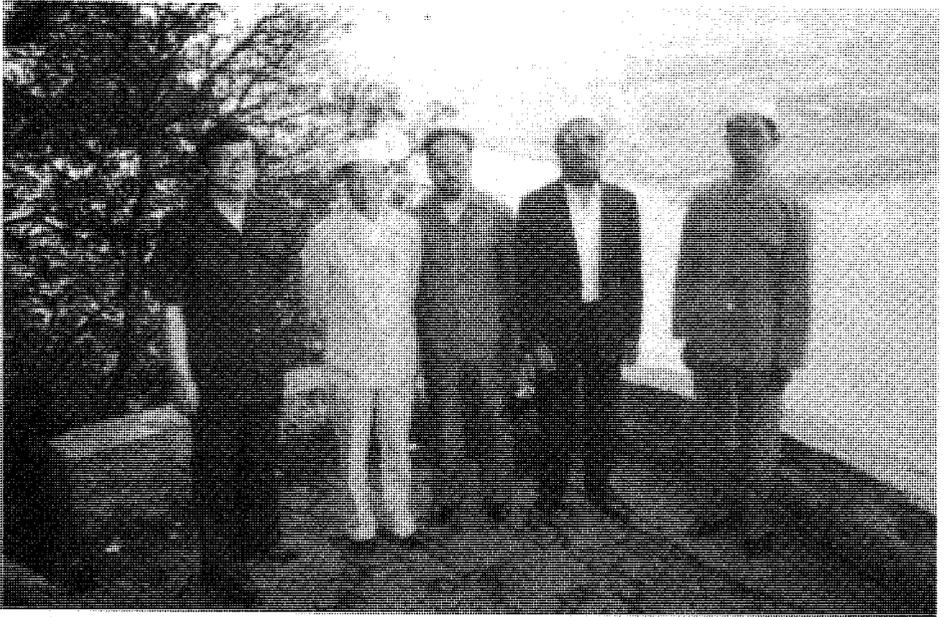
السحاب وذنبه خارج عنها بالشجر العادي والبناء الشامخ، فيضربه بذنبه فيهدم البناء من أصله، ويقلع الشجر بعروقه، ولقد احتمله السحاب من بحر أنطاكية، فضرب بذنبه بضعة عشر برجاً من أبراج سورها فرمى بها، ويقال: إن السحاب الموكل به يختطفه حيثما رآه كما يختطف حجر المغناطيس الحديد، فهو لا يطلع رأسه من الماء خوفاً من السحاب ولا يخرج إلا في الفرط إذا صحت الدنيا، وذكر بقراط الحكيم اليوناني في كتاب الثراء أنه كان في بعض السواحل، فبلغه أن هناك قرى كثيرة قد فشا فيها الموت، فقصدها ليعرف السبب في ذلك فلما فحص عن الأمر إذا هو بتين قد احتمله السحاب من البحر فوقع على نحو عشرين فرسخاً من هذه القرى فنتن، ففشا الموت فيها من نتنه، فعمد ذلك الفيلسوف فجبى من أهل تلك القرى مالا عظيماً، واشترى به ملحاً، ثم أمر أهل تلك القرى أن يحملوه ويلقوه عليه، ففعلوا ذلك حتى بطلت رائحته، وكف الموتان عنهم، وروي عن بعضهم أنه قصد موضعاً سقط فيه، فوجد طوله نحو الفرسخين، وعرضه فرسخ، ولونه مثل لون النمر مفلس كفلوس السمك، وله جناحان عظيمان كهيئة أجنحة السمك، ورأسه مثل التل العظيم شبه رأس الإنسان، وله أذنان مفرطتا الطول، وعينان مدورتان كبيرتان جداً، ويتشعب من عنقه ستة أعناق، طول كل عنق منها عشرون ذراعاً، في كل عنق رأس كراس الحية. قلت: هذه صفة فاسدة؛ لأنه قال أولاً: رأس كراس الإنسان. ثم قال: ستة رؤوس كروؤس الحية، وقد نقلته كما وجدته، ولكن تركه أولى.

انتهى كلام ياقوت - رحمه الله - وهو خرافة لا تبعد عن خرافات أهل الصين في التين التي لا يتسع المجال لذكرها هنا.

ووصلنا إلى مكان واقف ذكروا أنه لم يبق إلى الوصول إلى باب

التين (لونغ من) غيره، وذكروا أن عدد الدرج فيه لا يزيد على مائتي درجة، والمراد بالدرجة هنا: الزلفة، وهو الخطوة الواحدة لمن يصعد مع درجات، ولكنه واقف صعب الصعود.

وعندما وصلنا قمة الصعود، وجدنا فيها متسعاً منحوتاً في الجبل لا يكاد يتسع لعشرين شخصاً، ومع ذلك فقد وجدناه مزدحماً بالناس، وقد كتبوا عليه بالصينية ما ترجمه لنا الإخوة المرافقون بأنه يمنع البصاق، ورمي الفضلات، كما يمنع لصق الإعلان، والرسوم على الحجارة، وقطع الأغصان، ولم نكد نصل إليه ونحن نصدق، لأن الصعود كله كان مع درج حجري واقف حتى إنهم جعلوا في بعض الأماكن حاجزاً حديداً يستند إليه من يصعب عليهم الصعود، أو من يخافون السقوط مع هذا الدرج الضيق إلى هاوية الجبل.



في أثناء الصعود إلى جبل التين في كون منغ من اليسار مصطفى يانغ، فنعمان ماش أن، ثم رحمة الله، فالمؤلف، ثم سليمان

وقفنا في هذه القمة نستجلي المنطقة، وقد بدت بحيرة كون منع كأنما قد قربت منا لكوننا نراها من مكان بالغ الارتفاع، ترصعها بيوت تربية السمك المتناثرة فيها.

وقد صار الجبل يبدو واقفاً تماماً من هذا المكان؛ لأننا كنا أتينا إليه من جانب أقل وقوفاً.

معبد بوذي قديم:

كل هذا الصعود، وتحمل المشاق من الجمهور من أجل زيارة معبد بوذي قديم يزعمون أنه من المعابد القديمة المشهورة في الصين، حتى إن بعض الناس منهم يأتون إليه من مسافات بعيدة.

ويقع المعبد في غار في الجبل، وهو مبنى على طراز البناء الصيني المعقد الذي لا تكون فيه زوايا مستقيمة، أو خطوط فنية متعامدة كالتي تكون في الفن العربي المعروف.

وإنما هو ذو هندسة قديمة صينية عريقة، حتى إنني شبهته عندما رأيته بطريقة الطبخ الصينية المعقدة، وكذلك هو يذكر المرء بالكتابة الصينية المعقدة ذات الأشكال التي لا تعتمد على الخطوط المستقيمة، وإنما هي ذوات خطوط فيها انحراف فني عندهم.

وينقسم الواصلون إلى هذا المعبد إلى قسمين:

قسم ينظر إليه على أنه معبد معظم، وهذه حال بعض الزوار الصينيين الذين رأيناهم، فأكثرهم كانوا يتدينون بالديانة البوذية قبل الشيوعية التي حرمت التعليم الديني وحاربت الدين كله، حتى قيل إن معظم الشعب الصيني قد أصبحوا بلا دين، ما عدا المسلمين الذين لا يزالون متمسكين بدينهم، هكذا قال لنا وزير الأديان في الحكومة

المركزية للصين الشعبية.

ومع ذلك فإنه لا يمكن تصديق أن مئات الألوف من الصينيين قد أصبحوا بلا دين، لأن الدين حاجة بشرية؛ بمعنى أن الإنسان يصبو إلى أن يتدين ولو بدين غير صحيح معتقداً أنه صحيح إذا لم يتيسر له من يهديه إلى الدين الصحيح.



بوابة التنين وأفواج السائحين حولها في الجبل

والقسم الثاني: من يأتون إلى هذا المكان لكي يتفرجوا برؤية أثر معماري تاريخي؛ بل هو ذو تاريخ عريق، ومنهم السياح، والضيوف الأجانب الذين يرون إلى ذلك طبيعة هذه المنطقة من ارتفاع الجبل الذي يقفون فيه.

وعندما عرفت أن هذا المعبد بوذي لم أدهش إلى كون أهله بنوه في هذا المكان الصعب المرتقى من هذا الجبل الوعر؛ لأن هذه هي عادة البوذيين المتدينين أن يبنوا معابدهم الكبيرة في رؤوس الجبال التي يصعب الوصول عليها لغيرهم.

وأما بالنسبة إليهم، فإنهم يكونون معتكفين فيها لا يكادون يغادرونها، وإذا احتاجوا إلى ذلك لم يكن للوقت الذي يضيع في النزول إليها أو في تسلقها قيمة عندهم، لأنهم قد نذروا أنفسهم لهذا العمل.

وقد تذكرت معابد بوذية كبيرة في أماكن جبلية صعبة المرتقى في عدة بلدان من منطقة جنوب آسيا الشرقي، من ذلك معبد رأيتَه على رأس جبل في ضاحية من ضواحي مدينة كتمندو عاصمة نيبال حتى قالوا لي إن عدد درجه هو ألف زلفة، ، وقد ذكرته في كتابي: « في نيبال، بلاد الجبال »، ومعبد آخر في مدينة شنقماي عاصمة الشمال التايلندي ذكرته في كتابي: « مشاهدات في تايلند ».

لم تكن رؤية هذا المعبد البوذي هي خاتمة المطاف بالنسبة إلى تعب الصعود والهبوط إذ أخذنا القوم في درج حاد النزول من جهة ثانية غير الدرج الذي صعدنا منه، وكان الدرج ضيقاً صعباً مزدحماً بالناس، حتى خشينا أن يلجئهم الازدحام إلى السقوط في الهاوية.

وقادهم ذلك الدرج الضيق الصعب إلى غار فيه تمثال لامرأة بوذية

اسمها (وان نغ) كانت من الأتباع المخلصين لبوذا، وقال أحدهم: إنها أرملته.

وقد رأيتهم يتعبدون عندها، وذلك بأن يضم الشخص منهم كفيه إحداهما إلى بطن الأخرى يضعهما تجاه وجهه وينحني بما يشبه الركوع، وهم على حالة من الخشوع والتعظيم.

بعد هذا التمثال الذي يرمز لامرأة متدينة بل معظمة في دينهم البوذي، وصلنا إلى (باب التين)، وقد كتبوا عليه اسمه بالصينية عندما قرأه علينا الإخوة المرافقون قلنا لهم ما قلناه سابقاً في أمثاله: (اكذب ولا تخف)، أي ما الذي يجعلني أعرف إن كانوا مصيبين أم مخطئين في قراءتهم، إذ لو كان الاسم مكتوباً بالعربية (لونغ من) لما عرفت معناه، فكيف به مكتوباً بالصينية التي تشبه أشكال الحشرات ذات الأرجل الكثيرة التي تبدو مقوسة في بعض الأحيان.

ورأينا التين منحوتاً على هيئة التين المعروف عندهم، وهو على شكل حية ضخمة ذات رؤوس عدة، وبجانبه تمثالان لرجلين لكل منهما لحية مستطيلة مسننة، وهي اللحي التي كانت شائعة في العصور الصينية القديمة، ويتدلّى إلى اللحية شاربان طويلان على هيئة تقليدية أيضاً، وهما يحيطان بتمثال التين، ويرمز أحد التمثالين لإله الماء، والثاني لإله الجبال في الديانة التاوية المخالفة للبوذية، ولذلك نحتوا فوق التين تمثالاً للنجم الأكبر في الديانة التاوية.

ومعروف أن ديانة (تاو) موجودة حتى الآن في الصين، ولها ملايين الأتباع، وهي صينية المنشأ بخلاف البوذية التي نشأت في الهند، وانتقلت بعد ذلك إلى الصين، وهي أقدم من التاوية.

و (ديانة تاو)، أو الديانة التاوية من أديان قومية (الخان) التي هي أكبر القوميات والفئات في الصين.

وكانت تقوم في أول الأمر على عبادة الأرواح والطبيعة والآلهة، ثم تحولت بعد ذلك إلى مذهبين:

أحدهما يحث على أن يؤدي معتق التاوية شعائرها الدينية بقوة حتى يتحول إلى زاهد في الدنيا.

والثاني يؤكد على الأوراد والأحجية التاوية.

وعندما قامت الثورة الشيوعية في الصين كان في كافة أنحاء الصين نصف مليون راهب من البوذيين، وثمانية آلاف كاهن من (التاويين).

هذا وقد ازدحم الناس في هذا المكان، وذلك أن الجميع كانوا قد أتوا من أجل أن يروا هذا الأثر القديم، وفيهم من يعتقدون بديانة تاو فيأتون إليه تديناً، ومع ذلك كان الجميع يتزاحمون على التقاط الصور تحت بوابة التتين.

وقد بلغ الازدحام بالناس في هذا الغار الذي يشبه الأرجوحة المتدلّية في الجبل لولا أنه غائر فيه مبلغاً جعلنا نسرع في تركه خوفاً من شدة الازدحام الذي ضاق به المكان.

فانطلقنا مع درج ضيق جداً أملس منحوت في الجبل نحتاً، ودخلنا تحت نفق قصير، ومع ذلك هو مظلم وخطر لضيقه وللظلام فيه، وقد أقاموا بجانبه حديداً يمسك به النازل مع هذا النفق، وهو قذر فيه لزوجة ربما كان ذلك من آثار بعض الأيدي التي تكون قد لمست شيئاً

لزجاً لا يوجد الماء هنا لإزالته.

وعندما خرجنا في انحدارنا من النفق الذي فيه درج ينحدر منه الإنسان إلى النور تنفسنا الصعداء في الهواء النقي والجو المنير، ونظرنا إلى البحيرة بحيرة كون منغ والمنطقة وكأنما ننظر إليها من طائرة لفرط ارتفاع المكان.

والبحيرة واسعة ذكروا أن مساحتها ١٥١ كيلو متراً مربعاً.

القاعدة الذهبية لمعرفة السن:

مضى وقت ونحن ننزل من هذا الدرج الصخري الطويل الضيق الذي يذهب يميناً وشمالاً يتبع الأماكن المناسبة في الجبل، ولذلك أسرع بعض الإخوة، وذكرت هنا قولاً سمعته من أحدهم حول ما أسماه بالقاعدة الذهبية لمعرفة سن الإنسان، وما إذا كان قد شاخ أم لا يزال شاباً، وهي قوله:

« إذا كان صعودك الدرج سهلاً عليك كسهولة النزول منه فأنت شاب، وإذا كان الصعود مع الدرج صعباً عليك والنزول منه سهلاً فأنت كهل، ولكن إذا كان النزول من الدرج صعباً عليك صعوبة الصعود منه فأنت هرم ». »

وقد لاحظنا أن بعض الرفاق الصينيين، وفيهم مسنون كان النزول السريع من الدرج صعباً عليهم.

معبد خواتين:

عدنا من الجبل قاصدين المدينة، ولكنهم مروا بمعبد بوذي آخر ذكروا أنه مهم عندهم، وهو في جبل أيضاً، إلا أنه متطامن سهل

المرتقى، ليس كالمعبدین السابقین اللذین أحدهما للبوذیین، والثانی للتاوییین.

دخلناه مع بوابة عالية ضخمة مبنية على طراز صيني قديم أهم ما يفتقر إليه الرشاقة والجمال في البناء حسب المقاييس التي تعارفنا عليها في بلادنا لجمال المباني، وقد وضعوا تمثالاً لفيل على يمين الداخل، وتمثالاً للأسد التقليدي عند البوذيين على يسار المدخل، وهو تمثال بعيد عن الواقع يرمز لأسد فاغر فاه.



منظر للمعبد البوذي (معبد خواتين) في أحضان الجبل الأخضر في
كون منغ

ثم دخلنا إلى حديقة واسعة ذات أشجار عالية قديمة الغراس،

فوجدنا عند مدخل المعبد تمثالين لرجلين على غاية من قبح المنظر، ذكر لنا دليل في المعبد أن الأيمن منهما اسمه (خن)، والأيسر اسمه (خا)، وأنهما يحرسان مدخل القصر.

ولما سألته عن السبب في إبراز الأشياء غير المستحبة في التمثالين وبعدهما عن الجمال قال: إن ذلك من أجل أن تزرع رؤيتهما الخوف في نفس من يراهما، فلا يدخل المعبد إذا كان ينوي أن يفعل شيئاً ليس مستحباً كأن يسرق منه شيئاً.

وكيف يحتاجان إلى ذلك وهما قادران فيما يزعمون على حراسة المعبد؟

وفي مدخل المعبد من جهة الداخل تمثال من الصفر زعموا أنه لإله البحث، وهو على هيئة آدمي يجلس متربعاً أصفر اللون لأنه من الصفر، وهو النحاس الأصفر.

وذكروا أيضاً أن مهمته المحافظة على المعبد من اللصوص والعاثين: ﴿أتعبون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون﴾.

وسرنا مشياً على الأقدام حتى وصلنا إلى المعبد الرئيسي في عرض جبل أخضر من الأشجار النظرة، وهو على طراز القصور الصينية القديمة سقوفه خشبية مسنمة إلا أنها مسترخية غير مشدودة.

وعند مدخله مبخرة ضخمة كأنها القدر الكبير الذي يمكن أن يطبخ فيه طعام يكفي خمسين شخصاً، وقد وضعوا فيها نداءً يعطر المكان، ووجدناه يدخن.

وأهم ما في داخل المعبد تمثال ضخم لبوذا مؤسس البوذية،

ويسمونه (سيكاموني) على هيئة رجل ضخم متربع أصفر اللون ذكروا أنه مطلي بالذهب.

ورغم أنني كنت رأيت البوذيين يتعبدون لتمثال بوذا في مثل هذه المعابد الكبيرة في بلاد البوذية، وبخاصة في تايلند، فإنني لم أر أحداً يفعل شيئاً من ذلك هنا؛ لأن معظم الذين جاؤوا إلى هنا هم من السياح.

وإنما رأيت بعضهم يقدمون هدايا للمعبد على هيئة شموع وأعداق من الموز من أجل أن يأكله رهبان المعبد.

ولم أر في داخل المعبد شيئاً عدا تمثال بوذا هذا الأصفر الضخم إلا أنهم وضعوا خيوطاً ملونة كالتى تعلق في مناسبات الأعياد والزينة.

أما الناس الذين في باحات هذا المعبد التاريخي المهم عندهم فإنهم كثير، إلا أنني رأيتهم يهتمون بالاطلاع على باحاته وأبنيته مع أن أكثرهم من الصينيين الذين جاؤوا من مقاطعات أخرى، أو من نواح أخرى في مقاطعة (يونان) هذه.

ثم عدنا إلى الفندق قبيل الثانية عشرة، ولاحظت كثرة البطيخ الأخضر (الحبوب) المعروض للبيع في الطريق، فذكروا أنه شخصي، أي مما زرعه الناس في أراضيهم المخصصة لهم، ويبيعونه بأنفسهم، وليس من المزارع الحكومية، ويبيعونه بثمن لا يعد رخيصاً بالنسبة إلى الدخول عندهم، فهو بثمانين سنتيماً من اليوان عملة الصين.

كما لاحظت كثرة ما أسميته بحوانيت الأكتاف، وهو أن يجعل الإنسان ما يحمله، وهو هنا من الإنتاج الزراعي من الخضار والفاكهة، في وعائين متساويين أحدهما في طرف عصا قوية، والآخر في طرفها الآخر، ويحملهما على كتفيه وهما يتدليان.

مأدبة جمعية كون منغ:

في الثانية عشرة والنصف عدنا إلى المطعم الإسلامي لتناول الغداء في مأدبة ذكروا أنها قد أقامتها الجمعية الإسلامية لمدينة كون منغ، فوجدنا عند باب المطعم عدداً من أئمة المساجد، على رأسهم الشيخ محمد سليمان ما خوي تنغ، وصفه المرافقون بأنه إمام الأئمة، بمعنى أنه كبيرهم، وعمره الآن ٨٣ سنة مع أنه رئيس الجمعية الإسلامية في مقاطعة يونان كلها.

وقد حج في عام ١٩٥٩م، كما وجدنا شيخاً مسلماً آخر اسمه يعقوب ماه لانغ سين عمره ٨٩ سنة، ولا يزال نشيطاً، وعادتهم أن يعهدوا برئاسة الجمعية إلى شيخ كبير كثيراً ما يكون عاجزاً عن العمل، ولكن الشيخ محمد سليمان نشيط، وطائفة من زعماء المسلمين وكبارهم، وكان غداء صينياً معتاداً في تعقيده وغرابة أنواعه حتى إنهم قدموا أنواعاً من الأطعمة لم يعرفها مرافقونا الصينيون الذين هم من الشمال أو الشرق، ومن ذلك أن قدموا طعاماً أسموه السلوى، وأعشاب، أو لنقل خضرات، لا نعرفها، وقد جملوا الموائد التي كانت عديدة بعدد من البطيخ الأخضر الحبيب جعلوها على هيئة سفينة أسموها سفينة الحج، وجعلوا لها شراعاً وصواري من مآكل أخرى ذكروا أنهم يرمزون بذلك إلى شوقهم العظيم لأداء فريضة الحج.

مسجد شن جن جي:

فسروا لنا اسمه الطويل بالنسبة إلى اختصار الأسماء عندهم بأن معناه: (مسجد حول المدينة)، وربما كانوا يريدون بذلك أنه القريب من وسط المدينة، أو أنه الذي يقع في ضاحتها.



لافتة ترحيبية ومستقبلون في زقاق مسجد كون منغ

وجدنا جماعات كثيرة من المسلمين قد اصطفوا من خارج مدخل المسجد حتى الطابق الثاني، وهو الأعلى في داخل المسجد، وقد علقوا لافتات ترحيبية بالعربية كتبوا على الرئيسية منها ترحيباً بقدمي، ولافتات أخرى منها واحدة كتبوا عليها: (يجب علينا أن نحب الوطن والدين فنجاهد في سبيل نهوض الصين).

ووجدناهم قد أعدوا حفل استقبال في قاعة واسعة في الطابق الثاني من المسجد وقد زينوها بتعليق شرائط ملونة جميلة علامة على الابتهاج. وقد احتشد فيها أئمة المساجد، فأخذ الشيخ (محمد سليمان ما فوي تنغ) رئيس الجمعية الإسلامية في مقاطعة يونان يقدم أئمة المساجد

والحاضرين هنا.

ثم أخذ يقدم الحاضرين من كبار المسلمين، ومنهم الأخ (إسماعيل موسي دونغ) رئيس الجمعية الإسلامية في مدينة (كون منغ)، وكان معنا طيلة أمس، وقد تقدم القوم فألقى كلمة ترحيب مليئة بعبارات الثناء والمجاملة التي ملخصها إظهار فرحهم وسرورهم بوصول وفد من بلاد الحرمين الشريفين من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.



قبل الدخول إلى مسجد شن جن جي في كون منغ على يميني رئيس الجمعية الإسلامية في يونان وبجانبه رئيس الجمعية الإسلامية في كون منغ

وقد ألقى فيهم كلمة رداً على كلمته ركزت فيها على واجبهم

في تعليم أولادهم تعليماً إسلامياً، وقلت لهم: لقد لاحظت أن أكثر العاملين في الجمعية الإسلامية هم ممن تعدوا مرحلة الشباب، وهذا بلا شك يعد تقديراً لهم على جهودهم، ولكن ماذا لو عجزوا عن العمل؟ إن الواجب يقتضي أن يكونوا قد علموا جيلاً من الشبان يحملون الراية بعدهم، ويقومون بالعمل الإسلامي مثلما قاموا به أو أفضل مما قاموا به.

وقلت لهم: إن المسلمين يزدادون عدداً في العالم كله، وهم يتساءلون عنكم أنتم أيها الإخوة المسلمون الصينيون ماذا فعلتم لدينكم بعد أن خُذلت عصاة الأربعة التي حاربت الأديان، وهدمت المساجد، وأهان الأئمة.



المستقبلون في مسجد جن جي في كون منغ

ثم قلت لهم: إنه يجب عليكم أن تعلموا أولادكم تعليماً إسلامياً، وأن تعلموهم أيضاً تعليماً مدنياً راقياً؛ لأن بلادكم محتاجة إلى جهودكم، فيجب على المسلمين أن ينفعوا وطنهم عن طريق إيجاد مهندسين وأطباء وفنيين مهرة منهم في الوقت الذي يجدون فيه فقهاء وقراء؛ لأنه ينبغي أن يعرف الجميع من مسلمين وغير مسلمين أن وجود الإخوة المسلمين في البلاد هو خير ومنفعة للجميع من مسلمين وغير مسلمين.

المسلمون في اليونان:

بعد أن أنهيت كلمتي نهض الشيخ محمد سليمان رئيس الجمعية الإسلامية لمقاطعة يونان فعقب عليها بقوله: إنه ليوم سعيد هذا اليوم الذي استقبلنا فيه إخوة لنا كراماً من مكة المكرمة، واسمحوا لي أن أعبّر لكم عن سرور إخوتكم المسلمين في مقاطعة يونان كلها بقدمكم، وكانوا ينتظرون ذلك منذ وقت طويل، وإنني بالنيابة عنهم أرحب بكم، وأرجو العفو عما يكون قد حدث من تقصير في تكريمكم، وأتمنى لكم الصحة والسلامة، كما أرجو تخصيص وقت أطول لمقاطعة يونان من وقتكم في المستقبل.

ثم ذكر في كلمات أحوال المسلمين في يونان، فذكر أن عددهم (٤٥٠) ألفاً في المقاطعة، وعدد الولايات والمناطق التي يوجدون فيها وإن كان قال: إنهم يعيشون في كل المقاطعة وأحوالهم حسنة وهم متمسكون بدينهم، وقال: لنا أكثر قليلاً من (٥٠٠) مسجد في أنحاء مقاطعة يونان.

وذكر أن في منطقة العاصمة (كون منغ) وما يتبعها من الضواحي

٣٧ مسجداً، منها ستة مساجد في المدينة نفسها أحدها هذا الذي أنتم فيه الآن.

وذكر أن الحكومة تعطي من يعمل في الأعياد من المسلمين مكافأة إضافية لكونها لم تتح له أن يعطل عمله في يوم العيد. وفي عام ١٩٨٤م أسست هذه الجمعية الإسلامية لمقاطعة (يونان).



بعض المستقبلين في مسجد كون منغ

ومنذ تأسيسها بذلت الجهود لمساعدة المسلمين على الاحتفاظ بعقيدتهم الإسلامية، وذكر ما ذكره من كون المسلمين يمارسون شعائرهم الدينية بحرية.

وقال: لقد طبعت الجمعية الإسلامية في هذه المقاطعة المصحف

الشريف طبعة نادرة، ووزعناها في أنحاء الصين.

وقال: وتمت خطوة مهمة هنا أيضاً، وهي افتتاح المعهد الإسلامي الذي قبل الطلاب من مقاطعة يونان ومقاطعتين مجاورتين لها، ويدرس فيه الآن (٥٠) طالباً في المرحلة التحضيرية، وسيبدأون الدراسة الفعلية في شهر سبتمبر القادم، وسيكون مجموع طلاب المعهد (١٦٠)، ومجموع العاملين في المعهد من مدرسين وموظفين آخرين (٤٠).

قال: ونحن الآن نقوم ببناء مساكن للطلبة، ونرجو أن تكتمل كل الأبنية المتعلقة بالمعهد بعد ثلاث سنوات أو أربع.

وكل الذي نأمل أن تتقوى العلاقات ما بيننا وبين رابطة العالم الإسلامي، فذلك هو مطلبنا، وهو الأمل الذي يرجو المسلمون جميعهم في هذه المقاطعة تحقيقه.

فعلقت على ذلك بأنه يسر رابطة العالم الإسلامية أن توثق العلاقات مع الإخوة المسلمين، كما يسرني أن أخبركم أنه يمكن الرابطة أن تسهم بتقديم مساعدة مالية لإعمار المساجد، وبناء المعهد، وكذلك إرسال الكتب الإسلامية.

وهذا بيان بأسماء الإخوة الأئمة والعاملين في الجمعية الذين حضروا الاجتماع:

- ١- الحاج محمد سليمان ما فو تينغ رئيس الجمعية الإسلامية لمقاطعة يونان، ونائب رئيس المجلس الاستشاري لمقاطعة يونان.
- ٢- الإمام يعقوب مالمينغ تينغ إمام مسجد شون جن جي.
- ٣- الإمام محمد إدريس خوبي كوانغ إمام مسجد شون جن جي.

- ٤- الحاج علي جمال الدين مى زي خه إمام مسجد نان جنغ سي.
- ٥- الحاج علي وان شم سه إمام مسجد جن جي.
- ٦- السيد محمد عيسى ماشاو لينغ إمام مسجد بي شي كونغ.
- ٧- السيد محمد أمين ما آن شنغ نائب رئيس الجمعية الإسلامية لمقاطعة يونان.
- ٨- السيد عبد الله ما ان زي نائب رئيس الجمعية الإسلامية لمدينة كون مينغ.

ماضي المسلمين في يونان

هذا ما ذكره الأخ محمد سليمان رئيس الجمعية الإسلامية في (يونان) عن حاضر المسلمين، فماذا عن ماضيهم؟

لقد كان للمسلمين تاريخ مشرق في هذه المقاطعة التي تبلغ مساحتها الآن ١٧٠ ألف كيلو متر مربع، كما يبلغ عدد سكانها ٦٨٤, ٢٢٧, ٢٢ حسب إحصاء عام ١٩٨٢م، ولن نخوض في التاريخ الطويل للمسلمين، وإنما نقول باختصار:

قدر عدد المسلمين في يونان حالياً بنصف مليون نسمة، مع أن المعروف أن عددهم في أول القرن العشرين بلغ ٢٩٠, ٥٦٨, ٤ نسمة، وكان لهم ٣٩٧ مسجداً حينذاك.

خلال الحكم المغولي في الصين تولى إدارة هذه المنطقة السيد شمس الدين عمر الذي تروى بعض الكتب التاريخية بأنه من آل البيت، وقد قدم إلى الصين مع المغول وسماه الإمبراطور قوبيلاي خان (سان تيان جي) يعني سيد الصين أو السيد الأجل، واجتهد في تعمير وازدهار

المنطقة وتشجيع الثقافة، وعمل على نشر الإسلام، وتوفي سنة ١٢٧٩م ودفن في كون مينغ، ثم تولى بعده أبناؤه وأحفاده ولاية هذه المنطقة. وفي بداية القرن التاسع عشر الميلادي كان للإسلام عدة ملايين من الأتباع في هذه المنطقة.

ويحدثنا التاريخ أنه في عهد حكومة أسرة جينغ (Ching) المانشورية في الصين ١٦٤٣ - ١٩١١ تعرض المسلمون عموماً لمظالم واضطهادات شديدة، واندلعت الثورات الإسلامية ضد الحكم المانشوري الصيني في ولاية يونان لأول مرة سنة ١٨١٨م، وتمكن المسلمون من سحق القوات الصينية في عام ١٨٥٦م، وأصبح السلطان سليمان تووين شه ملكاً على المسلمين، وشكل مملكة إسلامية صينية عاصمتها تالي فو، ثم عمل السلطان سليمان على توطيد حكمه الإسلامي في مقاطعة يونان، واتصل بالإنكليز.

ولا تزال ذاكرة التاريخ مليئة بأخبار السيد الأجل وما أثره في يونان، وقد نشرت مجلة (بناء الصين) في طبعتها العربية مقالاً للأستاذ يحيى لين سونغ، وهو أستاذ صيني مؤرخ وباحث، نشر ملخصاً له فيما يلي:

السيد أجل شمس الدين

مساهمة عظيمة لمسلم في بناء مناطق الصين الحدودية

السيد أجل شمس الدين، والي مقاطعة يونان بجنوب الصين الغربي، توفي في مطلع خريف عام ١٢٧٩م، ومنحته حكومة أسرة يوان لقب: « الأمير شيان يانغ » بعد وفاته لما قدمه من مآثر جليلة في توطيد وتعزيز مناطق الصين الحدودية حيث لقي الاحترام والحب من أهلها، ولذا ما زال اسمه خالداً في التاريخ تتناقله الحكايات والروايات بين أهل

يونان.

كان اسمه في الأصل عمر، وكان موطن أجداده في مكة، وعلى ما تذكر الأنساب أنه من سلالة النبي محمد عليه السلام، من الجيل الحادي والثلاثين.

وهاجرت أسرته، في أوائل القرن الثالث عشر، من بخارى إلى الصين.

وعند ما كان في ريعان الشباب نشط على المسرح السياسي بمواهبه المتفتحة ونبوغه الخارق، فقد تولى المناصب، في أسرة يوان معاصراً أربعة أباطرة، متدرجاً من موظف صغير في الدوائر الحكومية المركزية إلى حاكم مقاطعة، ولما كان والياً لمقاطعة شنشى سيتشوان عمل لمصلحة الشعب وسعى إلى تطبيق السياسات الصالحة للشعب، فنجح أيما نجاح، فحظي بالتقدير العالي، وفي عام ١٢٧٤م، حينما كان له من العمر ٦٣ سنة، أسند إليه الإمبراطور قوبلاي إدارة يونان التي كانت منطقة جرداء قفراء غارقة في الاضطرابات.

فن السياسة المرنة

ما أن وصل السيد أجل شمس الدين إلى يونان حتى واجهه الأمير تسونغ توه لو المقيم في مقاطعة يونان بالسلاح بتحريض من أفراد حاشيته ظاناً أن السيد أجل شمس الدين سيغتصب منه سلطته، غير أن صاحبنا قابله هادئ البال، رابط الجأش، وأرسل إليه ابنه الأكبر ناصر الدين ليشرح له أنه جاء إلى هنا بناء على أمر من الإمبراطور، وليس للنزاع معه على السلطة، فاقتنع وزال عداؤه تدريجياً، ووجه اللوم إلى حاشيته لإثارتهم المتاعب وبذر بذور الشقاق بينه وبين السيد شمس الدين.

وفي اليوم التالي أرسل مبعوثين لزيارة السيد شمس الدين وجرى بينهم حديث ودي، وولاهما بعد ذلك منصبين، فطار الأمير تسونغ فرحاً ولم يعد يفكر في وضع أي عائق أمامه، ولم يحول السيد شمس الدين ببراعته السياسية الوضع الخطر فقط، بل تمكن كذلك من إتقان العمل.

وفي الوضع الذي تقشى فيه النفوذ، وأصبح لكل صاحب نفوذ سلطته الخاصة، بدأ السيد أجل شمس الدين أول ما بدأ بتعديل وإصلاح الأنظمة وتعيين المسؤولين، فأدى إلى تقليص جبروت الدوائر العسكرية، وتقوية السلطة المدنية، ونتيجة ذلك تم توحيد كل ما وضعت الحكومة من القوانين والأنظمة والسياسات، وصارت كل السلطات مركزة في يده، كما سعى بكل ما في وسعه لإقامة نظام المحافظات والولايات التي تدرجت من « لو » (المركز الإداري)، « فو » (المنطقة الإدارية الخاصة) « تشو » الولاية، و(شيان) المحافظة بدلاً من المنظمات العسكرية السابقة التي كانت تحكم ١٠٠٠٠ عائلة، أو ١٠٠٠ عائلة، وعين لكل منها حاكماً.

ومنذ ذلك الوقت صارت يونان مقاطعة إدارية استمر معظم محافظات قائماً مع مرور الزمن في أيام أسرة يوان، مينغ، تشينغ، وحتى ولادة الصين الجديدة في عام ١٩٤٩م كانت في مقاطعة يونان ١٠٨ من المحافظات، منها ٥٧ محافظة أنشئت في عهد السيد شمس الدين.

واسع الأفق ورحب الصدر:

السنة التي تلت توليه منصبه في يونان، تمرد المتسلط المحلي في مدينة لوبان جنوب مدينة كون مينغ، فذهب إليه السيد شمس الدين

على رأس قواته لمعالجة هذا الأمر، وما أن وصل إلى مدينة لوبان حتى طلب جنوده وقواده أن يشنوا حملة لقمع التمرد، لكنه رفض ذلك بإلحاح، بل أرسل رجاله للتفاوض مع الطرف المتمرد الذي تحصن في قلعته.

وإزاء ذلك هب بعض الجنود والقواد الذين فقدوا الصبر ليشنوا هجمات على القلعة، فغضب عليهم السيد شمس الدين وأمر بإيقاف الهجمات وقال لهم:

« أتيت إلى يونان، بناء على أمر من الإمبراطور، بهدف إدارتها لا للتقتيل ».

وفي الحال عاقب القادة الذين شاركوا في الهجمات.

ولم يكد هذا النبأ ينتشر حتى استسلمت له كل القوات المتمردة المرابطة في لوبان، وسرعان ما خضعت سائر القوميات لقيادته حتى صار في العام التالي تحت حكمه ٨٠ مركزاً تضم ٤٠٠ ألف عائلة بمنطقة ونشان جنوب يونان.

ومما يجدر بالذكر الروح المتمثلة في عدم الانتقام الشخصي التي اتصف بها السيد شمس الدين كسياسي بارز نظر إلى الأمور ككل، ومن الأمثلة على ذلك أن بعض الموظفين المحليين في بداية الأمر قد ذهبوا إلى العاصمة يعرضون على الإمبراطور قوبلاي شكاواهم زاعمين بأن السيد شمس الدين طاغية ومستبد.

إلا أن الإمبراطور أمر بتكبيهم بأغلال وقيود، ثم أعادهم إلى السيد شمس الدين ليعاقبهم بنفسه.

ولم يخطر ببال الناس أنه خلصهم من الأغلال واستقبلهم وقال لهم: « إنكم جاهلون بمهمتي التي وضعها الإمبراطور على عاتقي، لذا لا أعاقبكم بل أوليكم المناصب كي تؤدوا خدماتكم بإخلاص فداء لجرائمكم » فتملكهم التأثر دامعة عيونهم وأقسموا بأنهم سيردون على جميله بحياتهم وأرواحهم.

ضليع وبارع في الاقتصاد :

وفي نفس الوقت كان للسيد شمس الدين باع طويل في المالية والاقتصاد، فقد كان مسئولاً عن إمدادات الخطوط الأمامية حين شن الإمبراطور شيان تسونغ منع عام ١٢٥٨ حملة على مملكة شو في سيتشوان، وأنجز مهمته بشكل سليم.

ثم عينه الإمبراطور قوبلاي في عام ١٢٦٢ مسئولاً عن سك العملة، إلى جانب وضع الميزانيات، ولبراعته في السيطرة على سك النقود فلم تبلغ العملة المسكوكة خلال الثلاث سنوات سوى ٢٤٠ ألف تيل^(١)، من الفضة، أما خليفته فأصدر في سنة واحدة أكثر من هذا الرقم بكثير حتى وصل التضخم في عام ١٢٨٥ إلى مليونين وأربعين ألف تيل من الفضة بزيادة ثمانية أضعاف ونصف، ونتيجة لذلك انخفضت قيمة العملة، وحين كان والياً لمقاطعة شنشي - سيتشوان ازداد تعداد السكان وارتفع إنتاج الحبوب، وازدهر الاقتصاد في الثلاث سنوات الأولى من عهده.

لقد أظهر السيد شمس الدين مواهبه وقدراته في إدارة الاقتصاد في يونان، وجمع كثيراً من المعلومات عن مقاطعة يونان، ورسم لها الخرائط

(١) التيل: وحدة وزن صينية تساوي ١,٥ أونس.

التفصيلية التي توضح الجبال والأنهار والمدن والمساكن ومراكز
المواصلات ومعسكرات الجيش والمرتفعات والمنخفضات.

وبعدما صار حاكماً ليونان كان يستشير الناس فاستطاع أن يقوي
الدولة ويسعد الشعب، كما أسرع في فعل كل المنافع وتصفية المساوي،
وقد اتخذ إجراءات لتخفيف أعمال السخرة وتخفيض الضرائب، وإيواء
المشردين وإعانة الأرامل وإطعام أبناء السبيل، وتطوير المدن مما جعل
الفقراء يحصلون على الغذاء والكساء، والمشردين يجدون المأوى،
وكان استصلاح الأرض، وبناء مشاريع الري، وتشبيد الطرق من أبرز
أعماله.

وفي أوائل أسرة يوان لم تشهد يونان إنتاج الحبوب وزراعة أشجار
التوت لتربية دود القز، وعندما وصل السيد شمس الدين إلى يونان جلب
إليها فن الحراثة المتقدمة وتجربة زراعة أشجار التوت وتربية دود القز،
وخاصة استصلاح الأرض، كما أوضحت الأرقام التي جاءت من
السجلات التاريخية لأسرة يوان لاثنتي عشرة منطقة أن ٢٨١٤٩ عائلة
أتمت استصلاح ٣٩٤٨٢٨ مو من الأرض، وفي أيام حكم السيد شمس
الدين فإن ١٦٢٧٧ عائلة (٥٧٪) أنجزت استصلاح ١٩٨٦٣٢ مو من الأرض
(٥٠٪).

بلغت الأراضي المستصلحة في كون مينغ ٨٠٠٠٠ مو، لكنها
تعرضت دائماً للفيضان والطوفان في موسم المطر وللجفاف والقحط في
شح المطر، ويرجع السبب في ذلك إلى انسداد مدخل بحيرة ديانشي
ومخرجها - هايكو، فحشد السيد شمس الدين ٢٠٠٠ شخص أنجزوا
خلال ثلاث سنوات إزالة انسداد هايكو، ونزح الغرين والرمل من روافد

البحيرة، وبناء البوابات وتشبيد السدود إلى جانب بناء نظام للري أدى إلى التحكم في مصادر الماء وتعديل منسوب المياه، وهذا ليس يفيد ٨٠٠٠٠ مو من الأرض فحسب، بل وسع المساحات المروية إلى قرابة ١٠ آلاف هكتار، وفضلاً عن ذلك اقترح ترويض سائر الأنهار، وحفر الخنادق والقنوات، وأقام فوق ذلك المنشآت اللازمة استفادة من الظروف المحلية، مثل بناء الحواجز الصغيرة التي ترفع منسوب المياه، وتفريغ الأنهار لتخفيض منسوب المياه، وحفر الخنادق المطمورة التي تخرج منها مياه النهر إلى الخنادق والقنوات، وكذلك شق المجاري تحت قاع النهر التي تجعل السيول أو المياه عند المنسوب المنخفض بحيث حين تتدفق لا تؤثر في منسوب مياه النهر. ونتيجة بناء مشاريع الري تطور الإنتاج الزراعي في يونان إلى حد كبير، فعبر فلاحو مختلف القوميات عن حبهم واحترامهم له بحيث ما زالت مآثره العظيمة في ترويض الأنهار، وبناء مشاريع حفظ المياه تتناقل في القصص الشعبية إلى اليوم.

سبق أنه نجح في شق الطرق، وإقامة الجسور، وتمهيد الدروب في مقاطعة سيتشوان، وعندما رأى المواصلات ونظام المراسلة براً ونهراً في يونان غير متكامل بحيث قد يستغرق وصول رسالة أو أمر من الإمبراطور من العاصمة إلى يونان شهوراً أو سنة كاملة، أسرع في بناء الطرق، وإقامة المراكز عليها، ولذلك شق طريق وومنغ (تشاوتونغ حالياً) الأمر الذي طور المواصلات والنقلات بين يونان وسيتشوان وقويتشو.

المدرسة الأولى:

أعار السيد شمس الدين عناية خاصة لتطوير الثقافة والحضارة في

المناطق الحدودية، فأنشأ أول مدرسة مسطراً بذلك أول صفحة في تاريخ التعليم في يونان؛ حيث أقطع قسماً من أرض المعابد الكونفوشسية لتحصل منها على الإيجارات كتكاليف للتعليم والتدريس، وعباً أبناء مختلف القوميات للالتحاق بالمدرسة، ودعا بعض أهل العلم لتعليمهم، فأدى ذلك إلى تجديد وجه يونان، وأسس فيما بعد ابنه الثالث حسين المدارس من هذا النوع في كل حواضر المحافظات مرسياً أساساً جيداً لازدهار الثقافة والحضارة في يونان.

غرس الدين الإسلامي:

لم يكن في السابق سوى القليل من المسلمين الذين رحلوا إلى يونان للراحة والنزهة، وتبع تولى السيد شمس الدين الحكم دخول أعداد كبيرة من المسلمين إلى يونان للاستيطان فيها، فأينما وجدت الأرض المستصلحة وجدت المسلمين وقد أخذوا نصف المناصب الرسمية على مختلف المستويات في المقاطعة، كما أن التجار المسلمين نشطوا في البلدات الهامة على خطوط المواصلات.

وبعد وفاة السيد شمس الدين، استوطن معظم أفراد عائلته في يونان، ولذا نجد اليوم من الأسماء العائلية الموجودة في يونان دليلاً على أنهم أحفاده، منها: سه، شا، نا، خه، ثا، سو، شان، هو.

وما زالت العادات والتقاليد والطقوس الإسلامية سائدة محفوظة فيما بين المسلمين في يونان، وقد بنوا المساجد لنشر دين الإسلام، وقيل إن السيد شمس الدين قد بنى ١٢ مسجداً في كون مينغ، وبقي منها اليوم مسجد ناننتشنغ، ومسجد يونغنينغ حيث يؤدي المسلمون شعائرتهم الدينية وخصوصاً في عيد الأضحى وعيد الفطر من كل سنة.

ولغة الخان عامة الاستعمال فيما بين المسلمين؛ إلا أنهم يتكلمون في الحياة اليومية والمناسبات الدينية بلغة هي خليط من الفارسية والعربية، إن استيطان المسلمين في يونان بأعداد كبيرة، وانتشار دين الإسلام، وتطور الصداقة بين الصين والبلدان العربية يرجع إلى جهود السيد أجل شمس الدين، فلنحتفل سوياً بالذكرى السنوية الـ ٧٠٠ لوفاته.

انتهى كلام المجلة.

المصحف المخطوط المطبوع:

قدموا هدية للرابطة نسخة من المصحف الشريف الذي طبعوه في مقاطعة يونان هذه، ويقع في ثلاثين جزءاً لم يتسع لها إلا صندوق كبير من الخشب لا يستطيع الشخص الواحد أن يحمله بين يديه.

وذلك أنهم طبعوا المصحف طباعة مكلفة إذ كتبوه بخط اليد على رواسم خشبية بخط صيني تقليدي، وهو الخط العربي الذي تطور في الصين حتى صار على هيئة خاصة، ثم طبعوا تلك الرواسم (الإكليثات) مثلما كانت الطباعة القديمة المسماة طبعة الحجر، وذلك لعدم وجود وسائل الطباعة الحديثة لديهم، ومن أجل أن تكون للمصحف ميزة خاصة على المطبوعات المعتادة.

وقد ذكروا أن طباعته بهذه الطريقة قد استغرقت خمس سنوات.

وهذه صورة أول هذا المصحف:

سورة فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِك

مدنية ومع سبع آيات

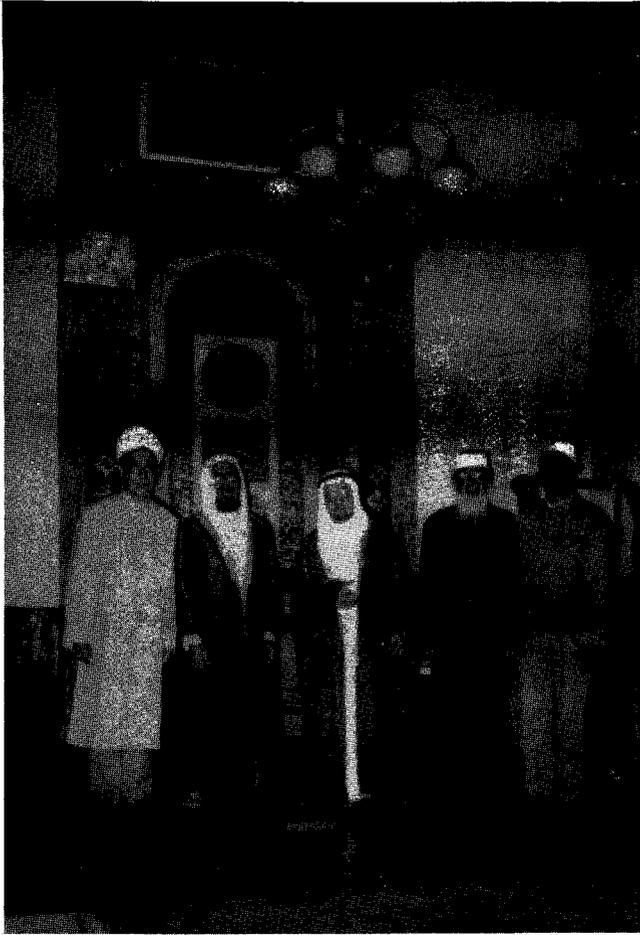
يَوْمَ الدِّينِ اِيَّاكَ نَعْبُدُ

وَ اِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اِهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

صلاة الظهر:

نزلنا من القاعة في الطابق الثاني إلى المسجد، وقد كثر الإخوة المسلمون الذين كانوا قد تجمهروا من قبل حتى ضاق بهم المسجد، وقد غلبهم التأثر لرؤية إخوانهم القادمين من مكة المكرمة.



في محراب جامع كون منغ ويميني إمام الجامع

وأذن المؤذن لصلاة الظهر في الثالثة، فأدينا تحية المسجد ركعتين ولكنهم أدوها أكثر من ذلك.

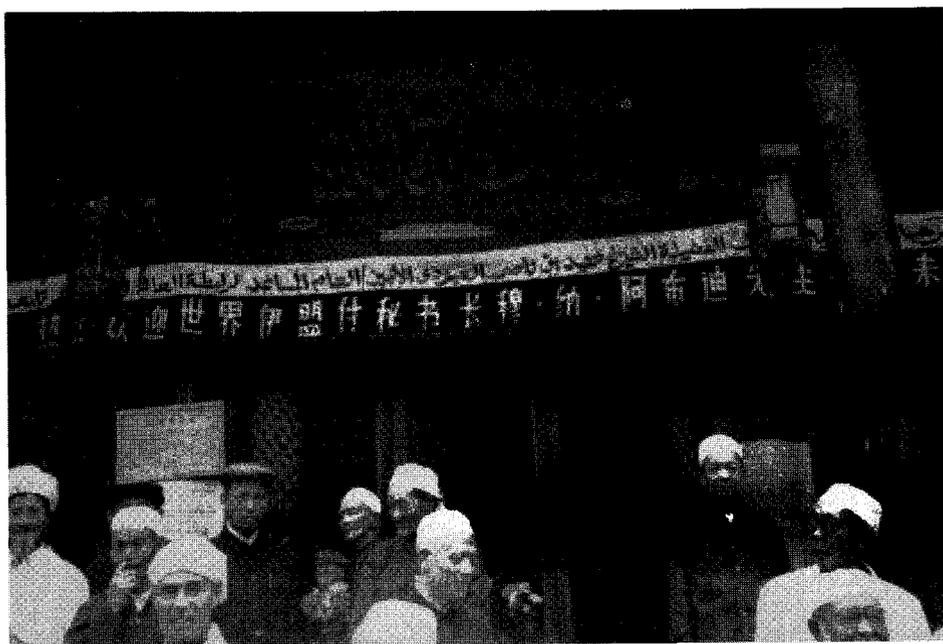
صلينا في محراب المسجد الذي هو كالمحاريب الصينية التي تكون منقوشة مزوقة يغلب على ألوانها اللون الذهبي، وقد كتب على هذا المحراب آيات قرآنية منها الآية الكريمة: ﴿إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾.

الحفل الكبير

يعد أداء الصلاة تقدم أحد الإخوة من زعماء المسلمين الذين اجتمعوا في فناء المسجد، فألقى كلمة ترحيب وتعريف موجهة للإخوة المسلمين المصلين الذين لم يكونوا معنا في القاعة قبل ذلك، فعقب عليه الأخ المرافق الشيخ (نعمان ما شي آن) نائب رئيس الجمعية الإسلامية العامة في الصين، فرحب بنا وشرح للحاضرين مهمتنا، وقال: إن إسراع فلان إلى زيارة إخوته المسلمين في الصين يدل على الرغبة الحقيقية في التعاون الأخوي ما بين الجمعية الإسلامية وبين رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

وقال: لقد سبق أن جاء فلان - يقصدني - إلى الصين في عام ١٩٨٤م، وقام بجولة في عدة مقاطعات، وكان لزيارته أثر كبير في زيادة التعاون بين المسلمين الصينيين والمسلمين في العالم، وهما الآن بيننا يزور مقاطعات من مقاطعات الصين لم يزرها من قبل، فنشكره على ذلك، ونرجو أن ينقل شكركم وشكر المسلمين جميعاً إلى الإخوة في المملكة العربية السعودية، وبخاصة في رابطة العالم الإسلامي التي هي منظمة شعبية عالمية تساعد المسلمين في جميع قضاياهم.

وقال: لقد شرفنا بهذه الزيارة، بل شرف بها المسلمين في الصين كلها، وإننا مدينون لرابطة العالم الإسلامي، ولا سيما في استضافتها لبعثة الحج الصينية في كل عام، كما أننا نشكر مساهمة رابطة العالم الإسلامي في المساعدة على بناء المساجد، وإنشاء المعهد الإسلامي في ين تشا، وتوزيع المصاحف والكتب الإسلامية.



لافتة ترحيب فوقها الآية الكريمة « إن الدين عند الله الإسلام » بالخط الصيني على المسجد في كون منغ

ثم وجه كلامه للمسلمين في مقاطعة يونان هذه فقال: إن تاريخ المسلمين في هذه المقاطعة حافل بالعمل الإسلامي المجيد، ولذلك رأينا كثيراً من علماء المسلمين الصينيين الذين أسهموا في خدمة الدين الإسلامي في الصين من هذه المقاطعة، منهم الشيخ محمد مكي

والشيخ عبد الرحمن ما جونغ، ولذلك نرجو منهم المزيد من الاهتمام بالتعليم وتربية النشء، ونرجو أن يبذلوا الجهود المتواصلة لإكمال بناء المعهد الإسلامي فيها ليكون قاعدة للتربية الإسلامية هناك.

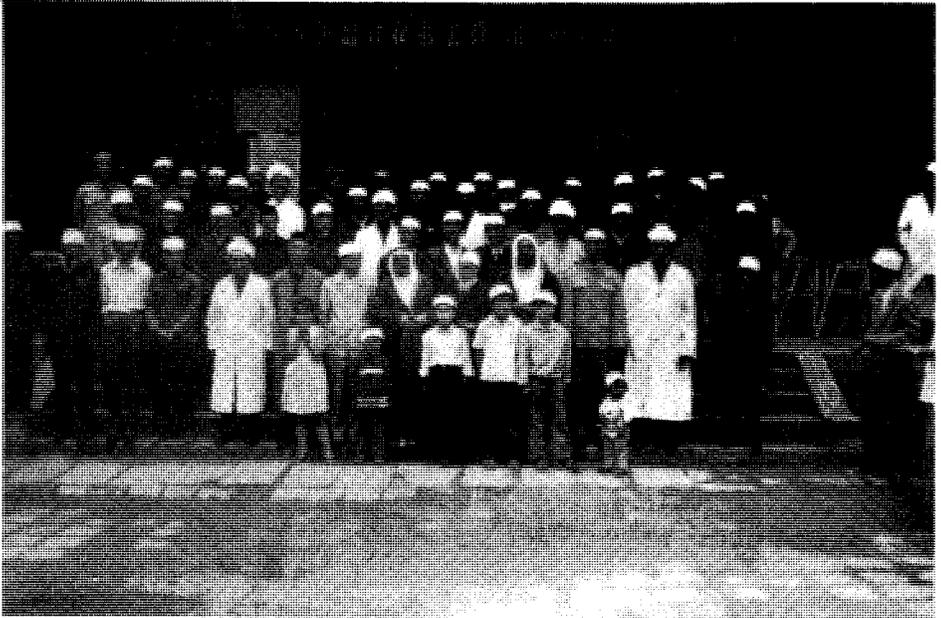
وقد ألقيت إثر ذلك في المسلمين المجتمعين كلمة مناسبة تضمنت من بين ما تضمنته وصيتهم بالمحافظة على إسلامهم عن طريق تربية أولادهم تربية إسلامية، وذكرت لهم أنه لا بد من أن يكون المسلم قدوة لغيره في حسن الخلق، وصدق المعاملة، وأخبرتهم أن رابطة العالم الإسلامي مستعدة للتعاون مع الإخوة المسلمين في الصين عملاً بقوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾.



المؤلف يلقي كلمته في جموع المسلمين في مسجد كون منغ

ثم قمنا بجولة على المسجد، ووجدنا تاريخه مكتوباً بأنه بني أول مرة في عام ١٤٠٧م، وبنائه على الطراز الصيني القديم، وقد أكثروا من لافتات الترحيب بنا فيه، ومعها لافتات تقليدية منها: « عاشت الصداقة بين الشعب الصيني والشعب العربي ».

ودعنا الإخوة المسلمين الذين في المسجد، وسرنا مع زقاق عليه بيوت من الطين، وقد جذب وجود السيارات، وتجمهر المسلمين أعداداً من الفضوليين، والمتفرجين من غير المسلمين، فكان منظر ذلك منظر المظاهرة الإسلامية السلمية، مما سر به إخواننا المسلمون، وقالوا: نريد أن يعرف مواطنونا غير المسلمين أن لنا إخواناً من العرب يزوروننا، ويتعاونون معنا على أمور ديننا.



صورة تذكارية مع بعض المسلمين وأطفالهم على درج مدخل الجامع في كون منغ. على يميني رئيس الجمعية الإسلامية في يونان، ويساري نائبه في كون منغ والشيخ سليمان

الأقليات القومية :

وضعوا في البرنامج زيارة معهد الأقليات القومية، وذلك لكون المسلمين أقلية في الصين، فزيارة معهد الأقليات يبرهنون بها على عناية الأكثرية الصينية التي هي قومية (الخان) بالأقليات الأخرى القومية مثل المسلمين الذين وزعهم على عشر أقليات قومية، وهم أقلية عددية مسلمة واحدة.

ذهبنا إلى (معهد الأقليات القومية) من المسجد مباشرة، فوصلناه بعد الرابعة بقليل، ووجدنا في الاستقبال مسلماً اسمه حسن ما يني سن وثلاثاً من الأخوات المسلمات الموظفات فيه، كما وجدنا شخصاً مسؤولاً ذكروا أن وظيفته هي مدير مكتب المعهد، ولا أدري أيعنون بذلك أنه مدير المعهد لأنهم ذكروا أنه أكبر الموظفين فيه، وقد أخذ يشرح تاريخ المعهد والوظيفة التي أسس من أجلها، وهي خدمة الأقليات القومية فكان مما قاله:

إن المعهد تأسس عام ١٩٥٢ وضم ٣٠٠٠ طالب من قوميات مختلفة، منهم مائتا طالب مسلم، ويتلقى الطلاب في هذا المعهد تاريخ، ولغات، وآداب قومياتهم ومجتمعاتهم، وذكر أن المعهد يضم عدة كليات، و١٧ قسماً مختلفة من علمية وأدبية، ويستعمل الطلاب لغاتهم الخاصة، وعددها ١٣ لغة.

ويبلغ عدد المدرسين والموظفين بالمعهد حوالي ٩٠٠ شخص منهم خمسون مسلماً.

قال: ويقدم المعهد الطعام الإسلامي للمسلمين، ويمنحهم إجازات خاصة في عيدي الفطر والأضحى.

وصار يسهب في ذلك، ويذكر تفاصيل ليست معرفتها مهمة لنا، وذلك بينما كانت فتاة موظفة تقدم لنا الشاي الصيني المعتاد.

وبهذه المناسبة، وهي مناسبة الحديث عن الأقليات سألتها عما إذا أسلم شخص من قومية (الخان) التي هي القومية الرئيسية في الصين، فهل يصبح بطريقة آلية من قومية (خوي) لكونه صار مسلماً مثلهم يتزوج منهم، ويزوجونه، ويأكل طعامهم ويعيش كما يعيشون، فلم يجبني إجابة مباشرة بل حاد عن الجواب.

وذكر عدد الأقليات القومية في مقاطعة (يونان) هذه فقال: يبلغ عدد سكان مقاطعة ثلاثين مليوناً، منهم عشرة ملايين من أبناء الأقليات القومية.

ثم انتقلنا مع المسؤولين في المعهد إلى مشاهدة أقسام المعهد، فكان من أهمها معرض أزياء الأقليات، وقد أبرزوا الفروق الكبيرة وغير الكبيرة في ملابس هذه الأقليات المعروضة، كما عرضوا في مكان آخر الحلي وأدوات الزينة لهم.

وفي مكان آخر رسموا خريطة مقاطعة (يونان)، وعرضوا الكتابة القومية للقوميات، وذكروا في كتابة مهمة عندهم أنها لقومية (خوي)، وهي أكبر القوميات المسلمة في الصين.

ومن غرائب الحلي لبعض هذه القوميات وجود ما يشبه الأسورة في الأرجل، والخلخال في الأيدي، خلاف ما هو معروف عندنا في هاتين الحليتين.

كما عرضوا صورة لفارس على جواده ذكروا أنه يعتقد بالإسلام ولم يزيدوا على ذلك.

ثم انتقلنا إلى قاعة كتبوا عليها أنها (غرفة المخطوطات)، أهم المعروضات التي رأيناها فيها مصحف مخطوط، ولكن ليس عليه تاريخ كتابة، ومصحف آخر مطبوع طبعة حجرية.

ثم مخلفات من الآثار بعضها مضت عليه سبعمائة سنة، ومخطوطات صينية أقدمها منذ خمسمائة سنة.

ثم انتقلنا إلى قاعة أخرى عرضوا فيها المخلفات المتعلقة بالموسيقى عند القوميات التي تقطن في مقاطعة يونان هذه.

وكان كل شيء في برنامج الزيارة يسير بطيئاً متثاقلاً مما أضع علينا فرصة الزيارة لمسجد آخر في المدينة إذ كان موعد فقررة مهمة في البرنامج، وهو الاجتماع بالمسؤولين في الحكومة قد أذف أو قارب.

الاجتماع بنائب رئيس الحكومة :

كانت الساعة السادسة موعداً للاجتماع بنائب رئيس حكومة مقاطعة يونان (داو غو دونغ)، وهو من قومية (تاي) إحدى القوميات في هذه المقاطعة.

حضر نائب رئيس الحكومة ومعه بعض الوزراء والموظفين، منهم: شوي شو شه مدير مصلحة الشؤون الدينية لمقاطعة يونان، (وانغ جيا شي) رئيس قسم المراسم بمكتب الشؤون الخاصة في الحكومة، والشيخ محمد سليمان ما فو تينغ نائب رئيس المجلس الاستشاري، ورئيس الجمعية الإسلامية لمقاطعة يونان.

ومصورو الصحافة والتلفزة، وذلك لحضور حفلة عشاء كبرى أقامتها الجمعية الإسلامية الرئيسية لمقاطعة يونان دعوا إليها نائب رئيس

الحكومة، وعدداً من رؤساء الإدارات الحكومية، والشخصيات الكبيرة في المدينة، وقد انطلقنا إليها من فندقنا فندق كون منغ إلى فندق آخر، فاخترقنا وسط المدينة؛ حيث قطعنا شارعاً مرصوفاً بالحجارة الصغيرة الخشنة، وليس بالزفت، ثم سلطنا شارع بكين أحد الشوارع الرئيسية في المدينة؛ حيث أفضى بنا إلى شارع قصر الثقافة العمالية.



المؤلف يستقبل رئيس الجمعية الإسلامية في يونان الشيخ سليمان

وكنا نسير وسط سيل من الدراجات التي امتلأت بها شوارع المدينة كالمعتاد.

وقد رحب نائب رئيس الحكومة بزيارتنا لمقاطعة يونان وقال:

مقاطعة يونان تقع في جنوب غرب الصين على حدود بورما، ولاوس، وفيتنام، وإن سكان المقاطعة يزيدون على ٣٠ مليون نسمة، وإن ثلثهم من الأقليات، وأن المسلمين يعيشون مع غيرهم من القوميات في سلام ووثام، وقد كان لهم دور كبير ومكانة عالية في تاريخ هذه المنطقة، وهم يعملون مع الجميع في بناء وتطوير بلادهم التي هي غنية بالثروات المعدنية والطبيعية، وجوها جميل ومناظرها خلابة نرجو أن تتاح لكم فرصة أكبر لمشاهدتها في زيارتكم القادمة.

فشكرته على ترحيبه وكلماته عن أحوال المسلمين وظروف المقاطعة، وأشارت إلى تقديرنا لنشاط المسلمين الذي يتمثل في ترميم مساجدهم وطبع القرآن الكريم الذي خطوه في خمس سنوات على ألواح من الخشب، كما نوهت بالعلاقات الوثيقة بين الجمعية الإسلامية ورابطة العالم الإسلامي في توطيد صلات المسلمين الصينيين بالشعوب الإسلامية.

ثم دعونا إلى الانتقال إلى مواعيد العشاء، فوجدناها حافلة بالأطباق التي منها مقدمات الطعام المعتادة عندهم.

وبدؤوا أولاً بشيء ذي أهمية عندهم، وهو أن أحضروا الطباخ وقدموه لنا، وعرفونا بأنه طباخ مسلم ماهر، فالتقطنا صورة معه ومع نائبة رئيس المطعم التي كانت ترحب بنا وتشرح حال الأطقمة الموجودة على المائدة لأن بعض الصينيين لا يعرفونها، وذلك بسبب مهارة الصينيين في إعداد الطعام وكثرة أنواعه عندهم.

وقد حسبوا أنواع الطعام التي كانت موجودة على المائدة فبلغت ثمانية أنواع، جاؤوا بعدها باثني عشر صنفاً من الأطقمة، فأصبح

المجموع عشرين نوعاً من أنواع الطعام اللذيذ الغريب بالنسبة إلينا.



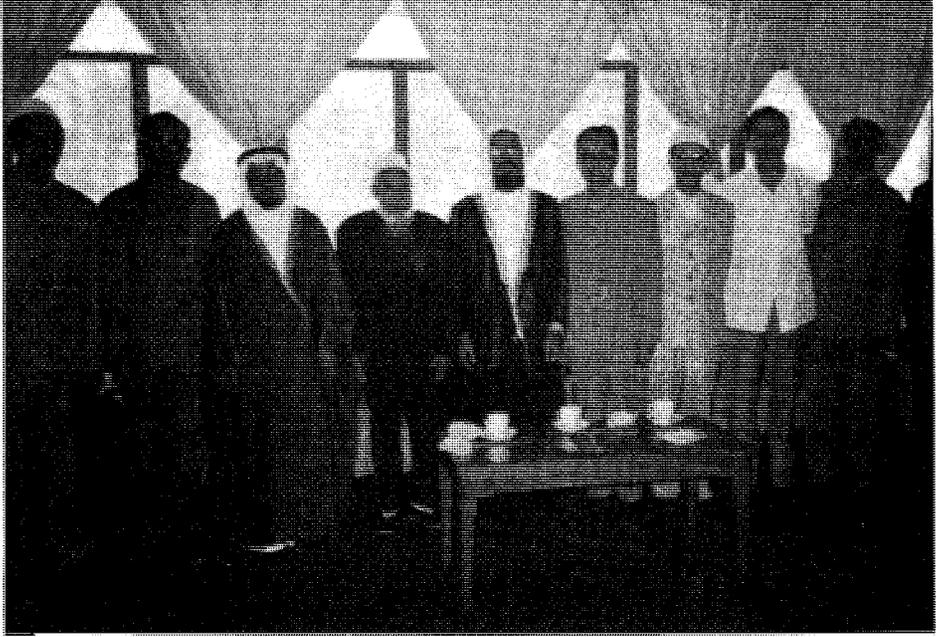
على مائدة عشاء الجمعية الإسلامية لمقاطعة يونان، والطباخ المسلم واقف على يمين المؤلف، وعلى يساره على المائدة نائب رئيس حكومة يونان

وهناك خضرات وسلطات لم يعدوها في تلك الأطعمة، ومن ذلك نوع من المكرونة.

وقال نائب رئيس الحكومة: إن كل هذه الأطعمة المتنوعة هي من إنتاج مقاطعتنا، لم يستورد منها شيء من خارجها.

وكان على المائدة الرئيسية معي نائب رئيس الحكومة، ورئيس الجمعية الإسلامية لمقاطعة يونان، ورئيس مصلحة الشؤون الدينية في

المقاطعة، وهي إدارة حكومية، ومدير مكتب العلاقات الخارجية للمقاطعة.



صورة تذكارية للقاء بنائب رئيس حكومة يونان في قاعة اجتماع الفندق في كون منغ مع المؤلف بين نائب رئيس الحكومة على يساره ورئيس الجمعية الإسلامية على يمينه

وقد استمرت المأدبة ساعتين كاملتين، وكانت مفيدة، تبادلنا فيها الأحاديث المتعلقة بتاريخ هذه المقاطعة القديم والحديث، وقال مدير الشؤون الدينية: إنك مؤرخ ومطلع، فقلت: إنني أحب التاريخ، وقد كتبت أكثر من كتاب يتعلق به، غير أنني لما زرت الصين، وعرفت فيها ما عرفته تبين لي أنني لم أكن أعرف شيئاً ذا بال عن أحوال الصين قبل أن أصل إليها.



المؤلف يلبس نائب رئيس حكومة يونان العباءة العربية

وقد قدمت لهم هدايا قيمة، منها عباءة عربية لنائب رئيس الحكومة، والتقطنا صوراً تذكارية، كذلك قدمت هدايا لكبار الموظفين ورجال الدولة الذين حضروا المأدبة.

يوم الخميس: ٢٢/١٠/١٤٠٧هـ - ١٨/٦/١٩٨٧م

مغادرة يونان:

غادرنا الفندق الودود فندق كون منع في الساعة السادسة من قبل الفجر، لأن توقيت المدينة هو بتوقيت بكين، مع أن بينهما أكثر من ألفي كيلو من فرق الموقع بين الشرق والغرب، وكان القياس أن يتأخر

توقيتها عن توقيت بكين ثلاث ساعات، فتصبح الساعة السادسة هذه هي الثالثة؛ لأن الفجر لم يطلع بعد، وقد قدمت أنهم أخبرونا أن وقت صلاة الفجر يحين في السادسة والنصف، وأنهم يصلونها في السابعة إلا الثلث.

وقد لاحظنا أن أهل الفندق أكثر وداً من أهل شمال الصين، بمعنى أنهم يحبون التقرب من الغريب ويبتسمون في وجهه.

بل إننا رأينا أن هذا الفندق هو الوحيد من الفنادق التي نزلنا فيها في هذه السفارة والتي قبلها في أنه تتولى إدارة الطابق الذي نحن فيه فتاتان شابتان تتبسمان، وتعرضان بذلك للنزلاء.

ولا غرو في ذلك؛ لأن منطقة يونان هذه هي من بلاد الجنس الصيني الجنوبي القريب الشبه ببلاد الجنس الأصفر الشبيه بالملايوي كالتايلنديين، والبورميين، والفيتناميين، وهؤلاء مشهورون بمثل هذا التقرب من الغريب.

وجدنا الشوارع ونحن ذاهبون إلى المطار تكاد تكون خالية من السيارات، بل لم يكن يرى فيها إلا بعض الراكضين الذين يمارسون رياضة الجري في هذا الفجر الذي يكون فيها هواء الشوارع العامة نقياً خالياً من أبخرة السيارات، ومن غبار المركبات، والغريب أنني رأيت بين هؤلاء الراكضين بعض الشيوخ من كبار السن.

وعلى مشارف المدينة قابلت أعداداً من الدراجات المحملة بالحاصلات الزراعية، وقد أحضرها أصحابها مبكرين إلى المدينة، والراكبون على هذه الدراجات هم من الرجال والنساء، وبعض الدراجات لا تكاد تراها من ضخامة ما تحمله من علف أو نحوه،

وبعضها عليه حملها معادلاً على صندوقين، وبعض الفلاحين قد حمل ما معه على عود فوق كتفيه يتدلى منه وعاءان، وهو يغذ السير لا يمنعه تمايل حملة عند سيره.

وهناك عربات يجرها الرجل محملة بشيء ثقيل، ولكن عددها قليل.

ومررنا بقناة مائية وجدنا عليها طائفة من الناس حولهم فاكهة وخضرات ذكروا أنهم يغسلونها هنا في هذه القناة من أجل النظافة، ومن أجل أن تتشبع بالماء فيزيدها ثقلاً عند الوزن.

كل هذا ونحن في أول طلوع الفجر، وما زال الظلام هو السائد.

ثم وصلنا المطار، فصعدنا إلى قاعة الترحيل، ورأيت المسافرين يجاهدون في حمل أمتعتهم مع درج يصعد لمبنى المطار الذي فيه قاعة الترحيل، ولا أحد يشكو من ذلك.

ولم ألاحظ كثرة من الناس في المطار، وقال أحدهم: إن هذا هو المعتاد أن يقل الزحام في هذا الفصل من العام، وذكرت زحام المطارات في الهند، ويطء الموظفون في إنجاز أوراق المسافرين وترحيلهم.

أما في الصين، فإنهم أنجزوا إجراءات ترحيلنا بسرعة، ونحن نلاحظ ذلك عن بعد لكون مضيفينا ومرافقينا هم الذين يقومون به جزاهم الله خيراً.

من كون منغ إلى قوانغ تشو (كانتون)

نادوا على الركاب باللغة الصينية التي لا يفهمها إلا الصينيون، فخرجوا من قاعة المغادرة الضيقة كأنما أفلتوا من عَقْل.

وغادرت الطائرة الصينية من طراز بوينغ ٧٣٧ مطار كون منغ في الثامنة إلا خمس دقائق، وكنا صلينا صلاة الفجر في إحدى الغرف الضيقة في المطار.

وقد أعلنوا أن المسافة بين مطار كون منغ وقوانق تشو (كانتون) هي ١١١٠ كيلو مترات، ستقطعها طائرتنا في ساعة ونصفها.

والطائرة مليئة بالركاب، وهم صينيون ليس فيهم من الأجانب غيرنا؛ إلا من لم نفظن له منهم.

وأكثر الركاب هم من جنوب الصين إن لم يكونوا كلهم كذلك، وهم أقل وجاهة في المنظر من أهل شمال الصين وشرقها، فقماماتهم أقصر، وألوانهم أقل صفاء، وأنوفهم أصغر، وهم أقرب في الظاهر إلى التايلنديين والبورمائيين من الصينيين الشماليين، ومع ذلك فإنهم صينيون حقاً لم يخرجوا من الدائرة الصينية العامة التي تتميز بالمظهر الصيني المعروف، ولغتهم هي اللغة الصينية وحدها لا يظن من يرى كتابتهم أنها تختلف عن غيرها من أنحاء الصين في اللغة، ولكن إخواننا المراقبين أخبرونا أنهم لا يعرفون لهجتهم، وإنما كانوا يتفاهمون معهم بلغة بكين.

ارتفعت الطائرة وقد غمر النور الأرض، وإن لم تشرق الشمس بعد، فاتضح منظر الحقول الخضراء على هيئة شرائح صغيرة محددة؛ لأنها من المزارع الخاصة التي هي ضيقة كما تقدم، أما الأراضي الزراعية الواسعة، فإنها مملوكة للحكومة، أو للمزارع التعاونية الشبيهة بالحكومية.

أما الضيافة، فإنهم كعادتهم قدموها في علبة من الورق أبعدها

عنها اللحم بناء على رغبة الإخوة الصينيين المرافقين، فبقيت فيها خبزتان صغيرتان، وقطعتان من حلوى (الشوكولاته)، ثم أحضروا الشاي الصيني المعتاد.

سألت الإخوة المرافقين، ومنهم الأخ الشيخ (نعمان ما شي آن)، والأخ مصطفى يانغ بوه عن السبب في كون الركاب في الطائرة هذه كثيراً، وقد عهدتهم قلة في الطائرات الأخرى؟ فذكروا أن الحكومة الصينية أعطت التجارة قدراً من الحرية في جنوب الصين أكثر مما هو موجود في بقية أنحاء الصين، ولذلك صارت مدينة قوانغ تشو (كانتون) بمثابة البوابة التجارية للصين، تقام فيها المعارض التجارية والصناعية الصينية الدائمة، ويتردد عليها التجار من أنحاء العالم؛ لأن الإذن بدخولهم إليها أسهل من غيرها، ولذلك كثرت النقود بأيدي الناس في جنوب الصين كثرة نسبية.

قالوا: وإلا فإن أجرة الطائرة تكلف الصيني إذا كان موظفاً متوسطاً ما يعادل راتب شهر ونصف بسبب ضعف الدخول، وليس بسبب غلاء الأجرة؛ لأنهم يأخذون منه أقل من نصف أجرة الراكب غير الصيني.

في مطار قوانغ تشو

بدأت الطائرة التدني إلى الأرض قبل الوصول إلى المطار بفترة فوق أراضٍ مزروعة كلها، يشقها نهر حوله مناطق عديدة للمياه، وحقول من حقول الأرز المغمورة بالماء، بل إننا رأينا عدة أنهار صغيرة ربما كانت فروعاً من نهر كبير، أو روافد له لأن الموسم هو موسم الأمطار في هذه المنطقة.

وتزين المنطقة تلال كثيفة الاخضرار، وتجمعات سكنية متقاربة. عندما ازدادت الطائرة قريباً من المدينة تكاثفت القرى الكبيرة فالمنطقة خصبة وقديمة السكن مما يجعلها كثيفة السكان. وبعض الأنهار أو القنوات الكبيرة تقع البيوت على ضفافها مباشرة.

ولاحظت شيئاً يدل على قلة ركوب الصينيين للطائرة، وهي أن كثيراً من الركاب كانوا يتركون مقاعدهم ويتطلعون من نوافذ الطائرة إلى الأرض وهم يتعجبون.

وزادت كثافة المياه عندما قربنا من المدينة، وقد بدت الأبنية الضخمة العالية تتناول حول ضفاف الأنهار الواسعة. وبدت المدينة واسعة ممتدة المساحة.

ثم هبطت الطائرة في المطار في التاسعة وخمس دقائق، وقد استغرق طيرانها ساعة وخمساً وثلاثين دقيقة، وعندما ما هبطت أخذت المضيفات تعلن للركاب بغضب: اجلسوا حتى تقف الطائرة.

وجدنا في الاستقبال في المطار رئيس الجمعية الإسلامية الحاج (إبراهيم يانغ خان كوانغ)، ونائبه الشيخ الحاج نور محمد ما فنغ داه وأحد أعضاء الجمعية، وهو محمد علي ما يونغ جي، إضافة إلى بعض الرسميين من أهل المطار.

مدينة قوانغ تشو:

وهي المعروفة عالمياً باسم (كانتون)، وقد تعددت تسمياتها عند الصينيين على مدى السنين جرياً على عاداتهم في تغيير أسماء المدن

والأماكن، أما اسمها العربي القديم فإن ابن بطوطة - رحمه الله - قد سماها (صين كلاه) بمعنى الصين الكبيرة، و(صين الصين) بمعنى الصينية الخالصة، وذكر عظم مينائها وأنه من الموانئ الكبيرة في العالم.

لن أنقل للقارئ الكريم كل ما ذكره ولا ما ذكره غيره من أحوال هذه المدينة، لأنني ذكرت شيئاً من ذلك في كتاب: «جنوب الصين» ولا أستحسن تكراره، وإنما أذكر هنا ما شاهدنا فيها باختصار مع جزء من كلام ابن بطوطة - رحمه الله -.

وجدناهم أعدوا في المطار سيارة رسمية سوداء طويلة مخصصة لي كالتي اعتادوا على تخصيصها لي في جميع رحلاتي في الصين، وهي التي يركبها عادة الوزراء ورؤساء الوزارات من الضيوف الأجانب عندهم، ومعها سيارة صغيرة أخرى، وسيارة نقل صغيرة نقلت الأمتعة.

وقد سرنا إلى المدينة من المطار مع طريق جيد منسق قد غرسوا على جانبيه أشجار الظل والزهور، ووراءه أراضٍ ذات حقول خضر فيها مناقع مياه عديدة.

ووصلنا إلى شارع رئيسي واسع أسموه الشارع العام، عليه بيوت قديمة أكثرها من طابق واحد، وفي جهة أخرى منه أبنية ضخمة متعددة الطوابق من التي تبنيها الحكومات الشيوعية شققاً سكنية.

أنزلونا في فندق ضخم اسمه (ونغ فانغ هوتيل)، وأنزلوني في جناح واسع فاخر؛ لأن الفندق من فنادق الدرجة الأولى الفاخرة، ولكنه يتميز على كثير منها بسعته، وتعدد مرافقه ومطاعمه وحدائقه حتى إنه يبدو كأنه المحلة الصغيرة الفاخرة.

وهو أفخر من فندق البجعة البيضاء الذي كنا نزلنا فيه في الزيارة الأولى لكانتون.

غداء الأجانب

المطاعم عديدة في هذا الفندق رأيتهم جعلوا في أحدها ركناً للمسلمين أسموه المطعم الإسلامي، وهو فاخر الأثاث والرياش، والغريب أن مرافقينا لم يتغدوا معنا هذه المرة مع أنهم كانوا يأكلون معنا في كل المرات في المطاعم وفي المآدب الرسمية، وعللوا ذلك بأن هذا المطعم بالذات مخصص للأجانب دون الصينيين.

ومما يذكر أن هذه الفنادق الفاخرة، وما فيها من مرافق ومطاعم، وأماكن للراحة وفرتها الحكومة الصينية لمدينة (كانتون) هذه لكونها تعتبر من الناحية التجارية بوابة للصين الشعبية؛ لأنها فتحتها للأجانب منذ دهر في وقت كانت فيه المدن الصينية الأخرى مغلقة دونهم، وجعلت فيها معارض دائمة للصناعات والمنتجات الصينية للتصدير، ولاحظت أن هذا المطعم الفاخر ليس فيه إلا الأجانب بالفعل من فرنسيين وأوروبيين آخرين، وقليل من اليابانيين.

قدموا طعاماً صينياً إسلامياً أي من الطعام الذي أعده المسلمون خالياً من الحرام، إلا أنه ليس في نكهته مثل الطعام الصيني الإسلامي الذي اعتدنا على أكله في المدن التي مررنا بها.

جولة سريعة

تقع مدينة كانتون على شاطئ مياه واسعة يخيل إليك إذا رأيتها أنها مياه بحر واسع، وهي في الحقيقة مياه نهرين مجتمعة، وإن كانت

متصلة بمياه البحر، وإذا رأيت ميناءها والسفن التي فيه لم تصدق إلا أنها على بحر عميق، ولذلك كانت (كانتون) ميناء رئيسياً لجنوب الصين منذ قديم السنين، ويبلغ عدد سكانها الآن ثلاثة ملايين نسمة.

بدأنا الجولة بأن مررنا بسوق من أسواق مدينة كانتون، فجددت بها عهداً ليس بالبعيد، كما مررنا بأساس يحفر لمركز إسلامي كبير يقولون إنه سيكون فندقاً ومطعماً إسلامياً ومسجداً، وأنه سيرتفع ١٣ طبقة، وقد بني على أرض كانت للمسلمين.



في وسط مدينة كانتون

قول لابن بطوطة:

على ذكر أرض المسلمين هنا يجدر أن ننقل ما ذكره ابن بطوطة

عن مدينة (كانتون) هذه التي سماها (صين كلان) بمعنى الصين الكبيرة، و(صين الصين) بمعنى الصين الخالصة قال:

« وهكذا إلى أن وصلنا مدينة صين كلان، وهي مدينة صين الصين، وبها يصنع الفخار وبالزيتون أيضاً، وهناك يصب نهر آب حياة في البحر، ويسمونه مجمع البحرين، وهي من أكبر المدن وأحسنها أسواقاً، ومن أعظم أسواقها سوق الفخار، ومنها يحمل إلى سائر بلاد الصين والهند واليمن، وفي وسط هذه المدينة كنيسة عظيمة لها تسعة أبواب، داخل كل باب أسطوان ومصاطب يقعد عليها الساكنون بها، وبين البابين الثاني والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان وأهل الزمانات^(١)، ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة، وكذلك فيما بين الأبواب كلها، وفي داخلها المارستان للمرضى، والمطبخة لطبخ الأغذية، وفيها الأطباء والخدام، وذكر لي أن الشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة، وكذلك الأيتام والأرامل ممن لا مال لهم.

وعمر هذه الكنيسة بعض ملوكهم، وجعل هذه المدينة وما إليها من القرى والبساتين وقفاً عليها، وصورة ذلك مصورة بالكنيسة المذكورة، وهم يعبدونها، وفي بعض جهات هذه المدينة بلدة المسلمين، لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق، ولهم قاض وشيخ، ولا بد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الإسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة إليه، وقاض يقضي بينهم، وكان نزولي عند أوجد الدين السنجاري، وهو أحد الفضلاء الأكابر ذوي الأموال الطائلة، وأقامت

(١) هم المصابون بأمراض مزمنة أي صعبة الشفاء.

عنده أربعة عشر يوماً، وتحف القاضي وسائر المسلمين تتوالي عليّ، وكل يوم يصنعون دعوة جديدة، ويأتون إليها بالعُشارين الحسان والمغنين، وليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين، وبينها وبين سد يأجوج ومأجوج ستون يوماً فيما ذكر لي، يسكنها كفار رحالة يأكلون بني آدم إذا ظفروا بهم، ولذلك لا تسلك بلادهم، ولا يسافر إليها، ولم أر بتلك البلاد من رأى السد المذكور، ولا من رأى من رآه « انتهى.

عود إلى الجولة :

وصلنا بعد ذلك إلى حي اسمه (سان جوي) أكثر بيوته من طابق واحد، إلا أن الحكومة بنت في ناحية منفصلة عن المنازل القديمة أبنية متعددة الطوابق (عمارات) جعلتها شققاً سكنية.

أما سكان هذه المدينة فإنهم يبدون كالتايلنديين والبورماويين وهم بأهل وسط بورما أشبه منهم بالصينيين، أو لنقل إنهم أقرب إليهم من الصينيين الشماليين، ولا غرو في ذلك لكونهم من أهل جنوب الصين، وإن بعض الباحثين ذكروا أن أصل أولئك الأقوام القصار الفطس من التايلنديين وأضرابهم كان من جنوب الصين قدموا من هناك في أزمان سابقة.

إلا أن ذلك لم يمنعهم من الدخول في الدائرة الصينية العامة التي هي ذات طابع خاص متميز، وليس في أشكالهم من الوجهة ما في أشكال الصينيين الشماليين، وحتى ملابسهم فإنها دون أولئك.

مقبرة المسلمين

تؤلف مقبرة المسلمين القديمة في كانتون كتاباً تاريخياً يدل على قدم استيطان المسلمين في هذه المدينة؛ بل في هذه المنطقة الجنوبية، فشواهد القبور عليها كتابات بالعربية منذ مئات السنين يرقى بعضها إلى ثمانمائة سنة أو يزيد على ذلك قليلاً، وقد نقلت بعضها في كتاب: «جنوب الصين»، عندما زرت هذه المنطقة لأول مرة منذ ثلاث سنوات، وهو كتاب مطبوع.

ولكن الحكومة الصينية بعثت جزءاً من هذه المقبرة، وأبقت جزءاً منها فيه ما يسميه مسلمو الصين قبر سعد وقاص، وليس هو بالصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص بطبيعة الحال، وإن كان بعض الكتاب الصينيين توهم ذلك أخذاً من اسم صاحب القبر (سعد وقاص).

وقد احتفظت إدارة الآثار بشواهد القبور التي بعثتها البلدية، وهي حافلة بالكتابات القديمة المكتوبة باللغة العربية، وقال لي الإخوة المرافقون: إن البلدية تركت بعض القبور الأثرية داخل الحديقة لكونها تتميز بكونها معالم تاريخية، ولم أشاهد ذلك.

أما ما بقي من المقبرة فإن فيه أيضاً شواهد مكتوبة بالعربية، ولكنها أحدث عهداً من تلك، ولا يزال الناس يذهبون لرؤية الجزء الباقي من المقبرة. وقد زرناه في هذه المرة.

ذكرت هذا عندما مررنا بمقبرة جديدة للمسلمين ذكروا أن الحكومة الصينية عوضتهم بها عن المقبرة الأثرية القديمة التي كانت لهم.

وشاهدنا الزحام الشديد في شوارع المدينة التي نما سكانها ولم تتوسع شوارعها بقدر ذلك، والحافلات كثيرة ظاهرة في شوارع المدينة إلا أنها تبدو مليئة بالركاب، وفيهم وقوف كثير.

وذكروا أنه يسمح بدخول السيارات الأجنبية إلى (كانتون) من دون المدن الصينية الأخرى.

وذلك لقربها من (هونغ كونغ)، وحاجتهم إلى تسهيل الاتصالات والمعاملات التجارية فيها، وكذلك لتسهيل وصول السياح الذي ينفقون عملات أجنبية صعبة.

والجوهنا حار لا يستطيع المرء الراحة فيه دون تكييف، وقد وجدت شواهد على حرارة الجو في البضائع المعروضة للبيع كالموز الذي هو معروض بكثرة، ومعلوم أنه لا ينمو إلا في أماكن حارة.

شارع الشعب

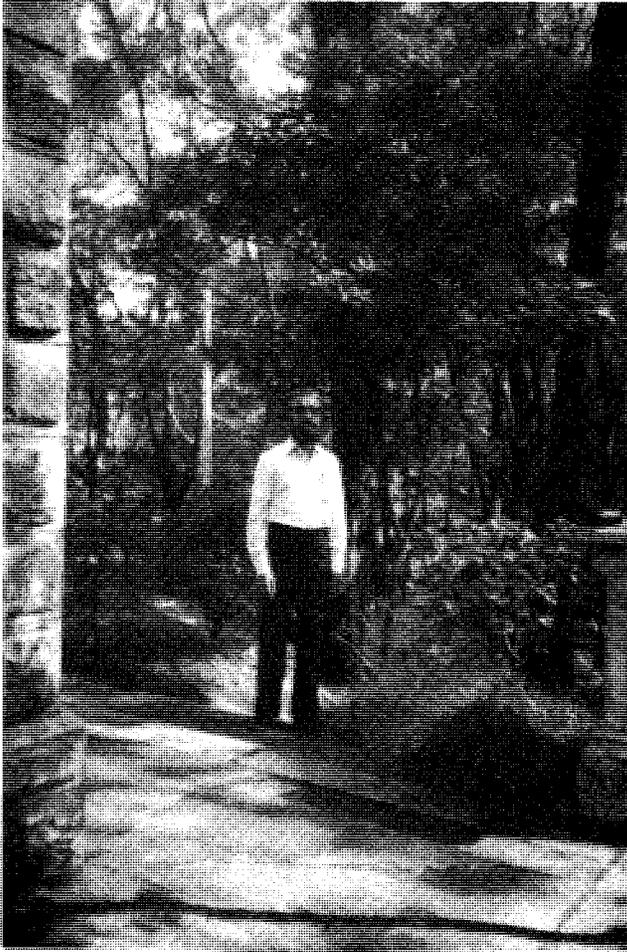
مررنا بشارع الشعب، وهو شارع طويل مزدوج فيه جسر طويل رأيت تحت جزء منه، وتحت جسر آخر محلات لبيع الأشياء الخفيفة.

حديقة الأزهار الصفرة

دخلنا حديقة اسمها (هوانغ خوا) بمعنى الأزهار الصفرة.

وهي واحدة من عشر حدائق موجودة في المدينة، وتقع على تل مرتفع من جبال غير مرتفعة تقع شرق كانتون إلا أن لهذا التل ظهراً ضيقاً مستوياً جعلوا الحديقة فوقه وفوق الأراضي المحيطة به.

أكثر مميزات الحديقة أشجار ضخمة وارفة الظلال في هذا الجو الحار الرطب.



صورة تذكارية للمؤلف داخل حديقة الأزهار الصفرة في كانتون

ومن أهم ما اعتنوا به في الحديقة تمثال الحرية الذي يتألف من عدة تماثيل أو من عدة أجزاء كتبوا على كل جزء فيها الجهة التي أنشأته أو أنفقت عليه، وكلها من جماعات صينية مهاجرة في الخارج ذكروا منها الصينيين المهاجرين في مشيغن، وواشنطن، والفلبين، و(بورت لاند)،

وشيكاغو، وسان فرانسيسكو، وكذلك من الجماعة الصينية المهاجرة في ليفربول في إنكلترا.

ولا يزال على هذا التمثال شعار رابطة الصينيين الوطنية المسماة (الكومنتاج)، وهي التي أطاح بها الشيوعيون بقيادة ماوتسي تونغ.

وأسس حركة الكومنتاج الزعيم الصيني (صن يات صن)، ولذلك وضعوا في هذه الحديقة نصباً نقشوا عليه أسماء ٧٢ رجلاً سقطوا قتلى عندما قام (صن يات صن) بثورته الجمهورية ضد الإمبراطورية الصينية في عام ١٩١١م.

وفي مكان آخر كتبوا تاريخ إنشاء هذه الحديقة قبل ٧٠ سنة، إلا أنها لا تلقى العناية اللازمة لمثلها فيما شاهدناه، وقال أحد المرافقين: ربما كان ذلك لكونها أنشئت في عهد الكومنتاج عدو الشيوعيين.

مع العلم بأن أشجار الحديقة لا تحتاج إلى سقي فهي تسقى بماء السماء.

شارع صن يات صن

مررنا مع شارع شهير في كانتون هو شارع صن يات صن، وهو كما يسمونه أبو الثورة الصينية؛ لأنه قاد ثورة ضد آخر أباطرة الصين حتى أسقطه، وأعلن الجمهورية في الصين، ولكن ذلك لم يشفع له عند الشيوعيين الذي لا يزالون يظهرون احترامه، ولكنهم قاموا على خليفته في حزبه حتى أسقطوه في البر الصيني، وطرده منه حتى اضطر للالتجاء إلى (تايوان).

ومما تتبغى الإشارة إليه أن (صن يات صن) يعتبر من أهل هذه

المنطقة، وإن لم يكن من أهل كانتون نفسها، فإنه من بلدة لا تبعد عنها كثيراً اسمها تسوبي هنج، ولكنه أقام في كانتون مدة طويلة، وتوفي في عام ١٩٢٥م.

والغريب في هذا الشارع أنه بالنسبة لمرور الدراجات فإنه يعتبر ذا اتجاه واحد؛ لأنه يفصل بين الممر المخصص للدراجات في الشارع وهو أقصاه من جهة اليمين للدراجات الداھبة، وأقصاه من جهة اليسار للدراجات الآبية، يفصل بين الممرين وسط الشارع العريض الذي تتلاقى فيه السيارات الداھبة أي أنه شارع ذو اتجاهين في المرور.

فالسارات قد تتلاقى في الشارع بخلاف الدراجات، وذلك يدل على كثرة استعمال الدراجات وأهميتها عندهم.

ولاحظت كثرة القبعات العريضة على الرؤوس وبخاصة على رؤوس العمال والعاملات، وذلك للوقاية من الشمس، ومن المطر الخفيف. ويمتد شارع صن يات صن من الشرق إلى الغرب مسافة عشرة كيلو مترات.

ومع ذلك فهو ليس واسعاً ولا فاخراً.

الحي القديم

طلبت من الإخوة المرافقين أن يروني حياً من الأحياء القديمة في كانتون، فوجدت بيوته مبنية من الطين والآجر، وهي متطامنة غير مرتفعة، وإلى جانب هذا الحي الأبنية المتعددة الطوابق على طراز قديم، ولكنها ليست عالية أيضاً.

نهر اللؤلؤ



نهر اللؤلؤ في كانتون

عبرنا فوق جسر على نهر اللؤلؤ، ثم وقفنا على ضفته التي بنوا على شارعها رصيفاً عريضاً مما يلي النهر، وعلى الجانب الآخر حوانيت قديمة وهي مفتوحة الآن، ولكنها صارت حكومية بعد استيلاء الشيوعيين على الحكم في الصين.

وقفنا ملياً على ضفة هذا النهر نتأمل مياهه التي اجتمعت على هيئة بحيرة ضخمة عميقة هي أشبه بلجة البحر الخضم منها بمياه النهر.

واسمه بالصينية (جو جيانغ) ومعناه (نهر اللؤلؤ)، فجيانغ: نهر،

وجو: لؤلؤ.

وهو رابع أنهار أربعة كبيرة من أنهار الصين، وليس قبله في العظم الأنهر يانغ سي، والنهر الأصفر، ونهر (خي لونغ يانغ).

وقفنا نتأمل هذا البحر الخضم من المياه، ثم سرنا في رصيفه الذي تلقينا به نسامته المنعشة، ورأينا أصحاب الحرف الصغيرة منتشرين فيه، وهي الحرف التي صارت الآن شخصية بمعنى أن أهلها يعملون لحسابهم، وليسوا موظفين من الحكومة، وكان عمل أمثالهم في السابق ممنوعاً منعاً باتاً ولكن هذا يعتبر جزءاً من الانفتاح الحكومي الذي حصل في الصين.



إسكافيات على الرصيف على ضفة نهر اللؤلؤ (كانتون)

ومن طرائف ما فيه منظر عدد من النساء الشابات يمارسن مهناً

صغيرة، مثل مهنة الإسكافين، وهو الذي يصلح الأحذية، وبعضهن يبعن بضائع صغيرة جداً نزره الثمن.

سرنا في تمشية على الأقدام في شارع الشاطئ، ويسمى (شانغ تي) ومعناها: الشارع الطويل.

وفي هذا الشارع يرى المرء كثيراً من الشبان الذين يبدون بدون عمل، كما أن فيه أناساً يبدو أنهم من المتقاعدین، وأما المتسكعون فإنهم كثيرون، مع أن الدولة شيوعية ملتزمة بإيجاد عمل لكل من كان قادراً عليه؛ بل إنها أحياناً تعاقب الذي يترك العمل من دون عذر.

ومن طريف ما جرى في هذا الرصيف أنني رأيت اثنتين من الإسكافيات، فأردت أن التقط لهن صورة فامتنعن أول الأمر، ولكن الرفاق أفهموهن أنني سائح عربي أبتغي صورة من هذه المدينة أتحف بها أهل بلدي، فوافقن فأسرعت بعد أن التقطت الصورة أقدم لهن يناً واحداً لكل واحدة، فامتنعن عن ذلك بكل إباء مع أنهن لا يحصلن على الين الواحد من عملهن إلا بعد جهد منهن جهيد.

ثم أخذ المرافقون هذه الينات، وهي ثلاثة لامرأتين ورجل، وأعطوهم إياها بعد أن تركتهم.

وهذا الشارع مثل غيره من شوارع المدينة حافل بالدراجات التي لا ينقطع سيلها، حتى يصعب قطعه بسبب كثافة مرورها منه، وكذلك مرور عربات (الركشا) الكثيرة في المدينة حتى أشاروا بأيديهم إلى سائقي الدراجات ليسمحوا لنا بعبور الشارع، وذكروا أن سبب الزحام هو أن هذه هي ساعة انصراف الموظفين من أعمالهم لأنهم يخرجون من العمل في الساعة الخامسة والنصف.



على ضفة نهر اللؤلؤ، المؤلف يتحدث إلى نور محمد نائب رئيس
الجمعية الإسلامية، وإلى اليسار نعمان فرحمة الله

الصدّاقة:

دخلنا متجراً شعبياً يبيع أشياء شعبية للمواطنين، وهو حكومي
مثل سائر المحلات المهمة في البلدان الشيوعية، ولم يكن فيه ما يستحق
أن يشتري، وبخاصة أننا سألنا عن الحرير الصيني الطبيعي المعروف،

فقال الإخوة: إن الذي يعجبكم موجود في متجر الصداقة، الذي يبيع بضائعه بالعملة الأجنبية الصعبة.

كنت دخلت أحد تلك المتاجر في بكين، وأعجبني المعروضات فيه، وقلت آنذاك إن صداقة مثل هذا المتجر هي صداقة بالدولار وللدولار، وقد اشترينا من ذلك المتجر الصيني بضائع منها مقادير من الحرير الطبيعي الجيد.

هذا وقد نزل المطر فجأة، وفجأة - أيضاً - رأينا الناس من المشاة وراكبي الدراجات قد وضعوا على رؤوسهم أغطية اللدائن التي فصلوها على هيئة البرنس المغربي الذي يغطي الرأس والصدر ويتدل إلى حوالي الركبة، ويكون خفيفاً يمنع البلل، ولا يثقل على الجسم في هذا الجو الحار.

المطعم الإسلامي

حان موعد العشاء المبكر عندهم، فذهبنا إلى المطعم الإسلامي حيث تقيم لنا الجمعية الإسلامية هنا مأدبة عشاء فيه.

رأينا المطعم مكتوباً عليه بالعربية: (مطعم المسلمين: خوي نون مسلم فانتي).

وقدموا أنواعاً من الطعام الصيني الذي يصح أن يقال فيه ما يقال عن أهله من أهل الصين الذين إذا رأيتهم على القرب أو البعد عرفت أنهم من الصينيين، ولكن إذا تأملتهم وجدت بينهم فروقاً كبيرة، وخاصة ما بين أهل الجنوب والشمال، فالطعام صيني، ولكنه غير طعام أهل الشمال، وإن كانت موائد الأكل وطريقة تقديم الطعام متقاربة،

ويمكن أن يقاس أيضاً على اللغة الصينية التي إذا رأيتهم يكتبونها بأشكال متقاربة، أو هي واحدة، جزمت بأنهم ينطقون بها بطريقة واحدة، مع أنهم يختلفون في لهجاتهم إلى درجة أن أهل الشمال لا يفقهون لغة أهل الجنوب، وبالعكس.

وقد قدموا في هذه المأدبة ١٥ نوعاً من الطعام كتبوا أسماءها على ورقة عرضوها قبل تقديمها، وذلك من أجل أن يعرف الآكل ما سيعرض عليه لكونهم لا يقدمونها دفعة واحدة إذ لا تتسع المائدة لها، وإنما يقدمونها الواحد بعد الآخر.



على مأدبة العشاء التي أقامتها الجمعية الإسلامية في كانتون في (مطعم المسلمين). على يميني الأخ حسن ما هوي قوه نائب رئيس الجمعية الإسلامية في (كانتون) قوانغتشو

إضافة إلى ما يكون موجوداً على المائدة من قبل من المقبلات والمشهيات والسلطات البسيطة التي يصح أن يقال فيها: إنها مقدمات المائدة.

ومن طريف المائدة أنهم أحضروا قرعة من الدباء على هيئة إناء وضعوا فيه خضرات مطبوخة مما لا نعرفه، وبعض المرق والأرز، وهي تؤكل بما فيها.

هذا وقد حضر المأدبة عدد من الإخوة المسلمين فيهم رئيس الأئمة في المقاطعة.

يوم الجمعة: ٢٣/١٠/١٤٠٧ هـ - ٦/١٩٨٧ م.

مفادرة كانتون

خرجنا من الفندق في الوقت الذي يذهب فيه الموظفون إلى أعمالهم في الصباح، وهو الساعة السابعة، لذلك رأينا الشوارع غاصة بالدراجات، وقد امتطأها الجميع من رجال ونساء وشيوخ وشبان، ولكن الغالب على طبعهم الهدوء وعدم الإسراع في السير حتى سياراتهم لا تسرع.

وفي المطار كان معنا الإخوة المودعون من أهل كانتون والأخوان الكريمان اللذان رافقانا خلال الرحلة كلها، وهما الأستاذ (نعمان ماشي آن)، والأستاذ (مصطفى يانغ جي بوه) أيضاً.

ورأيتهم يفتشون حقائب المسافرين المغادرين، أما نحن فلم نفتش؛ لأننا وفد رسمي، ولكون جوازي دبلوماسياً.

وقضيت وقتاً مع الإخوة في قاعة كبار الزوار في المطار، وهي

أكبر من قاعة كبار الزوار في مطار كونغ منع وأحسن أثاثاً.

وفي الساعة التاسعة والنصف غادرنا على طائرة الخطوط الصينية مطار كانتون متوجهين إلى هونغ كونغ.

وأعلن مكبر الصوت في الطائرة أن المسافة من كانتون إلى هونغ كونغ هي ٢٤٠ كيلو متراً، وكان إعلانهم بالصينية ثم الإنكليزية.

وقبل قيام الطائرة وزعوا على ركابهم شطيرة من الخبز فيها جبن أصفر، وكأساً من شراب الكمثرى.

قامت الطائرة من المطار فتجلت الطبيعة الخضراء لهذا الجزء من الأرض الصينية، ومع ذلك فإن هذه الخضرة كانت مشحونة بالقري والتجمعات السكنية مما يتناسب مع ما هو معروف عن أرض الصين من ازدحامها بالسكان، وبخاصة في الأماكن الخصيبة فيها، كما ظهرت مدينة (كانتون) ممتدة واسعة.

ومما يجدر ذكره أن عدد سكانها يبلغ ثلاثة ملايين نسمة.

ثم علت الطائرة سحاباً كثيفاً ما لبثت أن تجاوزته إلى منطقة ساحية فظهرت على الأرض الأنهار المتعددة، وبعضها قنوات شقت من نهر كبير، ولكنها تبدو من الطائرة وكأنها النهر الأصيل لسعتها وكثرة ما تزخر به من المياه.

الطائرة من طراز بوينغ ٧٢٧ الأمريكي مليئة بالركاب الذين كلهم تقريباً من الجنس الصيني، وإن كانت طائفة منهم من أهل هونغ كونغ التي هي قطعة من الصين استعمرتها بريطانيا، ولكن سكانها بأغليبتهم الساحقة من الصينيين.

وقد فعلت المضيفات في هذه الطائرة ما فعلته في غيرها، وهو أن يعطين الذي يلي الممر فقط ما يخصه ويخص من يكونون بجانبه من الكرسيين الآخرين، ولا يوزعن ذلك على كل راكب. ومن ذلك بطاقات الدخول إلى (هونغ كونغ).

وصلت الطائرة بسرعة إلى سماء (هونغ كونغ) العامرة؛ بل المزدحمة إلى درجة عظيمة، حتى إن جزءاً من جبالها قد ركبتة أبنية عالية متعددة الطبقات (عمارات)، والجسر المشهور الذي يربط جزيرة هونغ كونغ الضيقة بمنطقة كولون الضيقة أيضاً، ولكنها واقعة في البر الصيني.

ورأينا السيارات كالنمل وهي تسعى في شوارع المدينة التي كلها مزفت معتنى به.

ورأينا عدداً من الأبنية العالية ذات الطوابق الكثيرة والشقق العديدة في أحياء المدينة، وهي تبدو مهملة أو قدرة. ومع ازدحام المستعمرة فإن السفن كانت مزدحمة في مينائها مثل ازدحام الطائرات في مطارها.

والمصانع الكثيرة تنفث مداخنها الدخان.

وكل ذلك بسبب الحرية الاقتصادية الموجودة في المستعمرة التي لا توجد داخل الصين الشعبية.

في مطار هونغ كونغ.

كان من أهم ما استرعى انتباهنا ونحن نقدم إليه من الصين الشعبية أن حالة المدرج وساحة وقوف الطائرات على درجة من العناية،

حتى الأعشاب التي تحيط بالمدارج هي مهذبة مجملة.

وقد استغرق الطيران إلى هونغ كونغ (٣٧) دقيقة.

ولم أدخل إلى (هونغ كونغ) لأنني أعرفها، وليست لي رغبة في الدخول إليها، وإنما سافرت منه إلى مدينة بانكوك عاصمة تايلند بعد أن مكثت فيه خمس ساعات، وكانت المسافة من هونغ كونغ إلى بانكوك ساعتين وربعاً، ومن بانكوك سافرت إلى الرياض.

خاتمة

قدمت القول بأنني لم أخصص في هذا الكتاب فصلاً عن المسلمين في الصين وتاريخهم وأماكن تواجدهم إلى جانب المعلومات العامة الأخرى التي اعتدت على أن أذكرها في كتبي في الرحلات، وذلك اعتماداً على ما كتبت في كتاب: « داخل أسوار الصين » الذي طبع قبل هذا في مجلدين.

ومع هذا رأيت ألا يخلو الكتاب من شيء في هذا الموضوع، فأحببت أن أنقل بحثاً اطلعت عليه بعد طبع كتاب: « داخل أسوار الصين »، وهو للأخ الحاج كامل محيي الدين وانغ يوه دنغ مدير الأبحاث في جمعية مسلمي بكين الثقافية.

قال الشيخ محيي الدين وانغ يوه دنغ:

« كثيراً ما سئلت عن أحوال المسلمين، وكم عددهم؟ وهل هم يمارسون الشعائر الإسلامية دون مضايقة من الحكومة؟ وكم عدد المساجد في الصين؟ وهذه أهم الأسئلة التي توجه إليّ، وقبل أن أجيب عليها في حدود ما أعرف، أود أن أعطي القارئ العربي نبذة عن بداية ظهور الإسلام في الصين، وكيف انتشر بقدر ما تسمح به معرفتي إذ لا توجد مصادر كافية بين يدي للرجوع إليها.

جاء في سجلات تاريخ الصين أنه كان هناك اتصال بين الصين والعرب قبل ظهور الإسلام، فقد أوفد الإمبراطور وودي من أسرة هان الغربية (٢٠٦ ق.م - ٢٢٣ م) عام ١٢٩ ق.م تشانغ تشان سفيراً له إلى آسيا الوسطى لإقامة روابط ودية مع الممالك والقبائل في تلك المنطقة، فزار في أسفاره العديدة ٣٦ مملكة ومنطقة، من بينها بلاد الفرس والجزيرة

العربية، وبعد ذلك أرسل قائد الحدود الغربي الجنرال بان تشا، وأحد قواده قان ينغ إلى هذه المناطق لتقوية الصلات مع الممالك الموجودة فيها بغية إقامة جبهة متحدة معها لصد هجوم قبائل التتار التي كانت تهدد سلامة وأمن حدود الصين الشمالية آنذاك، والتي بنى سور الصين العظيم في عصر ما قبل أسرة هان الغربية من أجل حماية الصين من مشاغبتها، وقد بلغ قان ينغ برجاله سواحل الخليج والبلاد الواقعة غرب إيران، وعاد بأخبار وافرة عن أخبار الفرس والعرب.

ثم بدأت القوافل التجارية تسلك هذا الطريق، وفي أسرة تان الملكية (٦١٨ - ٩٩٧م) ازدهرت التجارة، وصار هذا الطريق يعرف بـ طريق الحرير الذي يبدأ من مدينة تشانان عاصمة الصين في أسرة تان عبر تورفان، فكاشغر، فسمرقند، فطهران إلى بغداد، ثم تنقل البضائع إلى دمشق، وأنطاكية، وروما، والبندقية.

(١) - دخول الإسلام الصين

وكان العرب يعرفون الصين بدليل الحديث الشريف: (اطلب العلم ولو بالصين) فقد دخل الإسلام الصين عن طريقين: برأً وبحراً، فالطريق البري هو طريق الحرير، أما الطريق البحري فهو ما كان يشقه التجار العرب والفرس من الخليج إلى بحر العرب، فالمحيط الهندي، فمضيق مالقا ميممين مدينة خانقو (كانتون حالياً)، ومدينة الزيتون كما ذكره ابن بطوطة (تسمى الآن تشوانشو)، ومدينتي هانشو ويانشو، واستوطن بعضهم في هذه المدن، وبما أن الدين الإسلامي لا يشتمل على الرهينة حتى يقوم أصحابها بنشر ديانتهم في البلدان الأخرى، فإن كل مسلم معني بأمر الدعوة لدينه أياً كانت منزلته، وأياً كان عمله، فلما بلغ

المسلمون الصين أقاموا مساجد لهم حيث كانوا يسكنون، وقد ظهر أول مسجد في الصين في مدينة كانتون يحمل اسم جامع الشوق إلى النبي ﷺ؛ إذ أن الذي بناه هو أبو وقاص، ولعله أحد أقارب الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص، وقد سماه بهذا الاسم بعد أن علم بوفاة النبي صلوات الله عليه وسلامه، وقبر باني هذا المسجد موجود في مدينة كانتون بين قرابة ٥٠ قبراً للمسلمين الأوائل، إلا أن المؤرخين أجمعوا على أن تاريخ دخول الإسلام الصين هو العام الثاني في عهد الإمبراطور يونهوي (قواسون) من أسرة «تان» الملكية، أي عام ٦٥١ ميلادية.

وبوجه التحديد هو ٢٥ من أغسطس اليوم الذي استقبل فيه الإمبراطور مبعوث الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

وقد ذكر «كتاب تان الجديد» الذي يشبه دائرة معارف في ذلك الوقت أن المبعوثين العرب أوفدوا إلى الصين في عهد أسرة «تان» ٣٧ مرة، ومن الأحداث التي لها أهمية كبرى في انتشار الإسلام في الصين فتح قتيبة بن مسلم الباهلي قائد الحجاج بن يوسف الثقفي في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان مناطق ما وراء النهر: نهر جيحون (نهر أموداريا حالياً)، وقد وصل بجيشه إلى الحدود الصينية الغربية، واحتل مدينة كاشغر عام ٧١٤ م، وقد جاءه وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك وهو فيها، فتوقفت الفتوحات آنذاك، وخاصة أن الخليفة الجديد سليمان ابن عبد الملك قد غضب على قادة أخيه الوليد لموافقتهم له بتعيين ابنه من بعده بدلاً من أخيه ولياً للعهد.

وفي عام ٧٥١م اشتبك العرب مع الجيش الصيني في معركة قرب مدينة كاشغر، وقد انتصر العرب، فأسروا عشرين ألفاً من الجنود

الصينيين، وكان من بينهم الصناع من مختلف الحرف، فانتشر بعد ذلك صناعة الورق في سمرقند، ثم في دمشق، وعن طريق العرب انتقلت صناعة الورق إلى أوروبا، كما كان من بين الأسرى الصينيين مثقف يدعى دوهوان الذي عاش بين العرب ١٢ سنة، ثم تمكن من العودة إلى الصين، فكتب أول كتاب عن العرب بعنوان: «رحلة إلى بلد الكتاب» ذكر فيه أحوال المسلمين العرب وعاداتهم وتقاليدهم.

والحدث الثاني: هو استتجاد الإمبراطور «سوتسون» بالخليفة أبي جعفر المنصور ثاني خلفاء الدولة العباسية لمساعدته على إخماد تمرد قائديه من التتار: أن لوشان، وشي سيمينغ الذي حدث في عام ٧٥٧م، فأرسل المنصور أربعة آلاف جندي لنصرته، فنجحوا في استرجاع زمام الحكم إلى الإمبراطور «سوتسون» فاستبقى هؤلاء الجنود في مدينة تشانان العاصمة (مدينة شيآن حالياً) فتزوجوا من صينيات، فصاروا نواة المسلمين فيما بعد.

(٢) - المسلمون الصينيون عبر التاريخ

وبعد أسرة «تان» حكمت الصين أسرة «سون» الملكية (٩٦٠ - ١٢٧٩م)، وتشير سجلاتها إلى أن البعثات العربية التي وصلت إلى بلاط الإمبراطور بلغت ٤٩ بعثة.

وكثر النشاط التجاري بين الصين والعرب والفرس، وبلغ عدد الجاليات المسلمة عشرات الآلاف، وأكثرهم جاؤوا عن طريق البحر، ومكثوا في المدن الساحلية، فبنوا فيها المساجد التي لا تزال موجودة إلى يومنا هذا كمسجد الأصحاب في مدينة الزيتون، ومسجد العنقاء في هانشو، وجامع الكركي في يانسو، ففي مسجد الأصحاب كثير من

اللوحات الحجرية، نحت في أحد اللوحات ما يلي: « بنى هذا الباب وأحاط الحائط بهذا المسجد المنار الشيخ العالم نينا عمر بن أحمد بن منصور بن عمر الأبيني اليميني، تقبله الله منه وغفر له ».

أتى هؤلاء التجار إلى الصين بالأحجار الكريمة، والمرجان، واللآلئ، والعاج، وخشب الصندل، والعقاقير الطبية، ودرع السلحفاة، والبهارات، والبخور، وعادوا بالشاي، والخزف، والحزير، والمسك، ونقلوا اختراعات الصين الأربعة في العصر القديم: البوصلة، والبارود، وفن صناعة الورق، وفن الطباعة إلى آسيا الغربية، ومنها إلى أوروبا، ولذا كان الصينيون يطلقون على العرب « داشي »، وهو تحريف من لفظ «التاجر» ففي الكتب التاريخية الصينية تظهر الدولة الأموية في الأندلس ب: « داشي بالملابس البيضاء »، والدولة العباسية ب « داشي بالملابس السوداء »، والدولة الفاطمية ب: « داشي بالملابس الخضراء ».

ولم يقيم هؤلاء التجار بالتجارة فقط، وإنما كانوا يهتمون بنشر الدين الإسلامي الحنيف بين المواطنين الصينيين قولاً وفعلاً أينما حلوا، فأسلم بعض الصينيين الذين تعاملوا معهم، وتأثروا بأخلاقهم الفاضلة إذ أنهم كانوا لا يسعون إلا إلى الكسب الحلال بصدق وأمانة، ونظراً لتعاظم حجم التجارة بين الصين والتجار المسلمين أسست الحكومة الصينية دائرة التجارة والملاحة، وعينت بوشوقن (أبو شوقي) أول رئيس لها، كما أن التجار العرب والفرس ساهموا في بناء سور مدينة الزيتون، وأسطول التجارة الحكومية.

إلا أن أغلبية المسلمين في عهدي أسرة « تان » وأسرة « سون » كانوا من الجاليات العربية والفارسية والعهد الذي يليهما، عهد حكم

المنغول للصين شهد تكثيف عدد المسلمين، وتشكيل قوميات صينية مسلمة.

(٢) - ظهور القوميات الصينية المسلمة وتصيين أسماء المسلمين :

احتل قوبلاي خان - حفيد جنكيز خان - الصين، وأسس أسرة «يوان» المنغولية (١٢٧٩ - ١٣٦٨م)، وكان المنغول يجندون المسلمين إلى صفوفهم من عرب وفرس وأتراك، كما أجبروا أصحاب الحرف المسلمين على تأدية الخدمة في جيشهم، فوصل هؤلاء المسلمون إلى الصين مع الجيش المنغولي، وربطوا في أماكن متفرقة في معسكراتهم، ومن ثم استوطنوا وتزاوجوا وتحولوا مع مرور الوقت إلى قومية صينية تعرف بقومية: « هوى »، إذ أنه من بين القبائل التي اعتنقت الإسلام في وقت مبكر، وأتت إلى الصين مع المنغول قبائل خوارزم، فاتخذ المقطع الأول لخوارزم « خوا » اسماً لهؤلاء المسلمين حتى يعرف الإسلام بين الصينيين بدين « هوى ».

وكان المسلمون في عهد المنغول يتمتعون بامتيازات خاصة؛ لأن الحكام المنغول هم قلة القلائل، بينما كان الأغلبية الساحقة من السكان من قومية « هان »، فكانوا ينوون إحداث توازن القوى داخل الصين باتخاذ سياسة فرق تسد، فصنّفوا السكان إلى أربع طبقات: المنغول في المرتبة الأولى، ثم المسلمون (يطلق عليهم ذوو العيون الملونة)، ثم أهل قومية « هان »، ثم الجنوبيون منهم؛ لأن جنوب الصين هو آخر ما احتله المنغول بعد قتال عنيف، فاستعان المنغول بالمسلمين في إثبات أقدامهم في الصين، فكان إذا قتل بوذي مسلماً (دين الأكثرية أفراد قومية « هان » هو البوذية آنذاك) فعقابه الإعدام، وتعذيب أهله،

ومصادرة ممتلكاته، أما إذا قتل مسلم بوزياً فليس عليه إلا الدية، وارتقى بعض المسلمين إلى مناصب عالية، فتوصل أهاما (أحمد) إلى وزير، وعين عبد الرحمن رئيساً لبيت المال، ويونغ (قطب الدين) ارتقى إلى وزير الملكة.

ولكن أبرز المسلمين في أسرة « يوان » هو عمر شمس الدين (ساي ديان تشي شانسي دين) الملقب بالسيد الأجل (١٢١١ - ١٢٧٦م) لما له من شرف القرابة من صاحب الرسالة ﷺ، فهو من البطن الواحد والثلاثين من آل البيت، جاء إلى الصين من بخارى، وقد عين حاكماً لمقاطعة شنسي، ثم مقاطعة يونان على التوالي، وقام خلال مدة حكمه بإنشاء المساجد والمدارس وبناء الجسور وشق الطرق الجبلية وبناء مشاريع الري وتحسين البذور والدعاية لاستخدام وسائل الإنتاج المتقدمة وإقامة مراكز البريد وما إلى ذلك من الفضائل، وما زال هذا السياسي النزيه العادل يحظى باحترام أهالي يونان وتقديرهم إلى اليوم، وقد خلف السيد الأجل خمسة أولاد، هم ناصر الدين (ناسور تينغ)، وحسن، وحسين، وشمس الدين، ومسعود، و ١٩ حفيداً، فصار ناصر الدين وزيراً للدولة، ثم والياً على يونان، وصار حسن قائداً عاماً لجيوش كوانغ تونغ، وصار حسين وزيراً للدولة، ثم والياً لمقاطعة كوانغ سي، ثم والياً وقائداً لمقاطعة يونان بعد أخيه ناصر الدين، وكذلك شمس الدين ومسعود (ماسوهو) توليا مناصب عالية، وكانوا كلهم صالحين متقين عملوا الكثير لرفع كلمة الله، وترسيخ الإسلام في المقاطعات التي حلوا بها وسكنوا فيها.

وفي أواخر هذا العهد وأوائل العهد الذي بعده تكونت قومية صينية مسلمة تعرف بقومية « هوى » ذات الأصول الوافدة من الخارج، وانتشر

هؤلاء المسلمون في أنحاء الصين، وامتزجوا بالمجتمع الصيني، وفيهم حدثت ظاهرة تصيين الأسماء الإسلامية، وأصبحوا يتصرفون لا باعتبارهم أجنب وافدين؛ بل أصبحوا يتصرفون كمواطنين، وأصبحوا يحملون أسماء صينية إلى جانب أسمائهم الإسلامية، وعلى سبيل المثال فإن اسم محمد عندما دخل في القالب الصيني فإنه صار ينطق بـ: «مو»، وصار ناصر الدين: «نا»، وماجد: «ما»، وبدر الدين: «باي»، وشرف الدين: «شا»، وحيدر: «ها»، وداود: «دا».

ولم تكن تجمعات المسلمين مقصورة على المناطق الساحلية، فصاروا منتشرين مع المسلمين من القوميات المسلمة الأخرى في شمال الصين الغربي حتى يقال أن هوى هوى (المسلمين) منتشرون في أسرة يوان في ربوع الصين، وجاء في رحلة ابن بطوطة: «وفي كل مدينة من مدن الصين ملحقة (أي حي) للمسلمين يختصون بسكانها ولهم فيها المساجد، وهم ذوو مكانة عالية عند أهل الصين».

وفي أواخر أسرة «يوان» عم الفساد بلاط الإمبراطور، وغرق الأمراء والقواد في حياة البذخ والترف، ولم يعد المنغول مقاتلين أشداء، كما اشتد بطشهم واضطهادهم على غير المنغول، فثارت الثورات ضدهم، ونجح أحد قادة الثورات في الإطاحة بالحكم المنغولي، وأعاد العرش إلى قومية «هان» التي تنتمي إليها الأغلبية الساحقة من أبناء الصين، فأسس أسرة مينغ الملكية (١٣٦٨ - ١٦٤٤)، وكان من بين معاوني قائد الثورة كثير من المسلمين، فاتخذت هذه الأسرة سياسة الاعتدال تجاه المسلمين.

وبرز في هذه الأسرة بعض المسلمين الأفاضل الذين ذاع صيتهم،

ودوى صداهم مثل البحار تشنغ هو، والإداري النزيه ماي روي، كما ظهر في هذه الفترة كثير من علماء الدين، وسيأتي الكلام عنهم بالتفصيل بإذن الله.

(٤) - عصر ثورات المسلمين وتعرضهم للمذابح والإبادة

وبعد أسرة مينغ حكمت الصين أسرة تشينغ المنشورية (١٦٤٤ - ١٩١١م)، فقد اضطهدت هذه الأسرة المسلمين، وسامتهم سوء العذاب، ولم يكن المسلمون ليرضخوا للظلم النازل بهم، فاندلعت الثورات في الشمال الغربي والجنوب الغربي، إلا أن كل هذه الثورات منيت بالفشل والقمع الشديد؛ بل وصار المسلمون يتعرضون للمذابح الجماعية والإبادة، الأمر الذي أدى بالفعل إلى تناقص عدد كبير من المسلمين، ولما قبضت الإمبراطورة يهونالا المستبدة أرملة الإمبراطور نونجي على مقاليد الحكم في البلاد في الأيام الأخيرة لأسرة تشينغ، شهدت الصين أسوأ حال من الضعف والفساد والتدهور مما أطمع الدول الاستعمارية الكبرى في الأراضي الصينية الواسعة، ومدت مخالبتها لتقسيم الصين، وأمام مسير الهلاك والعبودية هب الوطنيون ثائرين على حكم أسرة تشينغ الطاغية الفاسدة، فنجحت الثورة الوطنية بقيادة الدكتور صن يات صن عام ١٩١١م.

وأطاحت بالنظام الإمبراطوري في الصين الذي أستمتر أكثر من أربعة آلاف سنة، وأعلنت قيام النظام الجمهوري، وكان من الطبيعي أن يدعم المسلمون الصينيون النظام الجمهوري لكثرة ما كانوا يعانونه من ظلم واستبداد في العهد البائد، فساهموا بفعالية في توطيد النظام الجديد الذي اعتبرهم إحدى القوميات الخمس التي تتكون منها الأمة

الصينية، من قومية: هان، وقومية مان (منشوريا)، وقومية منغوليا، وقومية هوى (المسلمون)، وقومية التبت، وأصبح العلم الوطني الصيني آنذاك مؤلفاً من خمسة ألوان: أحمر، وأصفر، وأزرق، وأبيض، وأسود، يرمز كل لون إلى قومية من القوميات الخمس.

(٥) - أحوال المسلمين الصينيين في العهد الجمهوري والعهد الاشتراكي:

أتاح العهد الجمهوري للمسلمين الفرص للقيام بنشاطهم الديني، ففي عام ١٩١١م نفس العام الذي تأسست فيه الجمهورية ظهر أول جمعية لمسلمي الصين تحمل اسم: «جمعية التقدم الإسلامية الصينية» التي دعا إلى تنظيمها الشيخ إلياس عبد الرحمن وانغ كوان في مدينة بكين، ثم ظهرت فروعها في المدن والمقاطعات الأخرى، وكان من أهم نشاطاتها ترجمة معاني القرآن الكريم وإصدار مجلة نصف شهرية: «نور الإسلام»، وتعميم التعليم بين المسلمين، والقيام بالأعمال الخيرية، إلا أنها أجبرت على التوقف عن نشاطها عام ١٩٢٦م.

كما أنشئت جمعية الدراسات الإسلامية الصينية عام ١٩٢٥م في مدينة شانغهاي، أسسها الشيخ هلال الدين هاده تشينغ، وكان من أهدافها نشر التعليم الإسلامي بين أبناء المسلمين، وعرض الأصول الإسلامية بصورة مبسطة، وتوثيق روابط المودة بين المسلمين في أنحاء الصين، كما ظهرت أول مدرسة إسلامية للمعلمين عام ١٩٣٠م باسم «دار تسينغ دا للمعلمين» كما شهدت هذه المرحلة ظهور مجلة نضارة الهلال في بكين، ونور الإسلام في تيانجين، ومجلة العلوم الإسلامية كانتون، ومجلة المنبه الإسلامي في يونان.

ولما اعتدى المعتدون اليابانيون على الصين في الحرب العالمية

الثانية، هب المسلمون جنباً إلى جنب مع أبناء القوميات الأخرى لمقاومة الغزاة ببسالة، وقد شكل المسلمون في قومية هوى المعروفة ب: « الفيلق الحديدي » بقيادة القائد المسلم ما بن تشاي.

وبعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية، انتهجت الحكومة سياسة حرية الاعتقاد الديني، وتأسست الجمعية الإسلامية الصينية عام ١٩٥٣م برئاسة الحاج برهان الدين شهيدي، وأوفدت فور تأسيسها أول بعثة للحج، إلا أن البعثة لم تتمكن من الوصول إلى مكة المكرمة، وأثناء المؤتمر الأفروآسيوي المنعقد في مدينة باندونغ بإندونيسيا عام ١٩٥٤م تم الاتفاق بين شو إن لاي رئيس مجلس الدولة الصيني والأمير فيصل بن عبد العزيز وزير خارجية المملكة العربية السعودية آنذاك على أن تسمح المملكة لمسلمي الصين بالحج كل سنة.

كانت أول بعثة صينية حجت بيت الله الحرام من بكين عام ١٩٥٥، كما أصدرت الجمعية الإسلامية الصينية مجلة: « مسلمي الصين »، وقامت بطبع القرآن الكريم باللغة العربية، ولكن فترة القفزة الكبرى، وتعميم الكومونات الشعبية في الأرياف الصينية التي بدأت في عام ١٩٥٩م حوّل كثيراً من المساجد إلى ورشات للإنتاج، وصار كثير من الأئمة إلى عمال وفلاحين يأكل الكل من عرق جبينه، وتوقف المعهد الإسلامي عن قبول الطلبة عام ١٩٥٩م أربع سنوات من إنشائه، كما توقف إصدار مجلة « مسلمي الصين »، ثم وقف إرسال بعثات الحج بعد عام ١٩٦٤م. وكانت كل هذه الإجراءات تهدف إلى تعجيل تطبيق الثورة الاشتراكية.

ومن عام ١٩٦٦م إلى عام ١٩٧٦م تلبدت الغيوم السوداء في السماء،

وشهدت الصين أقصى محنة في تاريخها؛ إذ تمكنت عصاة الأربعة من القبض بزمام الحكم الفعلي، وتعرضت الحضارة والثقافة لأبشع التخريب باسم الثورة الثقافية، وتكبد عدد لا يحصى من المثقفين والأدباء والفنانين والكوادر للإهانة والضرب المبرح وأنواع التعذيب، فمات من مات، وجرح من جرح حتى لقي رئيس الجمهورية حتفه في مكان مجهول، ولم ينكشف ذلك إلا بعد سنوات، كما أحرقت الكتب النفيسة، والتحف الثمينة، وكل ما يتنافى مع تعاليم ما وتسى تونغ في نظر الحرس الأحمر، ومن بين هذه الكتب القرآن الكريم، والكتب الدينية الأخرى، واستشهد بعض المسلمين ذوداً عن كتاب الله، وأغلقت جميع المساجد في الصين، وخرب بعضها إلا واحداً في العاصمة ليصلي فيه أعضاء السلك الدبلوماسي من البلدان الإسلامية، وألغيت عطلة عيد الفطر وعيد الأضحى، وقاسى الأئمة من الإهانة والسخرية ما يعجز عنه الوصف.

إلا أن هذه السياسة الجائرة قد ولت إلى غير رجعة، وانجلت السماء في طول الصين وعرضها بعد سحق عصاة الأربعة بزعامة أرملة ماو، فأعيدت السياسة السليمة التي تقضي على جميع المواطنين لهم بحرية الاعتقاد الديني، وعلى ضوء هذه السياسة استأنفت الجمعية الإسلامية الصينية نشاطاتها، فأعيد فتح المعهد الإسلامي في بكين، وفتحت على التوالي سبعة معاهد إسلامية في أما كن تجمع المسلمين في أنحاء الصين، وأعيد إصدار مجلة «مسلم الصين»، وطبعت مائتي ألف نسخة من القرآن الكريم باللغة العربية، ونفذت خلال أسبوعين من ظهورها في الأسواق؛ إذ أن كل عائلة مسلمة حريصة على الحصول على نسخة من كتاب الله العزيز، وطبعت تفسير الجلالين، ومجموعة

الأحاديث الشريفة: اللؤلؤ والمرجان للشيخين: بخاري ومسلم رضى الله عنهما، وأعيد فتح المساجد واحداً تلو الآخر في أرجاء الصين بعد ترميم ما خرب منها على نفقة الحكومة تعويضاً لخسائر المسلمين خلال حكم عصابة الأربعة.

كما بني كثير من المساجد من تبرعات المسلمين حتى بلغ عدد المساجد في الصين عشرين ألف مسجد، وبلغ عدد الأئمة في الصين ثلاثين ألف إمام، فزي بكين العاصمة ظهر أربعون مسجداً وبيتاً للصلاة، كما أعيد إيفاد بعثات الحج منذ عام ١٩٧٩م، وكثر تبادل الزيارات، وحضور الندوات والمؤتمرات الإسلامية، ومع سياسة الانفتاح التي تتبناها الصين سوف تزداد اتصالات المسلمين الصينيين مع إخوانهم في البلدان الإسلامية لتوثيق روابط الأخوة ما بينهم.

(٦) مساهمات المسلمين الصينيين لوطنهم الأم

بالإضافة إلى ما ذكرته فيما سبق من السياسيين المرموقين مثل السيد الأجل عمر الدين وأولاده وأحفاده، أذكر بعض المسلمين البارزين الذين ساهموا مساهمة عظيمة في المجالات المختلفة في الحياة الصينية على سبيل المثال لا الحصر.

١- في مجال الفلك والرياضيات: كان المسلمون الصينيون يقومون بمراقبة الأرصاء الجوية بدافع حاجتهم إلى معرفة الموعد الصحيح للصوم والإفطار، وحلول عيد الفطر وعيد الأضحى، فاخترع الفلكي المسلم جمال الدين عام ١٢٦٧م سبعة أجهزة فلكية، وقدمها إلى الإمبراطور، وهي: « ذات حلق »، و« ذات سموت »، و« لخمعة معوج »، و« لخمعة مستوي »، و« درة سماء »، و« كرة الأرض »، و« الإسطرلاب »،

وكان التقويم الهجري مرجعاً هاماً لوضع التقويم الصيني القمري خلال أربعمئة سنة ابتداء من أواسط القرن الثالث عشر، وبما أن الرياضيات هي أساس علم الفلك، فقد ترجمت الكتب الفلكية، وكتب الرياضيات العربية إلى الصينية ١٢٨٢م على يد أحد شيوخ المسلمين.

٢- في مجال الطب: كان المسلمون في أسرة « سون » قد نقلوا مؤلفات ابن سينا الطبية إلى الصينية، وفي أسرة « يوان » أنشئت دار النعمة لصناعة الأدوية والمعالجة يعمل فيها عدد من الأطباء العرب، وعيّن طبيب عربي يوسف لإدارة هذه الدار.

وفي مكتبة بكين اليوم أربعة أجزاء من بقايا « موسوعة هوى هوى الطبية » التي كانت تضم ستة وثلاثين جزءاً (منها جزءان فهرست)، وقد تم ترتيب هذه الموسوعة وتصنيفها على نهج كتاب القانون لابن سينا، وقد وردت فيه أسماء الأدوية والأعشاب الطبية المنقولة من العربية إلى الصينية مثل: (الثوم)، ودييكا (عرف الديك)، وهولوبا (الحلبة)، وزوموري (الزمرد)، ومويا (المر العربي)، وروشيانغ (اللبان العربي)، ويانسوى (اليانسون) يقصد به الشماليون الشبرة لتشابه الشكل بينهما حتى التربة فهي تنطق بالصينية توبا. وهذه الأجزاء المتبقية، والجزء الثاني من الفهرست، ويبين هذا الجزء أن الموسوعة تحتوي على أكثر من ثلاثين باباً، وتحت كل باب عدد كبير من الوصفات الطبية، وباقي الأجزاء الثلاثة هي الجزء الثاني عشر، والجزء الثلاثون، والجزء الرابع والثلاثون، يضم كل جزء خمسين أو ستين صفحة.

وإذا افترضنا أن كل جزء من الموسوعة يضم ستين صفحة، وفي

كل صفحة ثلاثون سطرًا، فيبلغ المقاطع الصينية مليوناً وثمانمائة ألف مقطع، فهي حقاً كنز لا يقدر بثمن، كما أنها خير دليل على مدى الاتصالات العربية، وعن روابط عرى الصداقة بين الصين والعرب منذ القدم.

٢- وفي مجال الهندسة المعمارية: عرف المسلمون الصينيون بمهارتهم الفائقة في الفن المعماري، وتشهد في ذلك المساجد القديمة التي بناها المسلمون الأوائل في المدن الساحلية في الشمال الغربي، وهناك مهندس معماري قدير قدم أكبر مساهمة في تاريخ البناء الصيني، وتتناقل مآثره ألسنة الناس جيلاً بعد جيل، ألا وهو اختيار الدين، العربي الأصل، الذي كلف بتصميم وبناء القصر الإمبراطوري، أو المدينة المحرمة لأسرة يوان الملكية عام ٢٦٦ م. ثم بناء مدينة دادو (بمعنى العاصمة الكبيرة) مدينة بكين الحالية من ٥٥ حياً، ولا يزال في بكين إلى الآن حي يحمل اسم «هيديان» أي حي الأديان، ومن أبرز ما امتاز تنظيم المدينة الخط المحوري الذي يخترق المدينة، حتى قيل إنه إذا طويت مدينة بكين طبق نصفها على النصف الآخر تماماً، وقد عين بعد ذلك وزيراً للبناء والإسكان تقديراً لإخلاصه في العمل، كما أقيم له نصب تذكاري بعد مماته، وجاء فيما نحت على النصب أن اختيار الدين كان يعمل بلا كلل ولا ملل، كان يمسح بالنظر، ويحسب بالعقل.

٤- في الملاحظة: ظهر في القرن الخامس عشر أعظم بحار في الصين؛ بل في العالم كله، وهذا يدعى تشنغ خه المسلم، وقد سافر جده وأبوه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وكان أكبرهمه منذ صغره هو السفر عن طريق البحر إلى الأرض المقدسة، وصار ذلك أمنيته الكبرى، في عام ١٤١٥ م أمره تشودي إمبراطور أسرة مينغ بالإبحار على رأس

أسطول ضخيم مؤلف من ٦٢ سفينة، يبلغ طول السفينة ١٥٠ متراً، وعرضها ٦٠ متراً، ومن ٨٠٠، ٢٧ بحار بغية تطوير علاقات الصداقة والتجارة مع البلدان فيما وراء البحار، ومد نفوذ إمبراطورية مينغ.

وخلال ١٧ سنة من ١٤٠٥ إلى ١٤٢٣م قام تشنغ خه بسبع رحلات، زار خلالها ٣٥ بلداً ومنطقة في جنوب شرقي آسيا، والبلاد العربية، وسواحل إفريقية الشرقية، وفي رحلت الرابعة وهل إلى مضيق هرمز، وفي رحلته الخامسة زار كلاً من ظفار، وعمان، وجدة، ومكة المكرمة، ومقديشو، وبرأوة في الصومال، وماليندي في كينيا، وفي رحلته السابعة التي استغرقت سنتين من (١٤٢١ إلى ١٤٢٣م)، لما وصل الأسطول إلى كاليكوت الهندية أتجه مع مرافقيه المسلمين نحو مكة المكرمة لأداء فريضة الحج في بيت الله الحرام، فكان أداء فريضة الحج من أهم الدوافع التي تشوقه إلى ركوب البحر.

لقد حملت أساطيل تشينغ خه الحرير، والمشغولات البرونزية والحديدية والخزفيات، والذهب والفضة والنقود من الصين إلى الخارج، وقد انكشفت الخزفيات الصينية في كافة المناطق التي وصلت إليها أساطيله، كما حملت من المناطق التي وصلت إليها الأساطيل البهارات والبخور والأصباغ والمجوهرات والحيوانات النادرة، وقد سبق البحار خريستوف كولومبس بنصف قرن ونيّف، علماً بأن أسطوله يفوق الأسطول الغربي ٢٠ مرة من حيث عدد سفنه، فيعتبر ذلك حدثاً فذاً في تاريخ الإبحار، وكان مرافقوه الحجاج ما هوان وغيره كتبوا مؤلفات كثيرة عن تلك الرحلات الخالدة، مثل: «الرحلات البحرية إلى البلدان الأجنبية»، و«زيارة البلدان الأجنبية بالمركب»، و«مشاهدات متفرقة»، وتعتبر هذه المؤلفات مصادر قيمة لدراسة السياسة والاقتصاد

والثقافة والتقاليد والعادات لهذه البلدان في القرن الخامس عشر.

٥- في مجال السياسة؛ قد ظهر عدد كبير من المسلمين البارزين في السياسة في العصور المختلفة، وفي أسرة مينغ ظهر حاكم مسلم يدعى هاي روي (١٥١٤ - ١٥٨٧م)، فضرب به المثل في النزاهة والاستقامة حتى في عصرنا هذا، تولى هاي روي منصب محافظ نانجينغ، فنظم الفلاحين لمكافحة الكوراث الطبيعية، وتطوير وسائل الزراعة، وسعى إلى تخفيف أعباء الفلاحين لما رأى الفساد والاختلاس يتفشيان بين الحكام، قدم شكواه إلى الإمبراطور بشدة وبصراحة غير هياب من جبروته وعاقبة تصرفه الجريء عملاً بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [الأحقاف: ١٣]، والحديث الشريف: «أعظم الجهاد كلمة الحق أمام سلطان جائر».

٦- في مجال الأدب والفن؛ وقد لمعت على سطح الحياة الأدبية الصينية كواكب من عباد الله الصالحين الذين استمدوا وحيهم الشاعر العاطفي من كتاب الله العزيز في وصف حياة الآخرة، فكتب الشاعر الأويغوري يوسف خاصي حاجب الذي يعاصر أبا العلاء المعري قصائد روائية بعنوان: «حكمة السعادة والبركة» تصور حياة الجنة، وكيفية الاستعداد لها، وهي تشتمل على ١٣٢٩٠ (بيتاً ضمن ٣٤٠ أغنية) ولا تزال تتناقلها ألسنة أبناء قومية الويغور، وكذلك سعد الله الشاعر (١٢٧١ - ١٣٦٨م)، والرسام قاوكة قونغ (١٢٤٨ - ١٣١٠م)، وغيرهما من المسلمين البارزين الأفاضل قد احتلوا مكاناً مرموقاً في حقل الأدب والفن الصيني، وحظوا باحترام الناس وتقديرهم.

٧- علماء الدين الذين لهم يد سابقة في نشر الإسلام في الصين: ظهر في العصور المختلفة بين المسلمين الصينيين فطاحل العلماء الذين كرسوا حياتهم كلها في سبيل الله، والذين لهم فضل كبير في نشر الإسلام والمحافظة على استمرارية وجود دين الحق في أرض الصين، وهم:

أ- الشيخ هود نغ تنسو (١٥٢٢ - ١٥٦٧م) الذي عاش في أسرة مينغ الملكية، والذي لقب بأستاذ الأساتذة؛ لأنه أول عالم مسلم في الصين أدخل التعليم الديني ضمن مسؤولية الإمام ورسالة المسجد، فقد حج بيت الله الحرام، واتصل بالعلماء الأفاضل هناك، فأعجب بنظام المدارس التابعة للمساجد، فأنشأ أول كتاب في بيته، ثم في المسجد، وسرعان ما ظهرت الكتاتيب في المساجد الأخرى، بينما كان المسلمون الصينيون يعتمدون على التلقين الشفوي من آبائهم في استيعاب العلوم الدينية، ولم تكن مدة الدراسة محددة، ولكن أكثر الدارسين من الصبيان الذين تتراوح أعمارهم بين ست سنوات وأربع عشرة سنة، وكانوا يقضون بين عشر إلى عشرين سنة في دراسة اللغة العربية وعلوم الدين من صرف ونحو وبلاغة إلى فقه وتفسير وعلوم التوحيد والأحاديث الشريفة حتى إذا شهد المسلمون الذين يتوافدون إلى المسجد لتلميذ من التلاميذ بالكفاءة، فإنه يصبح مؤهلاً للإمامة، ثم يلبسه الشيخ جبة خضراء من الحرير، وهي لباس شرف للإمام الجديد، كتبت عليها عبارات تشير إلى كفاءة حاملها في علوم الدين وفضائله وأخلاقه، إن هذا النظام لعب دوراً هاماً في المحافظة على استمرارية الوجود الإسلامي في الصين.

ب - الشيخ وانغ داي يوه (١٥٧٠ - ١٦١٠م) هو أول عالم كتب عن العلوم الدينية باللغة الصينية، ومن مؤلفاته: «الأجوبة الصحيحة على الدين الحق»، و«حقيقة الإسلام»، أجاب في كتابه الأول على

التساؤلات عن الدين الإسلامي، وقد طبع هذا الكتاب مرات عديدة وحظي بشعبية واسعة بين المسلمين، كما كتب « شريعة الإسلام » وغير ذلك من الكتب في علم التوحيد والفقهاء وأحكام الدين.

ج - الشيخ يوسف ماشور (١٦٤٠ - ١٧١١م)، وهو من آل البيت، ألف كتاب « إرشاد الإسلام » في عشرة أجزاء، وطبع عدة مرات.

د - الشيخ ليوتشي (١٦٦٠ - ١٧٣٠م)، وهو معروف بكثرة المؤلفات التي تعد بالمئات، ولكن لم تبق منها إلا خمسون كتاباً، أهمها: «حقائق الإسلام» في ستة أجزاء، و«أحكام الإسلام» في عشرين جزءاً، و«سيرة خاتم الأنبياء» في عشرين جزءاً.

هـ - الشيخ إبراهيم مامينغ سين الملقب بوقاية الله (١٧٣٠ - ١٧٨١م) حج بيت الله الحرام مع عمه وهو صغير، ثم بقى عند مفتي اليمن ١٢ سنة، ولما عاد إلى الصين أسس مذهب «الجهرية» وأتباع «الجهرية» يقرؤون القرآن الكريم بصوت جهوري، ويرخون أيديهم أثناء الصلاة، خلاف القاعدة المتبعة في الصين بوضع اليد اليمنى على اليد اليسرى فوق الصدر، - وهذا ما لم أجده إلا عند الزيديين الهادويين في اليمن - ويعظمون الأولياء، ويطعمون الأضرحة أو المزارات لشيوخهم، وأنهم يقومون في الليل، ويقرؤون مجموعة من الابتهالات والتسابيح، كل ابتهال ١٠٠ مرة، مثل: سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان ذي العزة والعظمة والكبرياء والجبروت، سبحان الحق الذي لا يموت، سبحان قدوس، رب الملائكة والروح. ثم: أستغفر الله من كل ذنب وأتوب إليه، ولا إله إلا الله (٩٩ مرة)، ومحمد رسول الله (مرة واحدة)، ثم: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد (١٠٠ مرة)، وهم يرددون هذه الابتهالات

قبل صلاة الفجر كل يوم، ويقرؤون سورة يس بعد الفجر، ولهم ورد يقرأ بعد صلاة العصر، وبعد صلاة العشاء يقرؤون سورة الملك، ويرددون في حلقات قصيرة «المخمس» في مديح النبي ﷺ، والبصرية للحسن البصري.

و - الشيخ يوسف روح الدين ما فوتو (١٧٩٤ - ١٨٧٤م) من ذرية أولاد السيد الأجل عمر شمس الدين الذي له قرابة بآل البيت، كان وقاد الذهن، ذكي الفؤاد، أجاد اللغتين: العربية والفارسية، حج بيت الله مرتين، وبقي في مصر، والعراق، وسوريا، وتركيا، والهند عشر سنوات لتحصيل العلم، ثم عاد إلى مسقط رأسه يونان عن طريق سنغافورة، ويقال إنه قد ذاع صيته في مقاطعة يونان؛ بل وفي أنحاء الصين قبل عودته إلى وطنه الأم، فاتجه الناس إلى يونان للسلام عليه وتحيته والاستفادة من بحر علومه، فجلس في المسجد مدرساً لينتفع الناس من بضاعة علمه، واعتكف في البيت مصنفاً، ومن مؤلفاته وترجماته: «خلاصة أصول الدين الأربعة»، و«مقصد الحياة»، و«تشریف روح الإسلام»، و«أحكام الدين»، و«الصلاة عماد الدين»، و«روح الصلاة في الإسلام»، و«في شرح معاني الهداية والضلالة»، و«التبيان بين الحق والباطل»، و«علم اليقين بالبرهان»، و«بحث في القضاء والقدر»، و«التقوى وحقيقتها»، و«أصل التقويم الهجري»، و«موعظة من سيرة النبي المعطرة»، و«إيقاظ الغافلين إلى الطريق المستقيم»، و«منبع الخلق العظيم»، و«المتسق في النحو» لتدريس النحو، و«مذكرات في الطريق إلى الحج»، وقد كتب بعضها باللغة الصينية، وبعضها بالعربية، أو الفارسية، أو باللغتين معاً، وقد عاجلته المنية بعد أن ترجم خمسة أجزاء من معاني القرآن الكريم إلى الصينية،

ويعتبر الشيخ يوسف روح الدين ما فوا تشو أوسع العلماء المسلمين في زمانه، وأكثرهم تأليفاً في علوم الدين.

ز - سليمان دوون سيو (١٨٢٨ - ١٨٧٢م) زعيم انتفاضة قومية هوي في مقاطعة يونان لمقاومة حكم أسرة تشينغ الإقطاعي، وهو أول من قام بطبع القرآن الكريم في الصين بطريقة النحت الخشبي عام ١٨٦٢.

ح - الشيخ نور الحق بن لقمان ماليان يوان (١٨٤١ - ١٩٠٥م) هو الآخر من آل البيت، وفتح باباً جديداً في التعليم الإسلامي في الصين، أي التعليم باللغتين: الصينية والعربية معاً، كما أنه كان يتضلع بثلاث لغات: الصينية، والعربية، والفارسية، وألف فيها، وبلغ عدد التلاميذ الذين درسوا على يديه أكثر من ألف تلميذ، ولما بلغ الأربعين من عمره غادر الصين ميمماً الحجاز لأداء فريضة الحج، فمكث في المدينة المنورة يجتمع بعلمائها، واستفاد منهم ما استفاد، ثم جال في الأقطار الإسلامية من مصر، وسوريا، والعراق، وتركيا، والهند، وقابل علماءها فاغترف من بحر علومهم، وشرب من مشارب معارفهم في التفقه في الدين، والتمعن في معرفة الشريعة الإسلامية، وخفايا حكمة القرآن الكريم، فاستأنف التدريس والتأليف بعد عودته، ثم رحل مرة ثانية عام ١٨٦٤م إلى بورما، ثم إلى كانبور في الهند، حيث مراكز البحوث الإسلامية والدينية، وأصدر مؤلفه: «توضيحات لبعض المسائل الفقهية» بالعربية في بومباي، ولكن وافته المنية إثر مرض قصير، وهو ينشغل بالتأليف، ودفن في كانبور. من مؤلفاته بالعربية: «الفصول الأربعة»، و«فطرة الإنسان في نظر الإسلام»، و«قواعد اللغة العربية». وبالفارسية: «قواعد اللغة الفارسية»، وبالصينية: «تبيان الحق بالحجة»، كما طبع القرآن الكريم عن طريق النحت الخشبي.

ط - الشيخ إلياس عبد الرحمن وانغ كوان (١٨٤٨ - ١٩١٨م) حج بيت الله عام ١٩٠٦م، وطاف البلدان الإسلامية في الجزيرة العربية، والشام، وشمال إفريقية، وتركيا، وعاد في العام التالي إلى بكين، ومعه عالمان تركيان، فأسس أول مدرسة إسلامية حديثة في الصين تحمل اسم: «مدرسة المعلمين باللغة العربية»، وتبع ذلك «المدرسة الابتدائية والمتوسطة العامة في بكين» عام ١٩٠٧م، وأسس أول جمعية إسلامية باسم: جمعية التقدم الإسلامية الصينية عام ١٩١١م.

ي - الشيخ عبد القادر المتوفى في عام ١٩٢٤م، من أشهر العلماء الأويغوريين، درس في بخارى، ثم عاد إلى كاشغر فاشتغل مدرساً في جامعة الخلق للعلوم الإسلامية، وألف الكتب المدرسية بنفسه، وله مؤلفات كثيرة، وتأثير كبير عند مسلمي شينجيانغ الأويغوريين.

ك - الشيخ شمس الدين (١٨٨٣ - ١٩٣٦م) عالم ويغوري، درس في بخارى عشر سنوات، ثم عاد إلى كاشغر، ودرس في جامعة الخلق للعلوم الإسلامية، ألف تفسير القرآن الكريم باللغة الأيغورية.

ل - الشيخ هلال الدين هاده تشن المتوفى في عام ١٩٤٤م، حج بيت الله في مطلع هذا القرن، ثم أقام في مصر قرابة ربع قرن لتحصيل العلم وعاد عام ١٩٢٤م، فتولى الإمامة في أحد مساجد مدينة شانغهاي، فانكب على ترجمة معاني القرآن الكريم، وأتم ترجمة ثلاثة أجزاء، ونشرها في مجلة «جمعية الدراسات الإسلامية الصينية» التي تأسست بإشرافه، وأسس مدرسة المعلمين الإسلامية بمشاركة الشيخ إبراهيم نور محمد بوشنغ، ولما احتل الغزاة اليابانيون مدينة شانغهاي اضطر الشيخ إلى النزوح عن دياره، واتجه إلى يوتان ليواصل ترجمته ونشر

التعليم الإسلامي.

م - الشيخ سعيد الياس واني جني تان (١٨٧١ - ١٩٤٩م) حج مكة المكرمة عام ١٩٢١م، فدرس في الأزهر، وإسطنبول، والهند، عاد إلى الصين عام ١٩٢٧م، فأسس «الجامعة الصينية العربية» في مدينة تيارين مسقط رأسه، وأصدر فيها مجلة «نور الإسلام» دعا إلى تأسيس «جمعية المسلمين الصينيين لإنقاذ الوطن ومقاومة العدوان الياباني» عام ١٨٢٧، ثم عكف على ترجمة معاني القرآن الكريم، وكان الشيخ ذكي الفؤاد، وقاد الذهن، وافر العلم، قوي العزيمة، يجيد اللغات: الصينية، والعربية، والإنجليزية، وكان الشيخ من جيراننا، وأذكر أني كنت كثيراً ما أتسلل إلى فناء داره مع أقراني الصبيان لنرى هذا العجوز الغريب الذي يجلس طوال الأيام أمام مكتبه يكتب ويكتب دون الالتفات إلينا، ومن أهم مؤلفاته: «القاموس العربية الصينية»، و«الوقاية»، و«القرآن المترجم والمفسر»، وهو أول مفسر باللغة الصينية للقرآن الكريم بأجزائه الكاملة، ولا يزال كتابه هذا مرجعاً عاماً يرجع إليه المسلمون في الصين، وإني شخصياً حريص أن يكون هذا الكتاب في حوزتي أينما حللت.

ن - الشيخ إبراهيم نور محمد دا بوشنغ (١٨٧٤ - ١٩٦٥م) هو إمام اجتماعي، شارك في تنظيم جميع الجمعيات الإسلامية والمدارس الإسلامية الحديثة، وبعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية شارك في تنظيم الجمعية الإسلامية الصينية عام ١٩٥٢م، وانتخب نائب رئيس لها، وتولى رئاسة المعهد الإسلامي الصيني في بكين، وانتخب مندوباً للمؤتمر الوطني لنواب الشعب عام ١٩٥٤م، وعضواً دائماً لمجلس الاستشارة السياسية للشعب الصيني عام ١٩٥٥.

س - الشيخ محمد تواضع بانغ شي تشان المتوفى ١٩٥٨م، هو عالم أزهرى، وأول من جلب حروف الطباعة العربية إلى الصين، وأكبر مساهمته للمسلمين الصينيين هو القيام بالاتصال مع الأزهر والملك فؤاد الأول في مصر للموافقة على إعطاء منح للمسلمين الصينيين في الأزهر.

وقد تحقق ما أراد بإذن الله، فنظم وأوفد خمس دفعات من الشبان المسلمين إلى مصر منذ عام ١٩٣١ إلى عام ١٩٣٦م، وإجمالي عددهم ٣٥ طالباً، وصار معظم هؤلاء الطلبة بعد عودتهم علماء وأساتذة لعبوا دوراً هاماً في نشر دين الحق والثقافة الإسلامية في الصين، منهم أساتذتي الأستاذ عبد الرحمن ناجون مؤرخ وخبير للتاريخ العربي والتاريخ الإسلامي، والأستاذ يونس لين سينغ هوا الذي ترجم كلية ودمنة إلى الصينية، وله أبحاث كثيرة عن التقويم الهجري وصلته بالتقويم الصيني القمري، والأستاذ سعيد لين جون مينغ الذي يعنى بالتعليم الإسلامي أيما عناية، وغيرهما من الأساتذة الأفاضل الذين كرسوا كل ما في وسعهم لخدمة الإسلام والمسلمين، ومن مؤلفات الشيخ: «ذكريات تسع سنوات في مصر»، و«رسالة الإسلام»، و«تاريخ التشريع الإسلامي»، و«مذاهب الدين الإسلامي».

ع - الشيخ مالياني جيون المتوفى عام ١٩٥٨م، كان يواظب على التأليف والترجمة باللغات الصينية والعربية والفارسية، وأنفق كل ما يملك لطبع ونشر الكتب الدينية، فحظي باحترام بالغ لدى مسلمي الصين، ولا سيما المسلمين في سينجيانغ، وله ترجمات مثل: «المبسوط في الفقه» للإمام محمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي، و«المخمسات»، وهي مجموعة كبيرة من القصائد في مديح النبي ﷺ.

ف - الأستاذ محمد مكين (١٩٠٩ - ١٩٧٨م) درس العربية وعلوم الدين في دار المعلمين للمسلمين في شانغهاي ١٩٢٨م، ثم أوفد في أول بعثة إلى مصر عام ١٩٣١م، فدرس في الأزهر ودار العلوم، واشتغل مدرساً في مصر، عاد إلى الصين عام ١٩٣١م (يقوم بترجمة معاني القرآن الكريم)، ثم اشتغل أستاذ اللغة العربية في قسم اللغات الشرقية بجامعة بكين منذ عام ١٩٤٦م، انتخب عضواً لمجلس الاستشارة السياسية للشعب الصيني عام ١٩٤٠ إثر تأسيس جمهورية الصين الشعبية، ومندوباً للمؤتمر الوطني لنواب الشعب منذ ١٩٥٤م.

له مؤلفات وترجمات كثيرة أهمها « سيف محمد (ﷺ) »، و« حقيقة الدين الإسلامي »، و« منهج علم الكلام »، و« تاريخ التعليم الإسلامي »، و« موجز التقويم الإسلامي »، و« الفلسفة الإسلامية »، و« تاريخ الفلسفة الإسلامية »، وترجمة « معاني القرآن الكريم » التي تمت طبعتها عام ١٩٨١م من أكبر ما قدمه الأستاذ للمسلمين الصينيين، كما ترجم « تاريخ العرب » لجون حته.

٨- خصائص المسلمين الصينيين

المسلمون الصينيون من أهل السنة في غالبيتهم العظمى، يتبعون الإمام الحنفي، وهناك نسبة ضئيلة من الشيعة الإسماعيلية من قومية التاجيك عند الحدود الصينية الأفغانية.

ولكن لكون موقع الصين قريباً من بلاد الفرس، فتأثير الفرس والشيعة واضح عند المسلمين الصينيين، فإلى جانب « تفسير الجالين »، و« شرح الوقاية »، و« عقائد النسفية »، وكتب الصرف والنحو والبلاغة القديمة، تدرس في المدارس التابعة للمساجد كتب

فارسية مثل: « أربعة فصول »، و« المهمات »، و« عمدة الإسلام »، والمسلمون يؤدون صلواتهم بالعربية، لكن مسميات الفرائض الخمس كلها فارسية، فالصلاة: « نماز »، والأذان: « بانث »، والوضوء: « آبدیس »، والفجر: « بام بدار »، والظهر: « بيشين »، والعصر: « دكر »، والمغرب: « شام »، والعشاء: « خوفتن »، ويطلقون على الأمام: « آخوند » أي: العالم، وعلى الجهنم: « دوزهان »، وعندما ينوي المسلم الوضوء أو الصلاة إنما ينوي بالفارسية التي يتلقنها من أجداده جيلاً بعد جيل، وتعب كثيراً لحفظها دون ما يعرف أن هذه الألفاظ فارسية، فلا فرق بين النية بالفارسية وبالصينية، وعبثاً أن تحاول تصويبها وتحويلها إلى العربية، كما يفضل الكثير اللون الأخضر، لون عامة « السادة » عند الشيعة، ويطلقون على التلميذ خليفة دون ما يدري أن أهل الشيعة يستخدمون هذه التسمية للحط من مكانة الخلفاء.

الخاصية الثانية: هو أن أغلبية المسلمين الصينيين لا يعرفون اللغة العربية حتى الأئمة أنفسهم، فهم يقرؤون القرآن الكريم، بل ويحفظونه إلا أنهم يعتمدون في فهم معانيه على الترجمات أو المؤلفات التي تم تأليفها قبل مئات السنين باللغة الصينية القديمة، فيصعب على المسلمين في الوقت الحاضر فهمها، كما أنهم يتلقون علومهم شفويّاً من أجدادهم، وللأسف الشديد كان أجدادهم يتلقون التعاليم من أولياء المذاهب المختلفة، فصار الخلاف بين أتباع مذهب وبين أتباع المذاهب الأخرى قائماً، ويتفاقم في بعض الأحيان فتحول إلى نزاع ما بينهم، فنرى أن لكل طائفة من المسلمين في نفس المنطقة مساجد خاصة بهم، أو مزارات خاصة لأوليائهم، وأهم هذه الطوائف هي الطائفة القديمة

التمسكة بالتقاليد والبدع التي ليس فيها شيء من أحكام الإسلام كإقامة المآتم، وتقديم وليمة فاخرة وصدقات جزية للأئمة المدعويين إلى المآتم، وذكرى اليوم السابع، واليوم الأربعين، واليوم المائة، أو الذكرى السنوية للمتوفى، والطائفة الحديثة الداعية إلى ترك هذه البدع، ويعارضون قراءة القرآن بأجر، وقد لخص أحد شيوخهم شي وين شان «أن البدع المنتشرة في الصين ١٨ بدعة»، والطائفة الجهرية الداعية إلى تلاوة القرآن الكريم بصوت جهوري، ويعتقدون في الأولياء، وزيارة القبور، هذا التصرف يتفق مع تقاليد الصينيين في تعظيم العظماء وقبورهم ابتداء من الإمبراطور شي هوان الذي بنى سور الصين العظيم، فقبره عبارة عن مدينة كاملة تحت الأرض بعشرات من الحراس المنحوتة بالحجر، فكل واحدة منها بحجم الإنسان الحقيقي، إلى الدكتور صن يات، فضريحته الكائنة في مدينة نانكين تشغل منطقة جبلية بكاملها، وضريحة ما وتسى تونغ الواقعة في قلب مدينة بكين تضاهي أي قصر في العالم. وهنا طائفة الخفية الداعية إلى تلاوة القرآن الكريم بصوت خافت، وطائفة الإخوان التي ترى في الوهابية منفذاً للخلاص من هذه الخلافات.

إلى جانب هذه الطوائف هنا من يقلدون الطرق الصوفية من النقشبندية، والقادرية، والجيلانية، والمولوية، ولكل طائفة صومعة لها كمركز الدعوة لمذهبه، ومحل الزيارة والتبرك لأتباعها، فقد قلت النزاعات بين هذه الطوائف أو تكاد انعدمت في الآونة الأخيرة، إلا أن الخلافات والتعصب لا تزال قائمة، ولن تتحسن هذه الحالة إلا برفع المستوى الثقافي بين المسلمين وإدراكهم، وبتعميم أحكام الدين الإسلامي الصحيحة.

والخاصية الثالثة: هي أن أغلب المسلمين يسكنون في شمال غربي الصين، ومقاطعة يونان في الجنوب الغربي، والذين يتناثرون في أنحاء الوطن، ولا سيما الشمال منه، يتجمعون أيضاً في حي خارجي أو أحياء عدة في المدن، أو في قرية خاصة، أو عدد من القرى في المحافظات.

والسبب في ذلك يرجع إلى أن المسلمين الأوائل الذين جاؤوا إلى الصين في عهد المنغول يرابطون في المعسكرات، فاستوطنوا فيما بعد في المواقع القريبة من المعسكرات، ولا تزال القرى تحمل أسماء ففي مدينة بكين مثلاً فيها ١٨٥ ألف مسلم يسكن الكثير منهم في شارع البقر والشوارع المجاورة له.

والخاصية الرابعة: هي أن معظم المسلمين يزاولون التجارة، فكانت تجارة الجواهرات في حوزتهم قبل تأسيس الجمهورية، ويشتغلون في المسالخ ومصانع دباغة الجلود، والمطاعم، وذلك لتوفير اللحوم المذبوحة حلالاً، والأطعمة الخالية من المحرمات للمسلمين تسهيلاً لمعيشتهم.

وفي مدينة كاشغر البالغ تعداد السكان فيها مليوني نسمة، يزاول ستون بالمائة من المسلمين التجارة، فصارت أسواقها بعد انفتاح الصين أكبر أسواق في آسيا الوسطى على حد قول الأجانب.

والخاصية الخامسة: هي أن المسلمين يسكنون في مناطق متأخرة نسبياً اقتصادياً وثقافياً، فأهل هذه البيئة محافظون يأبون أي إصلاح أو تجديد، فهم يحتفظون بكل ما تلقنوه من أجدادهم، ولا يقبلون أي تغيير، وعلى سبيل المثال أنهم يلبسون الطاقيات البيضاء، أو العمامات في العادة، فيمنع أي مصلح في الرأس من دخول المسجد إلا إذا غطى رأسه

بشيء حتى المنديل، وهم يستخدمون في الطهارة والوضوء الدلو والأباريق، فيأبون تبديلها بالدش والحنفيات بحجة أن ذلك يؤدي إلى إسراف الماء، ومخالف للمقادير المحددة في استهلاك الماء عند الطهارة والوضوء.

والخاصية السادسة: هي مكانة الإمام الخطرة، وأهميته في المجتمع الإسلامي، فتشتمل مهمته ما عدا الصلاة والوعظ، وخطبة الجمعة، والعيدين، على عقد الزواج، وتسمية الأولاد، فكل مسلم اسم إسلامي وآخر صيني، ومساعدة المسلمين على حل مشاكلهم، وتلاوة القرآن الكريم في حفلات الزفاف، أو عندما يرزق الزوجان طفلاً، أو للصلاة على الميت، أو في مناسبة الختان، أو في أي مناسبة من المناسبات، ففي كل الحفلات هو المدعو الرئيسي، يبدأ الاحتفال بحضوره، ويختتم بمغادرته، وقد يشرف على الذبح، أو يذبح بنفسه، وفي هذه الحالة يكون جلد الكبش أو البقر من نصيبه، وإذا أعد مسلم طعاماً شهياً لا يهدأ باله إذا لم يرسل بعضاً منه إلى بيت الإمام.

٩- أحوال المسلمين في الوقت الحاضر

يبلغ عدد المسلمين الصينيين اليوم ١٥ مليوناً تستوطن غالبيتهم في منطقة شينجيانغ الويغورية الذاتية الحكم، ومنطقة نينة شيا الذاتية الحكم لقومية هوي، ومقاطعات تشنغهاي، وقانسو، وشانشي في شمال الصين الغربي، ومقاطعة يونان في الجنوب الغربي، ومقاطعات خبي وخنان وشاندونغ في شمال الصين، وهم ينتمون إلى عشر قوميات من بين ٥٦ قومية الصين هي: هوي، وأويغور، وقازاق، وقوغين، وتاجيت، وتتار، وأوزبيك، وشيانغ، وسالار، وبلاوان.

وهناك تقديرات مختلفة حول عدد المسلمين الصينيين، ولكن كلها مجرد تقدير، وغالباً ما تكون فيه المبالغة لسبب من الأسباب، ولم يجر إحصاء دقيق في الصين لعدد سكانها إلا بعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية، أي بعد توحيد البلاد، مرة في عام ١٩٥٤م، ومرة في عام ١٩٨٠م على أساس القوميات، لأن الإحصاء في الصين لا يعني تصنيف الناس حسب دياناتهم، وإنما يصنفهم تبعاً لقومياتهم التي ينتمون إليها، فقد محي منذ الستينات في أي استمارة رسمية بند «الديانة» الذي كان موجوداً في الخمسينات؛ إلا أن هناك عدداً قليلاً من المسلمين لم يدرجوا في الإحصاء باعتبارهم مسلمين، لأنهم لا ينتمون إلى القوميات العشر المعروفة باعتناق أبنائها الدين الإسلامي منذ قرون عديدة، وهم مسلمو قومية المنغول وقومية التيبتي.

إن المسلمين الصينيين يتمتعون بكل من حرياتهم في أداء شعائرتهم الدينية، فالدستور ينص على أنه يجب للمواطنين الاعتقاد الدينية، بل ولهم امتياز عن غيرهم، ففي مناطق تجمع المسلمين والقوميات الأقلية الأخرى لا يطبق قانون تحديد النسل، بينما في بقية المناطق لا يسمح لكل عائلة إنجاب أكثر من واحد ذكراً كان أم أنثى، كما أن المسلم إذا توفى يدفن بالتراب في المقابر الخاصة بهم، بينما تحرق جثث غير المسلمين.

ويتمتع المسلمون بعطلة يوم واحد لكل من عيد الفطر والعيد الأضحى حتى يتسنى لهم الذهاب إلى المساجد ليؤدوا صلاة العيدين، وفي مناطق تجمع المسلمين يعطلون ثلاثة أيام، ويزيدون يوماً لذكرى مولد النبي ﷺ.

وتعتني الحكومة بإنشاء المصانع والمخازن الخاصة للحوم المذبوحة حلالاً في الشريعة الإسلامية، والمطاعم ومصانع الحلويات والكعك والصابون الإسلامية، وفي المصانع والدوائر الحكومية والمدارس والجامعات الكبيرة توجد مطاعم خاصة للمسلمين، أما إذا كان عدد المسلمين قليلاً في هذه الوحدات، فتقدم لهم الحكومة علاوات شهرية، حتى يسهل عليهم تناول وجبات الغداء في المطاعم العامة التي تكون الأسعار فيها أعلى من المطاعم الخاصة بمصنع أو مدرسة، فمعظم العاملين لا يتغدون في بيوتهم؛ إذ أن الدوام في الصين ثماني ساعات، لعل القراء يستغربون من الحلويات والصابون الإسلامية، ويتساءلون لماذا هذه الحيلة والحدز؟ إن الصين من أكثر بلدان العالم استهلاكاً للحم الخنزير، حتى يرد في الإحصاء الرسمي لكميات المنتجات أحياناً بند: «لحم الخنزير» بدلاً من «اللحم»، ففي نظر الكثير صار لحم الخنزير مرادفاً للحوم، ويستخدم شحم الخنزير في صناعه الكعك والحلويات والصابون بكثرة، فالمسلم المتقي لا يستسيغ له تناول كعك فيه شحم الخنزير، أو استعمال الصابون المصنوع بشحمه.

ولكن كيف أحوال المسلمين أنفسهم، وما درجات إيمانهم؟ فشانهم شأن كثير من المسلمين في العالم الإسلامي، فهم يتصنفون إلى أصناف متفاوتة في إسلاميتهم حسب تقديري، فمنهم المتصوفون أو المتدينون المبالغون في العبادات، فيكثرون من النوافل ويصومون ثلاثة أشهر: رجب، وشعبان، ورمضان، وكل يوم الإثنين، والخميس، ومنهم المسلمون المثاليون الذين يواظبون على الصلوات الخمس يومياً، ويؤدون جميع العبادات والشعائر الدينية عدا الحج لعدم وجود إمكانيات لهم، ومنهم من يصلي صلاة الجمعة والعيدين، ومن يصلي العيدين فقط،

ومنهم من يتذكر أنه مسلم عند عقد الزواج، وعند ما يلقي حتفه فيدفن بالطريقة الإسلامية، ومنهم من إذا سأله ما هو الإسلام؟ فيجيب أن الإسلام هو عدم السماح بتناول لحم الخنزير، والغريب أن في معظم المطاعم الإسلامية يقدم الخمر بأنواعه، حتى صار في مفهوم الناس أن تناول لحم الخنزير أو عدم تناوله هو الخط الفاصل بين الكفر والإيمان. ومنهم من يعترف بأنه مسلم فيقول كان جدي، أو أبي مسلماً؛ لأن الإسلام أو أي دين آخر في نظر الأغلبية الساحقة من الكفار هو أفيون الشعب، وخرافات، وتأخر، وتخلف، وضد العلم.

والأصناف الأخيرة متواجدة في المناطق التي تكون نسبة المسلمين فيها ضئيلة، أما في مناطق تجمع المسلمين فلا يزال الناس يتمسكون بمبادئ الإسلام، وخاصة في السنوات الأخيرة، فقد ظهر مد النهضة الإسلامية فبني كثير من المساجد الجديدة حتى يصل عددها إلى ٢٠ ألف مسجد، ويصل عدد الأئمة ٣٠ ألف إمام، وفي مناطق كثيرة يتحمس المسلمون، ولا سيما الشبان في دراسة اللغة العربية لغة القرآن الكريم، ويتلهفون على معرفة المزيد من أصول الدين الإسلامي الحق.

١٠- مستقبل المسلمين الصينيين: آمال وتطلعات

بعد أن عرضنا أحوال المسلمين: ماضيهم وحاضرهم وجدنا أن الإسلام بعد ألف وثلاثمائة سنة من دخوله أرض الصين لا يزال عامراً في ربوع الصين، يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن العلماء الذين درسوا في منبع الدين الحر لعبوا دوراً كبيراً فعلاً في نشر الإسلام بين الناس، وأن مفهوم الإسلام يختلف الآن بين المسلمين الصينيين، فهم في حاجة ملحة إلى معرفة حقيقة الإسلام وجوهره، ولكن أين السبيل؟

بعد انتهاج الصين سياسة الانفتاح، تهافت السياح الأجانب على الصين، ومعهم المبشرون للنصرانية والكاثوليكية، ولكن العالم الإسلامي لم يتحرك ويمد يده إلى إخوانهم في العقيدة الذين طالما يشتاقون إلى توثيق الاتصال والروابط مع إخوانهم في العالم الإسلامي، فالمنظمات والحكومات من الدول الإسلامية لا تزال يراودها الخوف من الاتصال بهم لأسباب سياسية عديدة، والمطلوب الآن من العالم الإسلامي هو إقامة وتوثيق الاتصال مع المسلمين الصينيين بشتى السبل أسوة بالغربيين، وربما هنا مفهوم قديم لا يزال يشد أيدي المسئولين في المنظمات الإسلامية وحكومات الدول الإسلامية ألا وهو أن أي اتصال لا يتم إلا عن طريق الحكومة، ولكن الآن تفرغت عن الطريق الرئيسي شعاب كثيرة يمكن السير عليها، فهناك آلاف الطلبة الذين يدرسون على حسابهم الخاص في الدول الغربية، كلهم حصلوا على المنح الدراسية عن طريق الاتصال الشخصي، فلماذا لا تعمل بنفس الطريقة المنظمات الإسلامية والجامعات الإسلامية؟ وحبذا لو قدمت المنح الدراسية للشباب المسلمين الصينيين على المستويين: الثانوي والجامعي لدراسة اللغة العربية والقرآن الكريم وأصول الدين الإسلامي حتى يتمكنوا من معرفة التعاليم الصحيحة للإسلام، ويتدرعوا بالعلم فيفيدون بعد عودتهم آباءهم وإخوانهم، وهذا أمر يتوافق مع سياسة الانفتاح، لا يجرح الشعور ولا يمس بسيادة.

سواء أيتم الاتصال عن طريق الحكومة أو الجمعية الإسلامية الصينية أو فروعها أو عن طريق الأشخاص، وهذا أضمن السبل للمحافظة على تطوير الإسلام في الصين، وتخفيف الآثار السلبية التي تركتها العزلة قبل عصر الانفتاح أمر يتوقف على مبادرة الجمعية

الإسلامية الصينية.

وهناك مجال آخر هو إقامة علاقات اقتصادية، فقد تشكلت الآن عشرات الشركات الإسلامية للاستثمارات والتجارة العامة في المناطق المختلفة من قبل الحكومة، أو أشخاص تدعمهم الحكومة، وتهدف هذه الشركات إلى توثيق العلاقات الاقتصادية، وجذب رؤوس الأموال العربية للاستثمارات التي تنفع الجانبين، إلا أن هذه الشركات لم تجد استجابة إيجابية من الدول العربية والإسلامية لقلّة خبراتها ونقصانها للكوادر الأكفاء، بينما الشركات الأخرى غير الإسلامية قد مشت شوطاً بعيداً في هذا المجال، فظهرت في الصين مصانع ضخمة، وفنادق فاخرة برؤوس أموال أجنبية، أو مشتركة، فإني أرجو أن يكون هذا المجال جسراً من جسور الاتصال بين مسلمي الصين وبين إخوانهم في العالم الإسلامي في المستقبل القريب بمشيئة الله. ومما يبعث السرور والتفاؤل ونبئ بالخير أنه انعقد في مدينة ينشوان عاصمة منطقة نينغشيا الذاتية الحكم لقومية هوي في ١٨ سبتمبر عام ١٩٨٥م مؤتمر التعاون الاقتصادي الفني الدولي الإسلامي، وذلك لأول مرة في الصين بعد انفتاحها على العالم الإسلامي، كما وضع في نفس الوقت حجر الأساس للمركز الثقافى الإسلامي، وأقيمت الاحتفالات بهذه المناسبة.

يضم المركز مسجداً وأكاديمية ومكتبة ومتحفاً إسلامياً ومساكن للخبراء المسلمين، ومستشفى على مساحة كبيرة قدرها ستون ألف متر مربع.

والمجال الثالث هو توسيع نطاق الحج بصورة أوسع وإزالة كل العقبات التي تحول بين المسلمين الصينيين وبين الحج وتقديم كل

التسهيلات لهم.

إن العام الذي طرقت فيه قتيبة بن مسلم الباهلي أبواب الصين هو نفس العام الذي عبر فيه طارق بن زياد مضيقه إلى الأندلس، إلا أن الأندلس اليوم خلت من وجود الإسلام أو كاد، إنما في الصين لا يزال الإسلام ينبض نبضاته القوية، ولكنه يحتاج إلى تزويده بدم جديد، ينتعش ويدرك بركب مسيرته العصرية.

إن شرح محاسن الدين الإسلامي وبيان عقائده وأخلاقه وأحكامه وإصلاحه من أعظم الجهاد ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ " فليعمل بذلك المسلمون في مشارق المعمورة ومغاربها ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾.

تر الكتاب

المحتويات

٧٤	الاستقبال قبل المدينة
٧٤	مدينة تيانجين
٧٨	المسجد الكبير في تيانجين
٨٢	أقدم مسجد في تيانجين
٨٧	جولة في المسجد
٩٠	حديث عن المساجد في المنطقة
٩٤	غرفة تدريب الأئمة
٩٦	المطعم الجميل
٩٩	سوق التينيات التسع
١٠٠	نزهة في تيانجين
١٠٥	تاريخ تيانجين
١٠٨	فيضان الدراجات
١٠٩	مقياس الجمال
١١٢	حديثه فوق البحيرات
١١٥	العودة إلى جامع تيانجين
١١٦	مقابلة وزير الأديان
١٢٥	هدية الرابطة للجمعية الإسلامية
١٢٦	في سوق شعبية
١٢٨	المعرض الدولي للسجاد
١٢٩	الجمعة في جامع الشرقي
١٣٣	الاجتماع بالأئمة وطلاب العلم
	زيارة الرئيس الفخري للجمعية الإسلامية
١٣٦	الإسلامية
١٤٠	قصر الصيف

	صورة عن شهادة التكريم التي حصل عليها المؤلف
٢٠	مؤلفاته المطبوعة في الرحلات
٥٠	مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات
١٠	سبب الرحلة
١٧	وقفة ومشكلة في كراتشي
٢٤	في الضخمية السعودية
٢٦	من كراتشي إلى بكين
٢٨	شيء جديد وجميل
٢٩	فوق مطار بكين
٣٢	في مطار بكين
٣٤	في مدينة بكين
٣٦	برنامج الزيارة
٤١	التباطؤ في الخدمة
٤١	مقر الجمعية الإسلامية الصينية
٤٣	الاجتماع الرسمي
٤٦	في مطعم تركستاني
٥٠	حفلة الجمعية الإسلامية
٥٣	استكمال المباحثات
٥٦	تمشية نصف الليل
٥٨	إلى مدينة تيانجين
٦٢	شارع السلام الدائم
٦٦	محافظة قونغ شيان
٦٨	القطعة ألفا متر
٧١	

- ٢٠٢ الرياضة في الميدان
- ٢٠٣ إلى الجبل الغربي
- ٢٠٥ المنطقة الصناعية
- ٢٠٦ قرية الفرس
- ٢٠٦ قرية قم الحجر
- ٢٠٧ الصعود الصعب
- ٢٠٧ إلى باب التين
- ٢١٢ معبد بوذي قديم
- ٢١٧ القاعدة الذهبية لمعرفة السن
- ٢١٧ معبد خواتين
- ٢٢١ مادة جمعية كون منغ
- ٢٢١ مسجد شن جن جي
- ٢٢٨ المسلمون في يونان
- ٢٢٨ ماضي المسلمين في يونان
- ٢٢٩ السيد أجل شمس الدين
- مساهمة عظيمة لمسلم في بناء مناطق الصين
- ٢٢٩ الحدودية
- ٢٣٠ فن السياسة المرنة
- ٢٣١ واسع الأفق ورحب الصدر
- ٢٣٣ ضليح وبارع في الاقتصاد
- ٢٣٥ المدرسة الأولى
- ٢٣٦ غرس الدين الإسلامي
- ٢٣٨ المصحف المخطوط المطبوع
- ٢٣٩ صلاة الظهر
- ٢٤٠ الحفل الكبير
- ٢٤٤ الأقليات القومية
- ٢٤٦ الاجتماع بنائب رئيس الحكومة
- ٢٥١ مغادرة يونان
- ١٤٥ الممر الطويل
- ١٤٨ البحيرة التي انقلبت جيلاً
- ١٥١ جلسة المباحثات
- ١٥١ تمشية في سوق شعبية
- ١٥٣ البيض يوزن وزناً
- ١٥٦ من بكين إلى شنغهاي
- ١٥٩ تشنغهاي وشنغهاي
- ١٦٢ المرافقون
- ١٦٢ في مطار شنغهاي
- ١٦٦ عشاء شنغهاي
- ١٦٧ حديقة قصر الضيافة
- ١٦٩ مغادرة شنغهاي
- ١٧٦ في مطار كون منغ
- ١٧٥ ثمانية أنهار في المدينة
- ١٧٦ مدينة كون منغ
- ١٧٨ فندق كون منغ
- ١٨٠ جولة في كون منغ
- ١٨٥ على ضفة المنظر الكبير
- ١٨٦ حديقة داكون لو
- ١٨٨ فيض من الزهور
- ١٩٠ والهضاب الصناعية
- ١٩١ زنزانات الأشجار
- ١٩٤ منظر غريب
- ١٩٥ المشتهون في الصين
- ١٩٦ والمشكلون
- ١٩٧ مطعم المسلمين
- ١٩٨ الطعام المفضل
- ٢٠١ موعد الإفطار

- (٢) - المسلمون الصينيون عبر التاريخ. ٢٨١
- (٣) - ظهور القوميات الصينية المسلمة وتصيين أسماء المسلمين. ٢٨٤
- (٤) - عصر ثورات المسلمين وتعرضهم للمذابح والإبادة. ٢٨٦
- (٥) - أحوال المسلمين الصينيين في العهد الجمهوري والعهد الاشتراكي. ٢٨٧
- (٦) مساهمات المسلمين الصينيين لوطنهم الأم. ٢٩٠
- (٧) علماء الدين الذين لهم يد سابقة في نشر الإسلام في الصين. ٢٩٥
- (٨) خصائص المسلمين الصينيين. ٣٠٢
- (٩) أحوال المسلمين في الوقت الحاضر. ٣٠٦
- (١٠) مستقبل المسلمين الصينيين: آمال وتطلعات. ٣٠٩
- المحتويات. ٣١٣

- من كون منغ إلى قوانق تشو (كانتون) ٢٥٣
- في مطار قوانق تشو. ٢٥٥
- مدينة قوانق تشو. ٢٥٧
- غداء الأجانب. ٢٥٩
- جولة سريعة. ٢٥٩
- قول لابن بطوطة. ٢٦٠
- عود إلى الجولة. ٢٦٢
- مقبرة المسلمين. ٢٦٣
- شارع الشعب. ٢٦٤
- حديقة الأزهار الصفراء. ٢٦٤
- شارع صن يات صن. ٢٦٦
- الحي القديم. ٢٦٧
- نهر اللؤلؤ. ٢٦٨
- الصداقة. ٢٧١
- المطعم الإسلامي. ٢٧٢
- مغادرة كانتون. ٢٧٤
- في مطار هونغ كونغ. ٢٧٦
- خاتمة. ٢٧٨
- (١) - دخول الإسلام الصين. ٢٧٩


مطبعة النرجس التجارية
NAAJIS PRINTING PRESS

تلفون : ٢٣١٦٦٥٤ / ٢٣١٦٦٥٣

فاكس : ٢٣١٦٨٦٦ الرياض